روايات الهلال

البيت والعالم



رابندرانات طاغور

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٣٨ — فبراير ١٩٧٧ — صفر ١٣٩٧
No. 338 — February 1977

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

سكرتير التحرير : موسى عبيد

المدير الفني : أحمد فاضل

المشرف الفني : جمال قطب

بيانات ادارية

ثمن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما . عن الكميات المرسلة بالطائرة — في سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، في الاردن ٢٠٠ فلسا ، في العراق ٣٠٠ فلسا — في الكويت ٣٠٠ فلسا — في السعودية ٣٫٥ ريال سعودي

قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحاد البريد العربي والافريقي ١٥٠ قرشا صاغا — في سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٫٥ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . وفي الخارج بشيك سرفي قابل للصرف في جمهورية مصر العربية . والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي — وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب .

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشـــــة
الفنـــان جمال قطب

البيت و العالم

بقلم
رابندرانات طاغور

ترجمة
دكتور شكري محمد عياد

دار الهلال

طاغور الشاعر الانسان

تحتفل البشرية كلها فى هذه الأيام بالشاعر الفذ الذى سخر قلمه لخدمة الانسان وتثبيت حقوقه — وهو عرفان خليق أن شارك فيه بقلبه كل انسان يؤمن بنفسه وبقيمته ، ومن ثم فليس عجيبا أن تجتمع القلوب على احياء ذكرى الشاعر الانسان رابندرانات طاغور فى كل بقاع الأرض ، فلقد كان طاغور المنافح عن الانسان فى كل مكان بذوب قلبه وعصارة ذهنه ، لا يعرف فى دفاعه حدودا ولا سدودا ، ولا يفرق فى تقديره للانسان بين جنس وجنس ولا بين لون ولون ولا بين دين ودين . كان الانسان عنده هو الانسان فى اية صورة ركب وفى أى أرض نشيء . كان يرى الانسان قدسيا لأنه الصورة التى تتجلى فيها قدرة القادر وعظمة الخالق على الأرض — كان يحب الانسان — أى انسان — ويقدس حقه ويجهد فى سبيله . لم يفقد قط حتى فى أحلك ساعات حياته ايمانه بالانسان ولم ين قط عن السعى الدائب فى سبيل تحقيق سعادة الانسان .

تلكم المزية التى انفرد بها طاغور هى التى جعلت الأبصار كلها تتجه اليه فى هذه الأيام لتنفض عن ذكراه غبار السنوات التى مرت ، ولتعيد الى الأذهان عهده الذى كتبه فى أخريات أيامه وتركه تراثا حيا خالدا للانسانية لتتأمل فيه كلما حزبها الأمر واشتد بها الخطب وأحلولكت الظلمات ، ظلمات المادة التى ارتكست فيها البشرية من أسف منذ سنوات طوال . لعل صيحة هذا الشاعر من وراء الأبدية تجد من يصيخ لها السمع ويفتح لها القلب عن ايمان بها فيعمل على أن يعيد للبشرية اتزانها وايمانها بالقيم الانسانية التى تحتفى بالمادة وتقدر الروح حق قدرها بلا اسراف فى الأولى أو تطفيف فى الثانية .. لقد كتب طاغور فى رسالته الأخيرة يقول :

« مهما يكن من شيء فاني لن أرتكب الخطيئة الخطيرة : خطيئة فقدان الايمان بالانسان ، والرضوخ للهزيمة التي حاقت بنا في الوقت الحاضر على اعتبارها نهائية وحاسمة . بل سأظل أتطلع بأمل الى تحول في مجرى التاريخ ، وبعد أن تنجاب هذه الغمة الجاثمة وتصفر السماء ثانية وتهدأ . وربما بزغ الفجر الجديد من أفقنا هذا ، أفق الشرق ، حيث تشرق الشمس . وعندئذ تهب روح الانسان التي لم تهزم لتقوده من جديد الى طريقه ، طريق التقدم رغم كل العوائق ، ليسترد تراثه الضائع » .

هذه الرسالة : رسالة الايمان بالانسان وبروح الانسان ، والايمان بأن البعث الجديد سيأتي من الشرق .. هي التي تغنى بها طاغور في شعره وموسيقاه وهي التي تمثل لب فلسفته كلها — هذه النبوءة التي أرسلها هذا العبقري بعد أن كشف أسرار الوجود بنغماته التي استوحاها من قلب الطبيعة الذي نفذ اليه ببصره واستكنه حقائقه ببصيرته واخلاصه .. قد بدأت تتحقق ، وأخذ الشرق ينتفض انتفاضات أيقظت شعوبه من غفوة رانت عليها ، فهبت تبدد الغيوم الحالكة التي خيمت في سمائها ، وترسل قبسات من الضوء الكاشف تؤذن بانبلاج الفجر وبزوغ النور الهادي من قلب المشرق ليهدي البشرية ويقودها الى الطريق السديد الذي بشر به طاغور ... وانه لتوفيق أي توفيق أن يتسنم الشرق مكان الهداية الى الحق والخير والجمال في هذه الأيام التي يكتمل فيها قرن على مولد شاعر الانسان والحق والخير والجمال رابندرانات طاغور .

من أجل هذه المعاني ومن أجل هذه الدعوة الى تقديس الانسان ورعاية حقه يحتفل الشرق والغرب بذكرى طاغور .. وطاغور نسيج وحده ، فقد جمع الى حكمة الشرق ثقافة الغرب . والى عراقة الأصل وشرف المحتد الايمان العميق بالشعب وبالجماعة الانسانية ، والى زكانة القلب ورجاحة العقل وذلاقة اللسان وطيب المعشر والى علو المكانة ، شرف الجهاد من أجل حرية بلاده واستقلالها . وهو بهذا كله قد احتل مكانا فريدا في تاريخ الهند الحديث ، بل وفي تاريخ الشرق كله ، حتى استحق بحق أن ينعت بأنه أعظم فنان في العصر الحديث ، وأن تخلع عليه جائزة نوبل في عام ١٩١٤ .

لقد ولد طاغور فى السابع من شهر مايو سنة ١٨٦١ ، بمدينة كلكتا فى أسرة موسرة ذائعة الصيت ذات تاريخ مجيد وجذور عميقة فى عالم الثقافة ودنيا الأدب والسياسة . فكان جده راعيا للفنون والآداب فى عصره ، وكان أبوه من أعظم المصلحين الاجتماعيين، وكان من أسرته النابغون فى الرسم والموسيقى والأدب .. هذا التراث الثقافى الوفير العناء الذى أخذه أبوه عن آبائه واجداده مضافا الى مواهبه الفريدة قد خلق منه عبقريا فذا متعدد الجوانب مكتمل النبوغ ، وهيأ له التحليق فى كل ميدان الى القمة ، فكان بين الشعراء أفحلهم ، وبين المسرحيين أنبغهم ، وبين الفنانين أرقهم ، وبين الموسيقيين احلاهم ترجيعا ، وبين المصلحين أشجعهم رأيا وأدقهم بصرا بالأمور ، وبين المربين أعلمهم ، وبين الوطنيين اكثرهم جهادا وأعمقهم ايمانا بحقوق وطنه ، وبين المتحدثين اكثرهم جاذبية وأشدهم اقناعا ـ لقد اكتملت فى يده أداة الفن فى شتى صورها ، فأرسل الأغانى تنساب حلوة النغم حافلة بالمعانى لتنفذ الى القلوب وتستولى على الألباب ـ كان يتميز بفكر موسيقى وقلب موسيقى فجاءت كلماته موسيقى عذبة تستمد أنغامها من غناء الطبيعة الساحرة فى كل مظاهرها .

لقد ترك طاغور لمحبى الفن والأدب أكثر من ألف قصيدة وأكثر من ألفى أغنية بالاضافة الى عديد القصص القصيرة والطويلة ، والمسرحيات والمقالات والبحوث التى عالجت موضوعات كثيرة ومختلفة ، فهو فى انتاجه من حيث الكم لا يباريه شاعر آخر ، ومن حيث الكيف لا يرقى الى مستواه الا قلة من العباقرة ـ على أن انتاج طاغور لم يقف عند هذا الحد ، فالشعر والأدب لم يستنفدا كل طاقاته الكامنة العارمة فعمد الى الموسيقى يؤلف فيها ويفرغ بعض طاقاته ، والى الرسم ينفس عن بعض مكنون طاقاته الفنية ، ومن عجب انه بدأ يرسم وهو فى السبعين من عمره ، ومع ذلك انتج أكثر من ثلاثة آلاف لوحة بعضها فريد فى كماله الفنى .

هذا التنوع الفذ قلما اجتمع لشخص واحد ، ولكنه اجتمع فى طاغور ، لأن طاغور كان يؤمن بالحياة ويحبها ولا يزهد فيها ، كان يهب نفسه للكون باعتباره جزءا منه ، فعرف الكون وعرف الحياة ، وتفتحت له أسرار الوجود بالايمان والحب والعمل ..

هذا الانسان الفريد الذى كرس حياته للانسان ، واستلهم شعره من روح الانسان ، ومن رسالة خالق الكون للبشرية جمعاء ، ومن ايمانه العميق بأن كلمة الله العليا ورسالته للبشرية لن تدرك حق الادراك الا حين تسود الحرية وتتحقق العدالة الاجتماعية ، هذا الانسان المؤمن بحق كل منا فى الحرية والعدالة الاجتماعية ، من حقه علينا وعلى الانسانية التى وجه ضراعاته الى مالك الملك لينقذها من مسالك الضلال ويهديها الى الصراط المستقيم ، والتى أرسل أغانيه وأشعاره ليوقظها من سباتها وينهضها من كبوتها ، من حقه علينا فى ذكراه المئوية أن نعيد قراءة فيض خواطره ، وأن نردد أشعاره وأغانيه ، وأن نلقنها أبناءنا ونملأ بها جوانحهم ، ليشبوا مؤمنين برسالته عاملين على تحقيقها .

ووفاء لهذا الحق تصدر الادارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم هذه المختارات من مقطوعاته الشعرية وهى الهلال وشيترا وجيتنجالى والبستانى وجنى الثمار ومكتب البريد والبيت والعالم وهى ترجو بهذا أن تكون قد أسهمت فى احياء ذكرى هذا العبقرى . فليس أحفظ للذكرى من احياء فكر العظيم بمداومة قراءته حتى يستقر فى النفس ايمانا ويحفز للعمل من أجل الحرية والسلام ورعاية حقوق الانسان : تلك المبادىء التى آمن بها طاغور ودعا اليها فى :

* أيتها الأمم الفتية هبى وأعلنى صيحة الجهاد من أجل الحرية
* وارفعى راية الايمان الغلاب الذى لا يقهر
* واقيمى من حياتك معبرا يرأب صدع الأرض التى مزقتها الأحقاد والاحن .
* ثم سيرى للأمام ..

مصطفى حبيب

الفصل الأول

حكاية بيمالا

— ١ —

اماه ! ترتسم فى ذهنى اليوم صورة الطابع القانى (١) على مفرق شعرك ، والسارى الذى تعودت أن ترتديه ، بحاشيته الحمراء العريضة ، وعينيك هاتين العجيبتين ، ملؤهما عمق وسلام . ترتسم فى ذهنى وأنا على أول الطريق فى رحلة حياتى ، كأنها أول خيط من خيوط الفجر يمنحنى زادا ذهبيا يعيننى على المضى فى طريقى.

السماء التى تعطى النور زرقاء ، ووجه أمى كان أسمر، ولكنها كانت تشع قداسة ، وحسنها يزرى بكل غرور الحسان .

ويقول كل الناس : انى أشبه أمى . وكنت فى صباى أغضب لذلك ، وأسخط على مرآتى ، فقد كنت أظن أن الله أسبغ القبح على أعضائى ، وأن قسمات وجهى السمراء لم تكن من قسمتى ، ولكنها جاءتنى سهوا . ولم يبق لى شىء أسأل الله أن يعوضنى به الا أن أكون عندما أكبر نموذجا للمرأة كما تقرأ عنها فى قصيدة ملحمية .

وعندما خطبت دعى منجم فنظر فى راحتى وقال : « هذه البنت ميمونة الطالع ، وستصبح زوجا مثالية . »

وقالت جميع النساء لما سمعنه : « لا عجب فالبنت لأمها.»

تزوجت فى بيت راجا . وكنت فى طفولتى أعرف حق المعرفة وصف الأمير فى القصص الخرافية . ولكن وجه زوجى لم يكن من نوع يستطيع الخيال أن يضعه فى أرض الخرافات . كان أسمر

(١) علامة المرأة المتزوجة ورمز الوفاء الزوجى عند الهنود . (المترجم) .

مثل وجهى ، فسرى عنى بعض الانقبـاض الذى كنت أستشعره لنقص محاسنى ، وأسئرت فى قلبى ــ مع ذلك ــ قطرة أسى .

ولـكن المنظر الجسمى اذا راغ من حواسنا الفاحصـة ودخـل هيكل قلوبنا استطاع أن ينسى نفسه . وانى لأعلم من خبرة طفولتى كيف يكون الوفاء هو الجمال نفسه فى صورته الباطنية . فعندما كانت أمى تنضد ألوان الفاكهة التى قشرتها بيديها فى عنـاية على الطبق الحجرى الأبيض ، وتحرك مروحتها بلطف لتطرد عنها الذباب بينما يجلس أبى الى طعامه ، كان قيامها بين يديه يستحيل جمالا يجاوز حدود الظاهر ، وأستطيع الشعور بقوته وان كنت طفلة . كان يسمو على كل جدل أو شك أو حساب ، كان موسـيقى خالصة .

وانى لأذكر فى وضوح كيف كنت أشمر بالطابع القانى على جبينى يضىء كنجمة الصبح حين أستيقظ بعد زواجى فى الصباح وأمسح التراب عن قدمى زوجى دون أن أوقظه (١) .

واتفق أنه انتبه ذات يوم فسألنى مبتسما : « ما هذا يابيمالا ؟ ما الذى تفعلينه ؟ »

لن أستطيـع نسـيان خجلى حين كشف أمرى . لعله حسبنى لا أبغى بذلك الا أن أكتسب فضيلة . ولـكن لا ، لا ! لم يكن فى الأمر فضيلة ، انما هو قلبى ، قلب المرأة الذى لابد له أن يعبـد كى يحب .

وكان بيت حمى عريقا فى المجد منذ أيام « البادشاهين » . وكانت بعض آدابه تنتمى الى المغول والبارتيين ، وبعض عاداته ترجع الى مانى وباراشار . ولـكن زوجى كان عصريا خالصا . فكان فى هـذا البيت أول من أتم دراسته العالية وحصل على درجة الماجستير . وكان أخوه الأكبر قد مات شـابا لافراطه فى الشراب ، ولم يعقب ولدا . أما زوجى فلم يكن يشرب ولا يستسلم للشهوات ، ومن غرابة هـذه المحافظة بالنسـبة الى مألوف الاسرة كاد الـكثيرون يعدونها أمرا منكرا ! فقد حسبوا أن الطهارة لاتليق الا بمن لم يبتسم لهم الحظ ، فالـكلف فى القمر لا فى النجوم .

---

(١) مسح التراب عن القدمين علامة على التوقير ، وتكون بأن يلمس قدمى الموقر لمسة خفيفا ثم يلمس المتقرب رأسه باليد نفسها ، وليس من المألوف أن تؤدى الزوجة هـذه الشعيرة لزوجها . (المترجم) .

وكان أبوا زوجي قد ماتا منذ زمن طويل ، وجدته العجوز هي سيدة البيت ، وزوجي هو انسان عينها ، والجوهرة التي على صدرها ، فلم تصعب عليه مخالفة شيء من العادات القديمة ، ولما دعا « مس جلبي » لتعلمني وتكون رفيقتي أبى أن يتحول عن عزمه رغم ماكانت تنفثه الألسنة الثرثارة من سموم ، في البيت وخارجه.

وكان زوجي آنذاك قد فرغ من امتحان البكالوريوس وأخذ يدرس ليحصل على الماجستير ، فاضطر للبقاء في كلكتا لينتظم في الكلية ، وكان يكتب الي كل يوم تقريبا .. سطورا قليلة وكلمات مألوفة ، الا أن خطه الكبير المستدير كان ينظر الى وجهي بحنان، أوه ، أي حنان ! وكنت أحفظ رسائله في صندوق من خشب الصندل اغطيها كل يوم بالأزهار التي جمعتها من الحديقة .

في ذلك الحين كان أمير القصة الخرافية قد اختفى كما يختفي القمر في ضوء الصبح ، وكان عندى أمير عالمي الحقيقي متربعا على عرش قلبي . وكنت ملكة ، مقعدى بجانبه ، ولكن فرحتي الحقة هي أن مكاني الصحيح عند قدميه .

لقد تعلمت بعد ذلك ، وعرفت العصر الحديث في لغته ، ومن هنا تبدو هذه الكلمات التي أكتبها وكأنها تحمر خجلا بين النثر العادى الذي يحيط بها . ولولا معرفتي لقواعد هذه الحياة الحديثة لعلمت علم السليقة والطبع أن كوني ولدت امرأة أمر خارج عن يدى ، وأن سجية العبادة في حب المرأة ليست كمقطع مستهلك يقتبس من قصيدة رومانسية ليكتب بخشوع كتابة جميلة في كراسة تلميذة .

ولكن زوجي ما كان يسمح لي بفرصة للعبادة . تلك كانت عظمته . جبناء أولئك الذين يطلبون الخشوع المطلق من زوجاتهم على أنه حق لهم ، فانه مذلة لكلا الزوجين .

كأنما كان حبه لي يفيض فوق حدودى بفيض سخائه وعطائه . ولكن حاجتي كانت الى العطاء اكثر من الأخذ ، فالحب صعلوك شرير يفتح أزهاره في تراب الطريق أحسن مما يفتحها في أصص البللور التي توضع في حجر الجلوس .

لم يستطع زوجي أن يتخلى تماما عن التقاليد العتيقة التي تسود أسرتنا ، ولذا كان من العسير علينا أن نلتقي في اية ساعة من ساعات النهار أحسبنا .(١) وكنت أعرف بالدقة الوقت الذي

(١) لا يستحسن من الزوج أن يكثر التردد على « الزينانا » أو جناح الحريم في غير ساعات معينة لتناول الطعام أو للراحة (المترجم) .

يأتى فيه ، فكان للقائنا كل عناية الاعداد المحب . كان كروى القصيدة يجب أن يأتى من خلال الوزن .

كنت اذا فرغت من عمل اليوم وأخذت حمام العصر أعقص شعرى وأجدد الطابع القانى على الجبين ، وأرتدى السارى وقد أحكمت طياته ، ثم أسترجع جسمى وعقلى من كل شواغل الواجبات المنزلية ، وأهبهما فى هذه الساعة المعينة ، بشعائر معينة ، لفرد واحد . كان هذا الوقت معه كل يوم قصيرا الا أنه لا نهائى .

وكان زوجى يقول : ان الرجل وزوجه متساويان فى الحب لأن لكليهما على الآخر حقا مساويا لحق صاحبه . ولم أجادله فى ذلك قط ، ولكن قلبى كان يقول : ان العبادة لا تسد طريق المساواة الحقيقية بل ترفع مستوى الأرض التى يلتقيان عليها ، فتظل مسرة المساواة العليا باقية ولا تنحدر الى مستوى التفاهة السوقية .

لقد كان الأشبه بخلقك الكريم ياحبيبى أنك لم تنتظر منى العبادة قط . ولكنك لو قبلتها لأحسنت الى احسانا عظيما . لقد أظهرت حبك بتزيينى وتعليمى واعطائى ما أسأله وما لا أسأله . ورأيت عمق حبك فى عينيك وأنت تنظر الى . وعرفت زفرة الألم الخفية التى كنت تكتمها فى حبك لى . لقد أحببت طبيعتى كلها وكأنما وهبك اياها قدر عزيز .

وازدهانى هذا الفيض من العبادة لأنى حسبت كل الثروة التى ساقتك الى بابى هى ثروتى . ولكن مثل هذا الغرور انما يمنع سيل الاستسلام الحر فى حب المرأة . فعندما أجلس على عرش الملكة واطلب آيات الخضوع يمضى هذا الطلب فى أزدياد ولا يشبع أبدا . وهل ثمة سعادة حقيقية للمرأة فى شعورها المجرد بأن لها على الرجل سلطانا ؟ لا خلاص للمرأة الا بأن تسلم كبرياءها فى العبادة .

يعاودنى اليوم تذكر كيف اشتعلت نيران الحسد حوالينا فى أيام سعادتنا . انما كان ذلك طبيعيا . الم يأتنى حظى السعيد بمحض المصادفة دونما استحقاق ؟ ولكن السماء لا تدع الحظ يدوم أبدا ، الا أن يوفى دين شكره يوما بعد يوم ، أياما طويلة كثيرة ، حتى يثبت ويستقر . قد يمنحنا الله الهبات ولكن لنا نحن فضيلة تقبلها والاحتفاظ بها . فوا أسفاه على النعم التى تنزلق من أيد غير جديرة بها !

كانت جدة زوجي وأمه كلتاهما مشهورتين بالجمال . كما كانت سلفتي الأرملة ذات حسن نادر المثال . ولما تركهن القدر لوحدتهن الواحدة بعد الأخرى آلت الجدة ألا تتطلب الجمال لحفيدها حين يتزوج ، فلم يؤهلني لدخول ذلك البيت الا آيات يمن الطالع التى حظيت بها .

وقل من النساء فى ذلك البيت السرى من كانت تلقى حقها من الاحترام ، الا أنهن ألفن عادات الأسرة ، واستطعن أن يبقين رءوسهن مرفوعة ، متعلقات بعزة انهن ملكات ذلك البيت العريق ، وان غرقت دموعهن كل يوم فى حباب الخمر ، ورنين خلاخيل الراقصات . فهل كان بفضل منى أن زوجي لم يقرب الشراب ولم يبدد رجولته فى أسواق النساء ؟ وأى سحر كنت أعرفه لأهدهد نفوس الرجال الثائرة القلقة ؟ لم يكن الا حظى السعيد . فلقد قسا القدر على سلفتي ، وانتهي فرحها والمساء فىأوله ، تاركا نور جمالها يضيء عبثا على أبهاء خالية ، يشتعل ويشتعل ، ولا موسيقى تصاحبه !

وكانت سلفتي تظهر احتقارها لأفكار زوجي الحديثة . ما أسخف أن يجعل سفينة الأسرة المحملة بثقل مجدها العريق تمخر تحت علم هذه البنت زوجته فقط ! لطالما لذعني سوط السخرية : « لصة سرقت حب الزوج ! » ، « خدعة تتستر فى زينتها الحديثة الفاضحة ! » وكانت الثياب الملونة الحديثة التى يحب زوجي أن يجملني بها تثير غضبا حسودا : « الا تستحى أن تجعل من نفسها شباك متجر وهى بهذا المنظر ! »

وكان زوجي يشعر بهذا كله ، ولكن طيبته لم تعرف حدودا ، فكان يتوسل الى أن أسامحها .

وأذكر انى قلت له مرة : « ان عقول النساء صغيرة معوجة ! » فأجاب : « كأقدام النساء الصينيات . ألم يطبعها ضغط المجتمع بالقبح والاعوجاج ؟ ما هن الا لعب القدر الذى يقامر بهن ، فعلام تؤاخذهن ؟ » .

ولم تكن سلفتي تعجز قط عن الحصول على ما تريده من زوجي . ولم يكن يتريث لينظر ان كان ما تطلبه مقبولا أو معقولا . ولكن أشد ما غاظني أنها كانت لا تقر بجميل ، وكنت قد وعدت زوجي الا أرد عليها ، ولكن ذلك ضاعف غضبي وأن لم أظهره . وشعرت

أن للطيبة حدودا ان تجاوزتها جعلت الرجال أقرب الى الجبن . هل أقول الحق كله ؟ لقد تمنيت فى كثير من الأحيان لو أن زوجى كانت لديه الرجولة الكافية ليكون أقل طيبة .

كانت سلفتى « الباراراني » (١) بعد شابة ، ولم تكن تدعى القداسة . بل ان كلامها ومزاحها وضحكها كان أقرب الى الجرأة ، وكانت الوصائف اللاتى تحيط نفسها بهن على شىء من الوقاحة . ولكن لم يكن ثمة أحد يعارضها ـ ألم تكن هذه هى عادة البيت؟ وبدا لى أن حظى الحسن الذى أعطانى زوجا نقيا كان يقرح جفنيها . أما هو فكان يشعر بتعاسة حظها أكثر مما يشعر بنقائصها .

ـ ٢ ـ

كان زوجى شديد الرغبة فى اخراجى من « البردة » (٢) .

وقد قلت له يوما : ماذا أريد من العالم الخارجى ؟

فأجاب : لعل العالم الخارجى يريدك .

ـ اذا كان العالم الخارجى قد سار بدونى حتى الآن فانه يستطيع أن يسير مدة أطول . ولا حاجة به أن يهلك حزنا على .

ـ وما شأنى بهلاكه ؟ ان هذا لا يعنينى . ولكننى أفكر فى نفسى .

ـ أوه ، حقا ! وماذا عن نفسك ؟

فصمت زوجى مبتسما . وكنت أعرف أسلوبه فبادرته مستنكرة :

ـ لا ، لا ، لن تروغ منى هكذا ! انى أريد أن نتصارح وننهى الموضوع .

ـ هل يمكننى انهاء موضوع ما بكلمات ؟

ـ دع التكلم بالألغاز . أخبرنى ..

ـ ما أعنيه هو أن تكونى لى وأكون لك بمزيد من الكمال فى العالم الخارجى . فهنا لايزال كلانا مدينا لصاحبه .

(١) « بارا » : أى الكبرى ، و « تشوتا » أى الصغرى . وفى بيوت السراة ذات الاسر المشتركة لا يكون للأرملة حق فى نصيب زوجها الا التمتع به طوال حياتها ، ولكنها تحتفظ برتبتها تبعا للسن ، ويظل لقبا « الكبرى » و « الصغرى » مميزين للفرعين الاكبر والاصغر ، وان كان الفرع الاصغر هو صاحب السلطان . (المترجم) .

(٢) « البردة » ومعناها « الستارة » اسم عام يدل على حياة « الزينانا » المنفصلة وجميع ما يتعلق بها من العادات . (المترجم)

— وهل يعوز شيء فيحبنا هنا فى البيت ؟
— هذى أنت منطوية فى ، لا تعرفين ماذا تملكين ولا ماذا تريدين.
— أنا لا أستطيع أن أحتمل سماعك تتكلم على هذا النحو .
— أود أن تخرجى الى قلب العالم الخارجى وتلتقى بالحقيقة . أنت لم تخلقى لتؤدى واجباتك المنزلية فقط ، لتعيشى حياتك كلها فى عالم التقاليد المنزلية وسخرة الأعمال المنزلية ! لن يكون حبنا صحيحا الا اذا تلاقينا وعرف كل منا صاحبه فى العالم الحقيقى .
— اذا كان هنا نقص ما فى معرفتنا الكاملة فليس لدى ما أقوله. ولكن أنا لا أشعر بحاجة ما .
— هبى أن النقص فى جانبى وحدى ، فلماذا لا تساعدينني على ازالته ؟

كانت مثل هذه المناقشات تتكرر بيننا . وقال لى يوما : ان الرجل النهم الذى يحب سمكته المطبوخة لا يتأذى من تقطيعها حسب حاجته ، ولكن الرجل الذى يحب السمكة يريد أن يستمتع بها فى الماء ، واذا استحال عليه ذلك فانه ينتظر على الشط ، واذا عاد الى بيته دون أن يقع نظره عليها فانه يتغذى بمعرفة أن السمكة بخير . الكسب الكامل هو أفضل شيء ، ولكن اذا استحال ذلك فان أفضل شيء بعده هو الخسارة الكاملة .

لم أحب قط طريقة زوجى فى الحديث عن هذا الموضوع ، ولكن ذلك لم يكن هو السبب فى رفضى مغادرة « الزينانا » لقد كانت جدته لا تزال على قيد الحياة ، وكان زوجى قد ملأ البيت بالقرن العشرين الى أكثر من مائة وعشرين فى المائة ، على غير هواها ، ولكنها تحملت ذلك دون أن تشكو ، ولو خرجت كنة بيت الراجا من حجابها لتحملت الجدة ذلك أيضا ، بل انها كانت متهيئة لحدوثه ، ولكنى رأيت ذلك لا يستأهل ألما بسببه . لقد قرأت فى الكتب أننا نسمى « طيورا فى الأقفاص » وليس باستطاعتى أن أتحدث عن غيرى ، ولكنى كنت أجد فى قفصى هذا ما لايتسع له العالم أو على الأقل هذا ما شعرت به آنذاك .

وكانت الجدة المسنة شديدة الاعزاز لى . وكانت فى أعماق معزتها فكرة انى استطعت بعون من طالعى السعيد أن أجتذب حب زوجى . أليس الرجال ميالين بطبعهم الى الانحدار فى الهاوية ، ثم

تستطع واحدة من الأخريات ، برغم جمالهن ، أن تمنع زوجها من الانصباب الى الاعماق الجامحة التى تلتهمهم وتدمرهم . وآمنت بأنى كنت وسيلة اطفاء هذه النار التى فتكت برجال الأسرة ، فجعلتنى فى حجرها ، وكانت ترتعد اذا أصابتنى أيسر وعكة .

لم تكن جدته تحب الثياب والحلى التى يحضرها زوجى من المتاجر الأوربية ليزيننى بها . ولكنها قالت لنفسها « لابد للرجال من هواية ما يبعثرون فيها أموالهم ، ولا فائدة فى محاولة الحد من اسرافهم ، يكفى أنهم لا يجلبون الخراب على أنفسهم ، واذا كان وحيدى « نيكهيل » عاكفا على تزيين زوجته فلسنا ندرى من التى كان يمكن أن ينفق عليها نقوده ! » فكانت كلما وصل ثوب جديد لى أرسلت الى زوجى وراحت تمازحه حول هذا الأمر .

وهكذا حدث أن ذوقها هو الذى تغير . حتى بلغ من تأثير العصر الحديث عليها أن أماسيها كانت تأبى أن تمر حتى أروى لها قصصا من الكتب الانجليزية .

وأراد زوجى بعد وفاة جدته أن أرافقه الى كلكتا لأعيش معه . ولكننى لم أستطع الاقدام على ذلك . أليس هذا منزلنا الذى أحاطته بعنايتها خلال محنها ومتاعبها ؟ ألا تحل على لعنة ان هجرته وذهبت الى المدينة ؟ كانت هذه هى الفكرة التى ألزمتنى مكانى بينما كرسيها الخالى ينظر الى فى عتاب . لقد جاءت تلك السيدة النبيلة الى المنزل فى سن الثامنة وماتت فى سنتها التاسعة والسبعين . ولم تقض حياة سعيدة . رمى القدر صدرها بسهم بعد سهم . فما زاد على أن جعل الروح الخالدة الكامنة فيها تنطلق وتنطلق حتى تقدس هذا المنزل الكبير بدموعها . فماذا عساى فاعلة بعيدا عنه فى تراب كلكتا ؟

وكان رأى زوجى أن هذه فرصة طيبة لترك سلفتى تتعزى بالسيطرة على المنزل ، مع اعطاء حياتنا مجالا للامتداد فى كلكتا . وهذا هو ماضايقنى . لقد نغصت على حياتى ، وأضجرتها سعادة زوجى ، وعلى هذا هى تكافأ ! ثم ماذا عن اليوم الذى يلزم أن نعود فيه ؟ هل أسترد عندئذ كرسى الصدارة ؟

وكان زوجى يقول : ولماذا تريدين ذلك الكرسى ؟ أليس فى الحياة أشياء أثمن ؟

ان الرجال لايفهمون هذه الأمور أبدا . فلديهم أعشاشهم فى

العالم الخارجى ، وهم لا يعرفون حقا كل ما يمثله المنزل ، فعليهم أن يتبعوا ارشاد النساء فى هذه الأمور ـ تلك كانت أفكارى آنذاك.

وكان لب المسألة فى نظرى : ان الانسان يجب أن يدافع عن حقوقه ، فالذهاب . وترك كل شىء فى أيدى العدو يساوى الاعتراف بالهزيمة .

ولكن لماذا لم يجبرنى زوجى على الذهاب معه الى كلكتا ؟ أنا أعلم السبب . لأنه كان يملك القوة ولم يستخدم قوته .

ـ ٣ ـ

لو كان على المرء أن يملأ الفجوة بين الليل والنهار قليلا قليلا لاحتاج الى عمر الأبد . ولكن الشمس تشرق فيتبدد الظلام ، وتكفى لحظة للتغلب على امتداد غير محدود .

ذات يوم بدأ عهد « السواديشى » (١) فى البنغال . أما كيف حدثت فهذا ما لم نتبينه على التحديد ، فلم يكن ثمة منحدر متدرج يصل الماضى بالحاضر . ولهذا السبب ـ كما أظن ـ جاء العهد الجديد كالطوفان محطما كل السدود ، مكتسحا كل حذر وخوف فينا . بل اننا لم نجد وقتا لنفكر أو نفهم ما حدث وما يوشك أن يحدث .

تضرج بصرى وعقلى وآمالى ورغباتى بالحمرة لحماسة ذلك العهد الجديد . ومع ان جدران المنزل الذى كان هو العالم النهائى فى نظرى بقيت ولم تتحطم ، فقد وقفت أنظر من فوقها الى الآماد ، وسمعت صوتا من الأفق البعيد لم أتبين معناه فى وضوح ، ولكن نداءه نفذ الى قلبى .

لقد حاول زوجى منذ كان طالبا فى الجامعة أن يجعل الأشياء التى يحتاج اليها شعبنا تنتج فى بلادنا . فحاول أن يخترع جهازا لاستخلاص عصير البلح واستخراج السكر والعسل منه ـ والنخل يكثر فى اقليمنا ـ وسمعت أن تجربته نجحت نجاحا عظيما ، الا أن ما استخلصته من النقود كان أكثر من العصير . وبعد فترة انتهى الى نتيجة وهى أن محاولاتنا لاحياء صناعاتنا تتعثر لحاجتنا

(١) « السواديشى » : الحركة الوطنية وقد بدأت اقتصادية اكثر منها سياسية، فكان غرضها الاساسى تشجيع الصناعات الوطنية . (المترجم) .

الى مصروف خاص بنـا . وكان فى تلك الأثنـاء يحاول تعليمى الاقتصـاد السياسى ، ولو أكتفى بذلك لما كان ثمة ضرر كبير ، ولـكن نفسه حدثته أيضا أن يعلم مواطنيه فكرة الادخار حتى يمهد الطريق لقيام مصرف ، ثم أسس بالفعل مصرفا صـغيرا ، كانت فائدته العاليـة التى جعلت القرويين يقبلون عليه لايداع أموالهم سببا لاغراق المصرف نفسه .

وشـعر موظفو الامارة المسنون بالقلق والذعر ، وهلل معسكر الاعداء فرحا ، ولم يظـل على هدوئه فى الأسرة كلها غير جـدة زوجى ، فـكانت توبخنى قائلة : لماذا تضايقونه كلـكم هكذا ؟ أهو مصير الامارة الذى يزعجكم ؟ ما أكثر ما رأيت هـذه الامارة فى أيدى المحضرين ! هل الرجال كالنساء ؟

ان الرجال مسرفون بطبعهم ، ولا يعرفون الا كيف يضيعون . يابنتى ! عدى نفسك سـعيدة الحظ لأن زوجك لا يضيع نفسه أيضا !

وكانت مساعدات زوجى تملأ قائمة طويلة . فهو على استعداد لأن يبذل معونة حتى الفشل التام المر لـكل من يريد أن يخترع نولا جديدا ، أو آلة جديدة لضرب الأرز . ولـكن أشد ما ضايقنى هو طريقة « سـنديب بابو » فى ابتزاز أمواله باسم حركة « السواديشى » . فكلما أراد أن ينشىء صحيفة ، أو يقوم برحلة للدعوة الى القضية ، أو يغير الهواء عملا بنصيحة طبيب ، قـدم زوجى اليه من المـال دون تردد . هـذا غير الراتب الذى كان « سنديب بابو » يتسلمه منه أيضا . وأعجب ما فى الأمر أن زوجى وسنديب بابو لم يكونا متفقين فى آرائهما .

ما كادت عاصـفة « السواديشى » تمسك بدمى حتى قلت لزوجى : يجب أن أحرق كل ملابسى الأجنبية .

فقال : ولماذا تحرقينها ؟ يمكنك أن تتركى لبسها ما شئت .

ـ ما شئت ! لن يكون ذلك طول عمرى ..

ـ حسنا . لا تلبسيها بقية عمرك اذن . ولـكن لماذا حكاية النار هذه ؟

ـ هل تمنعنى من تنفيذ ما عزمت عليه ؟

ـ الذى أريد أن أقوله هو هـذا : لماذا لا تحاولين أن تبنى شيئا ؟ ينبغى ألا تضيعى ولو عشر طاقتك فى هذه الحماسة المدمرة .

ـ مثل هذه الحماسة تمنحنا الطاقة لنبنى .

كأنك تقولين : لا يمكنك أن تضىء المنزل الا بأن تشعل فيه النار.

ثم كانت مشكلة أخرى . فعندما قدمت مس جلبى الى منزلنا أول مرة كثر اللغط ، ثم سكن حين تعودوا وجودها . والآن أثير الموضوع كله من جديد . ولم أكن قد شغلت نفسى من قبل بأن مس جلبى أوربية أو هندية ، ولكنى بدأت أهتم بذلك الآن . فقلت لزوجى : يجب أن نتخلص من مس جلبى .

فبقى صامتا .

وحدثته بعنف . فذهب حزين القلب .

وبعد نوبة بكاء شعرت بمزيد من الهدوء حين التقينا ليلا. وقال زوجى : اننى لا أستطيع أن أنظر الى مس جلبى خلال ضبابة من المعانى المجردة لا لشىء الا لكونها انجليزية . ألا تستطيعين أن تدركى أنها تحبك ؟

وشعرت بشىء من الخجل . وأجبت ببعض الحدة :

ـ فلتبق . اننى لست شديدة الرغبة فى اخراجها .

وبقيت مس جلبى .

ولكنى سمعت ذات يوم أن شابا أهانها وهى فى طريقها الى الكنيسة . وكنا نعول هذاالشاب ، فطرده زوجى من المنزل . ولم يستطع أحديومها أن يغفر لزوجى ذلك العمل ـ حتى ولا أنا. وفى هذه المرة ذهبت مس جلبى من تلقاء نفسها ، وبكت حين جاءت تودعنى ، ولكنى بقيت جامدة . هذا التشنيع بالفتى المسكين ! وأى فتى ! فتى ينسى حمامه وطعامه فى حماسته « للسواديشى».

ورافق زوجى مس جلبى فى عربته الخاصة الى محطة السكة الحديدية . وأيقنت أنه يجور ولا يقتصد ، وعندما رويت هذه الحادثة روايات مبالغا فيها وأثارت فضيحة عامة وصلت الى الصحف ، شعرت انه قد لقى جزاءه الذى يستحقه .

لقد طالما أقلقتنى أعمال زوجى ولكنى لم أستح منها قط من قبل ، أما الآن فقد وجب على أن أحمر خجلا من أجله ! وماكنت أعرف بالضبط أى اساءة ألحقها « نورين » المسكين أو لم يلحقها بمس جلبى ، ولا كنت أبالى بذلك ، ولكن كيف يمكن الجلوس للقضاء فى مثل هذا الأمر ؟ فى مثل هذا الوقت ! ما كان ينبغى كبح الروح التى دفعت نورين الشاب الى تحدى المرأة الانجليزية . ولم

أستطع أن أرى فى عجز زوجى عن فهم هـذا الأمر اليسـير الا علامة جبن . ولهذا خجلت له .

على أن زوجى لم يكن يرفض تأييد « السواديشى » ولا يناهض القضية بوجه من الوجوه ، وانما كان غير مقتنع كل الاقتناع بروح « باندى ماترم » (١) كان يقول :

ــ اننى أريد أن أخدم بلادى ، ولـكننى لا أعبد الا الحق ، وهو أعظم من بلادى كثيرا ، ولئن اتخذت بلادى الها أعبـده لأجلبن عليها لعنة .

(١) « باندى ماترم » معناها الحرفى : حبيت يا أمى ، وهذه الكلمات هى مطلع أغنية للروائى البنغالى بانكيم تشاترجى ، وقد أصبحت الاغنية هى النشـيد الوطنى الآن و « باندى ماترم » هى الهتاف الوطنى منذ أيام حركة « السواديشى » . (المترجم) .

الفصل الثانى

حكاية بيسالا

- ٤ -

فى ذلك الوقت جاء سنديب بابو مع أتباعه الى منطقتنا لينشر دعوة « السواديشى » .

تقرر أن يعقد اجتماع كبير فى بهو المعبد . نحن النساء جالسات هناك فى جانب ، خلف ستارة . صيحات « باندى ماترم » الظافرة تقترب ، فتبعث فى جسدى رعشة شاملة . فجأة يندفع الى الساحة المستطيلة سيل من الشباب حفاة الأقدام لابسى العمائم وعليهم لباس الزهاد الاصفر ، كما يندفع سيل محمل بالطمى الأحمر الى مجرى النهر الجاف لأول دفقة من الأمطار . ويمتلىء المكان كله بحشد عظيم يجمل فى وسطه سنديب بابو جالسا على كرسى كبير ترفعه أكتاف عشرة أو اثنا عشر من الشباب .

« باندى ماترم ! باندى ماترم ! باندى ماترم ! »

لكأن السموات توشك أن تنشق وتتناثر ألف قطعة .

وكنت قد رأيت صورة سنديب بابو من قبل . كان فى قسمات وجهه شىء لم أسترح اليه . لست أعنى أنه كان دميم الخلقة ، بل على العكس ، كان وجهه وسيما ، ولكن بدا لى — لسبب لا أدريه — أن كثيرا من الشوائب الخسيسة تدخل فى تكوين هذا الوجه بالرغم من كل بهائه . لأمر ما كان النور فى عينيه لا يبدو صادقا . ولهذا كنت غير راضية عن خضوع زوجى لجميع مطالبه . لم يشق على ضياع المال ولكن غاظنى التفكير فى أنه يحتال على زوجى مستغلا صداقته . ولم يكن مظهره مظهر زاهد ولا رجل متوسط الحال ، بل كان متأنقا فى كل شىء . وكأنما حب النعيم . .

.. ان مثل هذه الخواطر تتوارد على اليوم بكثرة ، ولكن لندعها حيث هي .

غير أني رأيت سنديب بابو ينقلب رجلا آخر حين بدأ يخطب عصر ذلك اليوم وقلوب الجمع تموج وتندفع لكلماته . وكأنها تريد أن تكسر كل الحواجز . لاسيما حين أضاء قسماته شعاع من الشمس التى كانت تدلف ببطء الى مغربها ، وقد انحدرت عن سقف البهو ، فقد خيل الى أن الآلهة اختارته رسولا الى بنى الموت وبناته .

كانت كل جملة من جمله من بدء خطبته الى نهايتها عاصفة منفجرة ، وكانت ثقته بما يؤكده لا حد لها . واذا بى لا أتمالك أن أزيح الستارة من أمامى وأثبت نظرى عليه ، لا أدرى كيف حدث ذلك ، ولكن لم يكن فى الجمع من يراعى أفعالى . مرة واحدة لاحظت أن عينيه أخذتا وجهى بوميضهما كنجوم الجبار (١) .

فقدت كل وعى بنفسى . لم أعد سيدة بيت الراجا بل كنت ممثلة نساء البنغال وحدى ، وكان هو بطل البنغال . وكما أسبغت السماء عليه نورها يجب أن تقدسه بركة امرأة ..

بدا لى واضحا أنه منذ وقع بصره على زادت كلماته اشتعالا . لقد أبى جواد اندرا (٢) أن يمسكه عنان فكان زئير الرعد ووميض البرق . وقلت فى نفسى ان لغته اشتعلت نارا من عينى فنحن النساء لسنا ربات نار المنزل فحسب بل شعلة الروح ذاتها .

عدت الى البيت فى ذلك المساء متألقة بكبرياء جديدة وفرح جديد . ان العاصفة التى ثارت فى باطنى نقلت كيانى كله من مركز الى آخر . وكعذارى الاغريق فى القديم وددت لو أقطع خصلات شعرى الطويلة اللامعة لأصنع منها وترا لقوس بطلى . ولو كانت حلاى موصولة بمشاعرى الباطنية لكسرت قلادتى وأساورى قيودها وترامت على الجمع كشؤبوب من الشهب ، فقد شعرت انى لا أستطيع احتمال فورة حماستى الا بأن أضحى تضحية ما .

وعندما عاد زوجى الى البيت بعد ذلك كنت أرتجف خشية أن يبدر منه صوت ناشز عن أنشودة النصر التى كانت لا تزال ترن

---

(١) « الجبار » اسم لنجوم الجوزاء (Orion) « لانها بصورة ملك متوج على كرسى (التاج) — المترجم .

(٢) كبير الآلهة وآله السماء والمطر فى البثولوجيا الفيدية ، ويقابل زوس عند اليونان وجوبيتر عند الرومان (المترجم) .

فى أذنى . أن يدعوه تعصبه للحق الى استنكار شىء مما قيل فى ذلك الأصيل . فلو فعل لجابهته بالتحدى والاهانة . ولكنه لم يقل كلمة واحدة .. وساءنى ذلك أيضا .

كان ينبغى أن يقول : لقد أعادنى سنديب الى صوابى . اننى أعلم الآن كم كنت مخطئا طوال هذا الوقت .

وشعرت كأنه يريد أن يغيظنى بصمته ، ويصر على ألا يتحمس. فسألته : الى كم سيبقى سنديب بابو معنا ؟ فقال زوجى : انه راحل الى رانجبور فى بكرة الغد .

— هل يجب أن يرحل غدا ؟

— نعم ، فقد وعد بأن يخطب هناك .

وصمت برهة ، ثم سألته ثانية :

— ألا يمكنه أن يبقى يوما آخر ؟

— قد لا يكون ذلك ميسورا . ولكن لماذا ؟

— أريد أن أدعوه للغداء وأخدمه بنفسى .

فدهش زوجى . انه كثيرا ما رجانى أن أحضر حين يدعو بعض أصدقائه للغداء ، ولكنى لم أوافقه قط على ذلك . تأملنى دهشا ، صامتا ، بنظرة لم أفهمها جيدا .

وفجأة غلبنى شعور بالخزى . فصحت : لا ، لا ، هذا لن يكون!

فقال : لم لا ؟ سأسأله ذلك بنفسى ، وان كان ممكنا فسيبقى ولا شك الى الغد .

وقد ظهر أن الأمر ممكن جدا .

سأقول الحقيقة كما هى . فى ذلك اليوم عاتبت خالقى لأنه لم يجعلنى فائقة الجمال ، لا لأسلب قلبا بل لأن الجمال مجد . فى ذلك اليوم العظيم يجب أن تتمثل روح الوطن لرجاله فى صورة امرأة . ولكن عيون الرجال — وا أسفاه ! يعجزها أن تبصر الروح ان لم تبصر الجمال . ترى هل يبصر سنديب بابو فى روح الوطن ظاهرة ؟ أم يحسبنى امرأة بيت عادية فقط ؟

فى ذلك الصباح طيبت شعرى المسترسل وعقدته عقدة مسترخية يمسكها شريط حريرى أحمر بارع الضفر . فقدكنا على وشك أن نقدم الغداء ظهرا ولم يكن فى الوقت متسع لأجفف شعرى بعد الحمام وأضفره بالطريقة العادية . وارتديت ساريا مذهب الحاشية ، وكانت سترتى الحريرية القصيرة الكمين مذهبة الحاشية أيضا.

وشعرت أن فى ملبسى نوعا من الاحتشام . وأنه أبسط مايمكن، ولكن سلفتى مرت بى مصادفة وأذا هى تقف أمامى جامدة وتتأملنى من فرعى الى قدمى وتبتسم ابتسامة ذات معنى وهى تضغط على شفتيها . ولما سألتها عن سبب ذلك قالت : انى معجبة بزينتك !

فسألتها بضيق شديد : وماذا يطربك منها ؟

فقالت : انها بديعة . ولو لبست احدى تلك الصدريات الانجليزية القصيرة العنق لكملت .

وتركت الحجرة وجسمها كله - لا فمها وعيناها فقط - يتموج بضحك مكتوم .

واشتد غضبى جدا ، وأردت أن أبدل ثيابى كلها وألبس ملابسى العادية . ولكنى لا أدرى على التحديد لماذا لم أستطع أن أنفذ هذه الفكرة . لقد قلت لنفسى : ان النساء زينة المجتمع ؟ ولن يسر زوجى أن ظهرت أمام سنديب بابو بملابس غير لائقة .

وكانت فكرتى أولا أن أجعل قدومى عليهم بعد جلوسهم للغداء ، فيذهب خجل اللقاء الاول فى ضجة الاشراف على تقديم الطعام . ولكن الغداء لم يكن جاهزا فى وقته ، ومر زمن ، وفى هذه الأثناء أرسل زوجى فى طلبى ليقدمنى الى ضيفه .

كنت شديدة الحياء من النظر الى وجه سنديب بابو ، ولكننى استطعت أن أتماسك بحيث قلت : يؤسفنى أن الغداء تأخر .

فأقبل على فى جرأة وجلس بجانبى وهو يجيب : اننى أتناول غداء ما كل يوم ، ولكن ربة الخير تظل محتجبة . أما وقد ظهرت الربة نفسها فلا ضير ان تأخر الغداء .

كان فى مسلكه كما كان فى خطابته حازما لا يتردد ، وكأنه تعود أن يحتل - غير مزاحم - مقعده المختار . وكان يدعى حق الألفة بثقة تجعل اللوم أشبه بأن يقع على أولئك الذين ينكرون عليه هذا الحق .

وكنت خائفة أن يحسبنى سنديب بابو حزمة هيابة من تفاهة الطراز القديم . ولكنى لم أستطع - وان جهدت - أن أتألق فى أجوبة تسحره أو تبهره . وسألت نفسى حانقة : ماذا أصابنى حتى أبدو أمامه فى هذا المظهر السخيف .

وهممت بالانصراف حين انتهى الغداء ، ولكن سنديب بابو

اعترض طريقى بجسارته التى لا تزايله وقال :

ـ لاتحسبنى طفيليا. ليس الغداء هو الذى أبقانى بل دعوتك . واذا رغت الآن فلن تكونى عادلة مع ضيفك .

ولو لم يقل هذه الكلمات بيسر وانطلاق لبدت ناشزة. على ان صداقته الحميمة لزوجى كانت تجعلنى كأخته .

وبينما كنت أجاهد لأصعد على هذه الموجة العالية من الألفة اقبل زوجى لنصرتى قائلا : هلا تعودين الينا بعد أن تتناولى غداءك!

قال سنديب بابو : ولكنك يجب أن تعدى قبل أن نتركك تذهبين .

فقلت بابتسامة خفيفة : سآتى .

ومضى سنديب بابو يقول : سأقول لك لماذا لا أستطيع أن أصدقك . لقد مضت تسعة أعوام على زواج نيكهيل وأنت تروغين منى ، وان مضيت تفعلين ذلك تسعة أعوام أخرى فلن نلتقى أبدا.

وجاريته فى معناه فخفضت صوتى مجيبة : ولماذا لا نلتقى حتى ان حدث ذلك ؟

ـ حساب نجمى يقول انى سأموت فى عمر مبكر . ولم يعش أحد من أجدادى بعد الثلاثين ، وأنا الآن فى السابعة والعشرين .

كان يعلم ان هذه الكلمة ستصيب الهدف ، ولابد أن ظلا من الغم بدا فى صوتى هذه المرة وأنا أقول : لاشك أن بركات البلاد كلها ستدفع سوء تأثير النجوم .

اذن يجب أن تنطق بركات البلاد بلسان ربتها . هذا سبب انشغالى بعودتك ، حتى يبدأ طلسمى عمله منذ اليوم .

كانت لسنديب بابو طريقة فى أخذ الأمور أخذ عزيز مقتدر ، حتى انى لم أجد فرصة لاستنكار ما لم أكن لأسمح به من آخر.

وختم كلامه ضاحكا : اذن فسأبقى زوجك هذا رهينة حتى تعودى .

وفيما كنت خارجة نادانى : هل لى أن أثقل عليك بطلب صغير؟

فاستوفزت والتفت . قال : لا تنزعجى ، انه كوب ماء فقط . لعلك لاحظت انى لم أشرب على الغداء . انى أشرب بعده بقليل .

وكان على ازاء ذلك أن أظهر الاهتمام وأسأله عن السبب . فبدأ يروى تاريخ مرضه بسوء الهضم ، وعرفت كيف عذبه المرض سبعة أشهر ، وكيف أنه بعد المضايقات الطويلة المألوفة التى شملت

أنواعا من العلاج الآلوياثى والهوميوباثى بغير فائدة ، حصـل على نتائج رائعة من المواصفات البلدية . وأضاف مبتسما :

ــ هل تعلمين أن الله قد جعل عللى نفسها بحيث لا تستسلم الا لمهاجمة حبوب « السواديشى » » ؟

وهنا خرج زوجى عن صمته قائلا :

ــ يجب أن تعترف بأن فيك جاذبية للعقاقير الأجنبية كجاذبية الأرض للشهب . ان فى حجرة جاوسك ثلاثة أرفف مليئة بالـ ..

فقاطعه سنديب بابو :

ــ أتدرى ما هى ؟ انها الشرطة التى تعاقبنـا . تأتى لا لأننـا نريدها بل لأن حكم هذا العصر الحديث يفرضـها علينـا لتغرمنا وتعذبنا .

لم يكن زوجى يطيق المبالغات ، وقد استطعت أنأرى عدم رضاه عن هذه . ولـكن كل التحليات‌مبالغات لم يصنعها الله بل صنعها الانسان . وأذكر انى قلت لزوجى مرة دفاعا عن شىء قلته مخالف للحقيقة : لا يقول الحقائق الصريحة الا الأشـجار والوحوش والطيور ، لأن هذه الاشياء المسكينة ، لا قدرة لها على الاختراع ، وفى هذا يظهر الانسان تفوقه على المخلوقات الدنيا ، وتبز النساء الرجال . فلا يعيب المرأة مبالغتها فى التزين ولا مبالغتها فى الخروج عن الحقيقة .

لما بلغت الدهليز المؤدى الى « الزينانا » وجدت سلفتى واقفـة قرب نافذة تطل على جناح الاستقبال وهى تنظر من الخصاص .

فسألت دهشة : أنت هنا ؟

فأجابت : أسترق السمع !

ــ ٥ ــ

عندما عدت كان سنديب بابو رقيقا فى اعتذاره ، قال : أخشى أن نـكون قد أفسدنا شهيتك .

وشعرت بخجل شديد . فالواقع انى انتهيت من طعامى بسرعة لا تليق ، وكان من الواضح بتقدير يسير أن انصرافى عن الاكل‌كان أكثر من اقبالى عليه ، ولـكن لم يخطر ببـالى أن ثمة من يعنى بتقدير ذلك .

ولعل سـنديب بابو شعر بخجلى ، ولـكن ذلك لم يزدنى الا خجلا ، فقد قال : كنت واثقا ان لك اندفاع الظبية النافرة الى

الهرب ، ولكنى أجد اهتمامك بالمحافظة على وعدك لى نعمةكبيرة.
ولم أستطع أن أفكر فى جواب مناسب ، فجلست مرتبكة حجلى على أحد طرفى الأريكة . وتخلت عنى صورة نفسى كما تخيلتها ، صورة « روح » المرأة المتجسدة ، أتوج سنديب بابو بحضورى وحده ، فى بهاء الملك وبلا خجل .

وتعمد سنديب بابو أن يبدأ مناقشة مع زوجى . فقد كان يعلم أن بداهته تتألق فى المناقشة ، وكثيرا ما لاحظت بعد ذلك انه لا يضيع فرصة للدخول فى مبارزة كلما كنت حاضرة .

وكان يعرف آراء زوجى فى عقيدة « باندى ماترم » فبدأ يقول مستثيرا : اذن فأنت لا تسلم بأن هناك مجالا لمخاطبة الخيال فى العمل السياسى ؟

ــ ان للخيال مكانا ياسنديب ، أسلم بذلك ، ولكنى لا أومن باعطاء المجال كله للخيال . اننى أريد أن أعرف بلادى على حقيقتها الصريحة ، ولذلك أخاف أن أستخدم العبارات الوطنية المغناطيسية ، وأخجل من ذلك .

ــ ما تسميه أنت العبارات المغناطيسية أسميه أنا الحقيقة . فأنا أومن حقا بأن بلادى هى الهى . اننى أعبد الانسانية ، والله يتجلى فى وطن الانسان كما يتجلى فى الانسان .

ــ ان كان هذا ما تعتقده حقا فينبغى ألا يكون عندك فرق بين انسان وانسان ولا بين وطن ووطن .

ــ هذا حق . ولذلك فان تقديسى لبلادى استمرار لتقديسى للانسانية .

ــ اننى لا أعترض على تقديسك فى حد ذاته ، ولكنى أريد أن أسألك كيف يمكنك أن تعبد الله بكرهك لبلاد أخرى يتجلى الله فيها كما يتجلى فى بلادك ؟

ــ الكره أيضا قرين للعبادة . لقد نال أرجونا رضاء ماهاديفا (١) حين صارعها . وسيكون الله معنا آخر الأمر اذا عزمنا على حربه.

ــ ان كان الأمر كما تقول فان من يخدمون البلاد ومن يسعون فى ضررها سواء فى عبادة الله . فلماذا اذن تتجشم الدعوة الى الوطنية ؟

(١) « أرجونا » فى الاساطير الهندية القديمة : ابن اندرا ، وأحد أبطال المهابهاراتا ، والبطل الرئيسى فى قسم من الملحمة يسمى بهاجاقاد جيتا . « ومهاديفا » احدى زوجات شيفا ، وهى تمثل قوته المدمرة (المترجم) .

ـ الحال غير ذلك بالنسبة الى وطن المرء . فهنا يطلب القلب العبادة ولاريب .

ـ اذا مضيت مع هذا المنطق فيمكنك أن تقول ان « ذاتنا » يجب أن تعبد قبل أى شيء آخر ، لأن غريزتنا الطبيعية تطلب ذلك ، والله يتجلى فينا .

ـ كلا يا نيكهيل ، ان هذا كله ليس الا المنطق الجاف . ألا تسلم بأن هناك شيئا اسمه الشعور ؟

فأجاب زوجى : أقول لك الحق ياسنديب ان شعورى هو الذى يثور كلما حاولت أن تجعل الظلم واجبا ، والشر مقالا أخلاقيا . ان عجزى عن السرقة لا يرجع الى قدراتى المنطقية بل انى أشعر باحترام لنفسى وحب للمثل العليا .

كان باطنى فى ثورة ، وأخيرا لم أستطع أن أبقى صامتة ، فصحت : أليس تاريخ كل بلد سواء أكان انجلترا أم فرنسا أم المانيا أم روسيا هو تاريخ سرقة من أجل بلادهم ؟

ـ هم مسئولون عن سرقاتهم ، وانهم ليسألون عنها الآن ، فتاريخهم لم ينته بعد .

فقاطعنا سنديب بابو قائلا : لماذا لا نحذو حذوهم على كل حال ؟ فلنملأ خزائن بلادنا بالبضائع المسروقة أولا ثم لتمض القرون حتى نسأل عنها مثل سائر البلاد ان كان لابد من ذلك . ولكنى أسألك : أين تجد هذا « السؤال » فى التاريخ ؟

ـ عندما كانت روما تسأل عن اثمها لم يكن أحد يعلم أنها تسأل ، ففى ذلك الوقت لم يكن يبدو أن لرخائها حدودا . الا ترى أمرا واحدا : ان حقائبهم السياسية تتقطع بالأكاذيب والخيانات وتكسر ظهورهم بأوزارها ؟

لم تكن قد أتيحت لى الفرصة من قبل أن أشهد مناقشة بين زوجى وأصدقائه الرجال . كنت أشعر كلما جادلنى أنه يكره أن يلزمنى الحجة ، ولم يكن لذلك من سبب الا حبه لى . واليوم رأيت لأول مرة حذقه فى التبارز بالأفكار .

ولكن قلبى أبى أن يقبل نظرة زوجى . فكنت أجاهد لأجد جوابا ما ، ولكن الجواب لايريد أن يجيء . فعندما تأتى كلمة « الخيرية » فى مناقشة فانك تستبشع القول بأن من الاشياء ما يمكن أن تحول خيريته دون منفعته .

وفجأة التفت سنديب بابو الى سائلا : ما رأيك « أنت » فى هذا ؟
فانفجرت قائلة : اننى لا أبالى بالحدود المنطقية الدقيقة . سأقول لكما ما أشعر به على سعته وعمومه . أنا لست الا كائنا بشريا. أنا ذات أطماع . أنا أريد الطيبات لبلادى ، فاذا اضطررت فسوف انتزعها وسوف اختلسها . أنا عندى الغضب ، وسأغضب من أجل بلادى ، وان لم أجد بدا فسأضرب وأذبح ثأرا لشرفها . أنا عندى رغبتى فى أن أسحر ، ويجب أن أجد السحر متجسدا متمثلا فى بلادى ، ويجب أن يكون لها رمز منظور يلقى سحره على عقلى . فسأجعل بلادى شخصا وأدعوها أما وربة و « درجا » (١) أخضب الارض بالضحايا قرابين لها . أنا كائن بشرى ، لست كائنا قدسيا.

هب سنديب بابو رافع الذراعين وصاح : هورا !

وبعد لحظة استدرك صائحا : باندى ماترم !

وعبرت وجه زوجى سحابة ألم . وقال بصوت رفيق رقيق :
ـ ولا أنا كائن قدسى. أنا بشر، ولهذا لا أسمح للشر الذى فى نفسى أن يتضخم حتى يصبح صورة لبلادى ـ أبدا . أبدا !

وصاح سنديب بابو : انظر يا نيكهيل كيف يكتسى الحق فى قلب المرأة لحما ودما . ان المرأة تعرف كيف تكون قاسية . حقدها كعاصفة عمياء ، جميل مرعب . أما فى الرجل فقبيح ، لأنه ينطوى على ديدان العقل والتفكير التى تنخز . أقول لك يا نيكهيل ان نساءنا هن اللاتى سينقذن البلاد. ليس هذا وقت التشكك والتورع. يجب أن نكون قساة فى غير تردد ولا تفكير . يجب أن نعطى نساءنا دهان خشب الصندل الاحمر ليمسحن خطأنا ويمجدنه . ألا تذكر ما يقوله الشاعر :

« تعالى أيتها الخطيئة ، أيتها الخطيئة الجميلة ،
لتسكب قبلاتك الخمر خمرا حمراء مشتعلة فى دمائنا .
انفخى فى بوق الشر القاهر .
واضفرى على جبيننا اكليل العسف المنتشى .
يا الهة الدنس .
لطخى صدورنا بوحل العار ، ولا تخجلى . »

لتسقط تلك الخيرية التى لاتستطيع أن تنزل الهلاك والدمار وهى باسمة !

---

(١) الهة الحرب فى الاساطير الهندية القديمة ، بعد العصر الفيدى . وتصور ـ برغم قسوتها ـ ذات وجه رقيق (المترجم) .

عندما وقف سنديب بابو رافع الرأس يهزأ فى لحظة اندفاع بكل ما اعتز به البشر فى كل بلد وفى كل عصر ــ وعدوه أثمن ما يملكون ــ سرت فى جسدى رعدة . ولــكنه مضى فى خطابه وهو يدق الارض بقدمه :

ــ انى لأراك هذه الروح النارية الجميلة التى تحرق البيت رمادا وتضىء العالم الأكبر بلهبها . امنحينا الشجاعة التى لا تغلب لنذهب الى قاع الدمار نفسه . ابعثى الجمال فى كل ما يهلك .

لم يكن واضحا من التى عناها سنديب بابو بخطــابه الأخير . لعلها تلك التى دعاها حين هتف « باندى ماترم » ، أو لعلها المرأة فى بلاده ، أو لعلها تلك التى تمثلها ، وهى المرأة التى أمامه . وكان ماضيا على هــذه الوتيرة لولا أن زوجى نهض عن كرسيــه فجأة ولمس كتفه برفق قائلا : سنديب ، ان تشاندراناث بابو هنا.

فاستوفزت والتفت ، لأجد سيدا شيخا بالباب ، سيماه الهدوء والوقار ، يتردد بين الدخول والانصراف . وكان يضىء وجهه نور لطيف كنور الشمس الغاربة .

واقترب زوجى منى وهمس : هــذا أســتاذى الذى حــدثتك عنه كثيرا . حييه .

فانحنيت خاشعة ومسحت التراب عن قدميه . وباركنى قائلا :

ــ رعاك الله دائما يا أمى الصغيرة .

شد ما كنت محتاجة الى مثل هذه البركة فى تلك اللحظة !

حكاية نيكهيل

- ١ -

كان ايمانى بحيث اعتقدت يوما أنى قادر على تحمل كل مايأتى به ربى . ولم أتعرض قط للمحنة . أما الآن فأظنها جاءت .

وتعودت أن أختبر قوة نفسى بتخيل كل الشرور التى يمكن أن تنزل بى ، الفقر ، والسجن والعار ، والموت - حتى موت بيمالا . وعندما كنت أقول لنفسى انى قادر على أن أتلقاها صابرا لم أكن أبالغ . انى لعلى يقين من هذا ، الا أن ثمة شيئا واحدا لم أستطع أن أتخيله قط ، وهأنذا أفكر فيه اليوم ، وأسأل نفسى : ترى هل أستطيع أن أتحمله حقا . ثمة شوكة فى موضع ما تخز قلبى ، وتؤلمنى ألما مستمرا وأنا فى عملى اليومى .

بل كأنى بها لا تكف حتى فى نومى . ولا أكاد أستيقظ فى الصباح حتى أرى البهاء قد ذهب من وجه السماء ... فما الأمر؟ ما الذى حدث ؟

لقد بلغ من حساسية فكرى أن حياتى الماضية نفسها تبدو وكأنها تعصر قلبى بزيفها ، وهى التى جاءتنى متنكرة فى لبوس السعادة ، وأن العار والحزن اللذين يدنوان منى يفقدان غطاء السر بقدرما يحاولا أن يحجبا وجهيهما . لقد أصبح قلبى كله عيونا . والاشياء التى ينبغى ألا ترى ، الاشياء التى لا أريد أن أراها هذه يجب أن أراها .

جاء اليوم أخيرا ليصبح لزاما على حياتى المنكودة أن تكشف عن فقرها فى سلسلة طويلة من الكشوف . واحتل هذا العوز غير المنتظر مكانه فى القلب الذى كان يبدو أن الامتلاء يسوده . ووجب أن يرد الأجر الذى دفعته للوهم تسع سنين من شبابى - وجب أن يرد مع أرباحه الى الحقيقة حتى آخر أيام حياتى .

ما جدوى الجهد فى المحافظة على كبريائى ؟ وأى ضير فى أن

أعترف بأن شيئا ما يعوزنى ؟ لعله هو تلك القوة غير المنكرة التى يحبها النساء فى الرجال . ولكن هل القوة مجرد عرض للقوة العضلية ؟ هل يجب ألا تتورع القوة عن وطء الضعفاء تحت الأقدام ؟

ولكن لم كل هذا الجدل ؟ ان الجدارة لا تنال بمجرد المناقشة فيها ، وأنا خلو من الجدارة ، خلو من الجدارة ؟ خلو من الجدارة.

وماذا ان كنت خلوا من الجدارة ؟ ان قيمة الحب الحقة هى أنه يستطيع دائما أن ينعم بسخائه على غير الجدير. فللجدارة مكافآت كثيرة على الارض ، ولكن الله خص بالحب المساكين .

حتى اليوم كانت بيمالا هى ربيبة البيت ، نتاج المكان المحصور والواجبات اليومية الصغيرة الرتيبة وكنت أسأل نفسى : هل يأتى الحب الذى تبذله لى من ينبوع قلبها العميق ، أو لايعدو أن يكون كالتموين اليومى من ماء الأنابيب الذى تدفعه مضخة المجتمع البخارية العامة .

وكنت أتوق الى رؤية بيمالا تزدهر وتتفتح بكل حقيقتها وقوتها. لكن الشىء الذى غاب عن حسبانى هو أن المرء يجب أن يتخلى عن كل حق مبنى على العرف اذا أراد أن يجد شخصا يتجلى بحرية فى الحقيقة .

لماذا فاتنى التفكير فى ذلك ؟ أهو اعتزاز الزوج بسلطانه على زوجته ؟ لا . انما السبب انى وضعت غاية ثقتى فى الحب . كنت من الغرور بحيث ظننت انى أستطيع احتمال منظر الحقيقة فى قبحها المخيف . كنت أناوش القدر ، وان بقيت متشبثا بعزمى الواثق على أن أخرج من المحنة ظافرا .

لقد عجزت بيمالا عن أن تفهمنى فى أمر واحد . لم تستطع أن تدرك جيدا انى أرى كل فرض للقوة ضعفا . فالضعفاء وحدهم هم الذين لا يجرءون على أن يعدلوا . انهم يهربون من مسئوليتهم أن يكونوا منصفين ، ويحاولون أن يصلوا سريعا الى ما يبتغون باقتحام طرق الظلم المختصرة . وبيمالا لا تصبر على الصبر ، فهى تحب فى الرجال الاحترام والغضب والظلم ، واحترامها لابد أن يدخل فيه عنصر الخوف .

وكنت آمل أن تنجو بيمالا من فتنتها بالاستبداد حين تجد نفسها حرة فى العالم الخارجى . ولكننى أشعر الآن أن هذه الفتنة مستقرة فى أعماق طبيعتها . للعنيف حبها . من طرف لسانها الى

أعماق معدتها يجب أن تحس لذعة الفلفل الأحمر حتى تستمتع بطعام الحياة العادى . ولكننى كنت مصمما ألا أؤدى واجبى أبدا باندفاع المتعصب ، ولا أستعين عليه بخمر الحماسة النارية . وأنا أعلم أن بيمالا يصعب عليها أن تحترمنى لذلك ، فهى تعد تورعى ضعفا ، وهى غاضبة على جدا لأنى لا أجرى كالمجنون صائحا : « باندى ماترم » .

والحق أنى أصبحت مكروها من جميع مواطنى لأنى لم أشاركهم فى نشوتهم الصاخبة . فهم واثقون انى اما طامح الى لقب ما أو خائف من الشرطة . أما الشرطة فيشكون فى انى أضمرخطة ما ، وأقيم بهدوئى معارضة شديدة .

أما الذى أشعر به حقا فهو ان الذين لا يجدون فى معرفة وطنهم على حقيقته غذاء كافيا لحماستهم ، أو الذين لايستطيعون أن يحبوا النـــاس لكونهم ناســا فقط ويجدون لزاما عليهم أن يصيحوا ويؤلهوا بلادهم ليحافظوا على حماستهم — أولئك يحبون الحماسة أكثر مما يحبون بلادهم .

أن نقدم الهوى على الحق مظهر لعبودية راسخة . فنحن نشعر بالضياع حيث تكون عقولنا حرة . وحيويتنا المحتضرة يجب أن تكون ركوبة اما لخيال واما لصاحب سلطان واما لفتوى من الفقهاء كيما تتحرك . وما دمنا صما عن الحق لا نتحرك الا بدافع مغناطيسى فيجب أن نعلم اننا عاجزون عن حكم أنفســنا ، فنحن محتاجون مهما تكن حالتنا — اما الى شبح موهوم واما الى دجال حقيقى ليكون هو القاهر فوقنا .

بالأمس حين اتهمنى سنديب بانعدام الخيال قائلا: ان ذلك يمنعنى أن أتصور بلادى فى صورة محسوسة ، وافقته بيمالا . ولم أدافع عن نفسى بشىء . لأن الغلبة فى الجدال لا تؤدى الى الســعادة . واختلافها عنى فى الرأى لايرجع الى تفاوت فى الذكاء بل عـلى الأصح الى تغاير فى الطبع .

يتهموننى بأنى عديم الخيال . اى اننى — على قولهم — قد يكون فى مصباحى زيت ولا شعلة . وهذا بالضبط هو ما أتهمهم به . فأنا أود أن أقول لهم : أنتم سود كالصــوان ، يجب أن تتصـــادموا وتصخبوا لتعطوا شرارتكم. ولكن وميضها المتقطع لا ينير بصائركم ولا يسند الا كبرياءكم .

وقد كنت الاحظ منذ زمن أن فى سنديب جشعا فظيعا ، وان

مشـاعره الجسدية تجعله يحتضن أوهاما عن دينه ، وتدفعه الى موقف مستبد فى وطنيته . انه حاد الذكاء ولـكنه غليظ الطبع ، فهو يمجد شهواته الأنانية بأن يخلع عليها أسماء طنانة . والتعزى الرخيص بالبغضاء ضروري له كضرورة اشباع شهواته . وقد طالما حذرتنى بيمالا فى ماضى الايام من حبه الشديد للمال ، وكنت أفهم ذلك ، ولـكنى لم أسترح الى الوقوف موقف المساومة من سنديب وخجلت أن أعترف - ولو لنفسى - بأنه يستغلنى .

ولـكن من العسير أن أشرح لبيمالا اليوم أن حب سنديب للوطن ليس الا طورا آخر من حبه لذاته ، ذلك الحب الذى يجعله نهما طماعا . وعبارة البطولة التى تبديها بيمالا لسنديب تزيدنى ترددا ازاء الحديث معها عنه ، أن يقودنى شىء من الغيرة الى المبالغة دون ان أدرى . لعل الألم فى قلبى جعلنى ارى سنديب فى صـــورة مشوهة فعلا . ومع ذلك فقـد يـكون التصريح خيرا من أن أبقى مشاعرى تنخر فى باطنى .

— ٢ —

عرفت أستاذى هذه السنوات الثلاثين . لا الشنعة تخيفه ولا المصيبة ولا الموت نفسـه . ما كان يمكن أن ينقذنى شىء وأنا الذى ولدت فى تقاليد اسرتنا هذه لو لم يقم حياته بما لها من السـلام والحق والبصيرة فى مركز حياتى فمكننى أن أعرف الطيبة بالحق.

جاءنى أستاذى فى ذلك اليوم وقال : أمن الضرورى استبقـاء سنديب هنا مدة أطول ؟

كانت طبيعته حساسة لـكل نذر الشر . بحيث فهم على الفور. وكان قليـلا ما يتـأثر ، الا انه شعر فى ذلك اليوم بظـل المتاعب الاسود أمامنا . ألست أعرف كم يحبنى ؟

فقلت لسنديب على الشاى : لقد تلقيت رسالة من رانجبور. انهم يشكون لأننى استبقيتك أنانية منى . متى تذهب الى هناك ؟

وكانت بيمالا تصب الشاى ، فاذا هى تطرق ، الا انها ألقت نظرة واحدة متسائلة الى سنديب . وقال سنديب : كنت أفكر فى أن هذا التجوال هنا وهناك معناه ضياع مخيف للجهد . انى أشـعر بأن عملى من مركز ما يمكن أن يحقق نتائج أبقى .

وهنا نظر الى بيمالا وسأل : الا توافقيننى على هذا الرأى ؟

وترددت بيمالا فى الجواب ثم قالت : كلتا الطريقتين تبدو صالحة :

اتخاذ مركز للعمل. والتجول فى البلاد . واصلحهما لك هى أقربهما الى نفسك .

فقال سنديب : اذن اقول ما فى فكرى . اننى لم اجد قط مصدرا واحدا للالهام يكفينى الى الأبد . وهذا ما جعلنى لا أكف عن الترحال ، أستثير حماسة الناس ، وأستمد منهم — بدورى — ذخيرتى من الطاقة . وأنت اليوم أعطيتنى رسالة بلادى ، فما رأيت قط مثل هذه النار فى رجل . وسأكون قادرا على أن أنشر نار الحماسة فى بلادى حين أستعيرها منك . لا ، لا تخجلى . أنت فوق كل حياء وكل تهيب . أنت ملكة النحل فى خليتنا ونحن العملة سنجتمع حولك . ستكونين مركزنا ووحينا .

فاحمر وجه بيمالا كله بكبرياء خجول ، واهتزت يدها وهى لا تزال تصب الشاى .

وجاءنى أستاذى يوما آخر وقال لى : لماذا لا تذهبان الى دار جيلنج لتغيير الهواء ؟ انك تبدو متعبا . هل تنال قسطك من النوم ؟ وفى المساء سألت بيمالا هل يسرها أن تذهب فى رحلة الى الجبال. وكنت أعلم انها تتوق الى رؤية الهملايا . ولكنها أبت . قضية البلاد على ما أظن !

يجب الا أفقد ايمانى . سأنتظر . ان المعبر من العالم الضيق الى العالم الأوسع ملىء بالعواصف . وعندما تألف هذه الحرية سأعلم أين مكانى ، فاذا وجدت انى لا ألائم نظام العالم الخارجى فلن أتعارك مع قدرى ؟ بل سأستأذن فى الرحيل صامتا .. أستخدم القوة ؟ ولكن من أجل ماذا ؟ هل يمكن للقوة أن تغلب الحقيقة ؟

حكاية سنديب

- ١ -

يقول الرجل العاجز : ما كان من نصيبى فهو لى . ويؤمن على قوله الرجل الضعيف . ولكن درس العالم كله هو هذا : ما يمكننى انتزاعه فهو لى حقا . لن تصبح بلادى لى لمجرد كونها البلاد التى ولدت فيها . ستصبح لى يوم أستطيع أن اكسبها بالقوة .

لكل انسان حق طبيعى فى التملك ، اذن فالطمع طبيعى ، وليس من حكمة الطبيعة أن تقنع بالحرمان ، فما تشتهيه نفسى يجب على بيئتى أن تعطيه ، وهذا هو التفاهم الصحيح الوحيد بين طبيعتنا الداخلية وطبيعتنا الخارجية فى هذا العالم . فلتبق المثل العليا الاخلاقية لتلك الكائنات الحية ذات الرغبة الصائمة والقبضة الضعيفة . أما الذين يستطيعون أن يرغبوا بكل نفوسهم ويستمتعوا بكل قلوبهم ولا يعرفون ترددا ولا ورعا فأولئك هم الذين باركتهم السماء ، ولهم تبسط الطبيعة أحفل كنوزها وأحلاها. انهم يسبحون الأنهار ويثبون الأسوار ويقتحمون الأبواب لينالوا كل ما يستحق أن ينال . ولمثل هذا الظفر يفرح المرء وبمثل هذا الغلب تعز قيمة المأخوذ .

ان الطبيعة تسلم نفسها ، بيد أنها لا تسلم نفسها الا للسارق ، لأنها تسر بهذه الرغبة العنيفة ، بهذا الخطف العنيف . وكذلك هى لا تضع قلادة قبولها حول رقبة الزاهد النحيلة العجفاء . هذه موسيقى الزفاف تدق . لن اترك وقت الزفاف يمر . لهذا قلبى متوثب . فمن هو العروس ؟ انه انا . ان مكان العروس لمن يقدر أن يأتى فى وقته ، والمشعل بيده . والعروس فى بهو عرس الطبيعة يأتى غير منتظر وغير مدعو .

استحى ؟ لا ، اننى لا أستحى ابدا . أنا أطلب ما أريد ، ولا

انتظر دائما حتى أطلبه قبل أنآخذه . أولئك الذين يحرمهم تهيبهم يعظمون حرمانهم باسم الحياء . ان العالم الذى ولدنا فيه هو عالم الواقع . وعندما يخرج رجل من سوف الاشياء الواقعية صفر اليدين خاوى المعدة لا تملأ حقيبته الا الكلمات الطنانة ، فانى أتساءل : لماذا جاء الى هذا العالم القاسي على الاطلاق . هل تسلم هؤلاء الرجال وظائفهم من أيدى مترفى العالم الدينى ، ليعزفوا الحانا معينة على نصوص تقية حلوة فى تلك الجنة الناعمة التى تتفتح فيها زهور اللاشيء ؟ اننى لا أتكلف تلك الالحان ولا أجد غذاء فى تلك الزهور .

اننى أرغب فيما أرغب فيه باصرار واستعلاء . أريد أن أعجنه بكلتا يدى وكلتا قدمى : أن أدهن به جسمى كله ، أن آكل منه حتى امتلىء ، ولن يصل الى أذنى صفيرأولئك الذين أخفوا أنفسهم بصيامهم الورع حتى جفوا وشحبوا كديدان جائعة تسكن فراشا طال هجره .

أنا لا أريد أن أخفى شيئا ، لأن هذا جبن . ولكن ان لم أستطع حمل نفسى على الاخفاء حين يكون الاخفاء ضروريا فهذا أيضا جبن . لأن لك طمعك ، أنت تبنى أسوارك ، ولأن لى طمعى، أنا أنفذ منها . أنت تستخدم قوتك وأنا أستخدم مهارتى . وهذه هى حقائق الحياة ، وعليها تقوم الممالك والامبراطوريات وكل الاعمال العظيمة التى ينهض بها الناس .

أما أولئك « المبعوثون » الذين يهبطون الينا من جنتهم ليكلمونا بلغة قدسية فان كلماتهم غير واقعية . ولذلك لا تجد أقوالهم مكانا — مهما يلقوا من تصفيق — الا فى الأركان التى يختبىء فيها الضعفاء . انهم محتقرون من أولئك الاقوياء الذين يحكمون العالم. والذين استطاعوا بشجاعتهم أن يروا هذا نالوا النجاح ، أما أولئك المساكين الذين تجذبهم الطبيعة الى ناحية ويجذبهم هؤلاء « المبعوثون » الى ناحية أخرى ، فانهم يضعون احدى قدميهم فى قارب الواقع والاخرى فى قارب الزيف ، ولذلك هم فى حيرة محزنة ، لايستطيعون أن يتقدموا ولا أن يبقوا فى مكانهم .

كثير من الناس يبدو كأنهم لم يولدوا الا ليركبهم وسواس الموت . ولعل هناك شيئا من الجمال — كجمال الشمس الغاربة — فى هذا الموت الملكى فى ثنايا الحياة ، الذى يبدو أنه يسحرهم . ان نيكهيل يحيا هذا النوع من الحياة ، ان جاز أن نسميه حياة .

وقد كان بيني وبينه ، منذ أعوام ، جدال كبير حول هذه المسألة. قال : صحيح انك لا تستطيع أن تكسب شيئا الا بالقوة . ولكن ما هذه القوة ؟ ثم ما هذا الكسب ؟ ان القوة التى أومن بها هى القدرة على التخلى . فأجبته متعجبا : اذن فأنت مفتون بعظمة الافلاس ! فأجاب : أشد الفتنة . كفتنة الفرخ الصغير بافلاس بيضته . ان البيضة شيء واقعى ماثل ولكنها تتحرك من أجل نور وهواء لا يلمسان . أحسبك تقول انها تجارة خاسرة ؟

وعندما يعمد نيكهيل الى المجاز فلا أمل فى أن تجعله يرى أنه يتعامل مع كلمات لا مع أمور واقعية . حسنا ، فليبق سعيدا بمجازاته . اننا آكلو اللحوم فى هذا العالم . ان لنا أسنانا وأظافر. اننا نطارد ونمسك ونمزق . اننا لا نقنع بأن نجتر فى المساء العشب الذى أكلناه فى الصباح . نحن على كل حال لا نستطيع أن نسمح لتجار المجاز بأن يوصدوا الباب دون غذائنا ، فان فعلوا فما علينا الا أن نختلس أو نسرق ، لأننا يجب أن نعيش .

سيقول الناس انى أبتكر نظرية جديدة ، لا شيء الا لأن الذين يسعون فى هذا العالم تعودوا أن يقولوا غير هذا الكلام ، وان كانوا يعملون به دائما فىالواقع. لهذا يعجزون عن أن يفهموا كما أفهم ان هذا هو المبدأ الخلقى الوحيد الفعال . والحقيقة انى أعلم أن فكرتى ليست بالنظرية الفارغة ، فالحياة العملية تثبت صدقها ، وقد وجدت أن طريقتى تكسب قلوب النساء ، وهن بنات هذا العالم الواقعى اللاتى لا يحلقن بين عالم السحب فى بالونات ملأى بالأفكار كما يفعل الرجال .

النساء يجدن فى قسماتى وطريقتى ومشيتى وكلامى انفعالا ملؤه السيطرة ، لا انفعالا جففته حرارة الزهد. انفعالا ملؤه الدم ، لا انفعالا يدير وجهه الى الخلف عند كل خطوة فى شك وتساؤل . انه يزمجر ويندفع كالطوفان صائحا : « أريد ، أريد » . والنساء يشعرن فى أعماق قلوبهن أن هذا الانفعال الذى لا يمكن اخضاعه هو دم الحياة للعالم ، فهو لايعترف بقانون غير ذاته ، ولذلك ينتصر. من أجل هذا السبب كثيرا ما استسلمن ليجرفهن مد انفعالى ، غير مباليات ان قادهن الى الحياة أو الى الموت . ان القوة التى تستحوذ على هؤلاء النساء هى قوة الرجال الأشداء ، هى القوة التى تستحوذ على عالم الواقع .

ان الذين يتخيلون مزيدا من الصلاح فى عالم آخر أولئك انما

ينقلون رغباتهم من الارض الى السـماء . فلننتظر لنرى الى أى مدى يعلو ينبوعهم المتدفق ، وحتام يستمر . أما الذى لاشك فيه فهو ان النساء لم يخلقن لهـذه المخلوقات الشاحبة آكلى اللوتس المثاليين .

« الوفاق ! » كثيرا ما قلت ، حين كنت فى حاجة الى هـذا القول ، ان الله خلق أزواجا معينة من الرجال والنساء ، وان اتحاد مثل هؤلاء الأزواج هو الاتحاد الوحيد المشروع ، وانه فوق كل اتحاد يصنعه القانون . وسبب قولى هذا ان الانسان وان أراد اتباع الطبيعة فانه لا يسر بذلك الا أن يستتر خلف عبارة ما ، لهذا يمتلىء العالم بالأكاذيب .

« الوفاق » ولماذا يكون هناك وفاق واحد فقط ؟ قد يوجد وفاق مع الالوف . وما دخل قط فى عهدى مع الطبيعة أن أنسى كل موافقاتى التى لا تحصى من أجل وفاق واحـد فقط . وقد اكتشفت كثيرا من الموافقات فى حياتى حتى الآن ، ولـكن ذلك لم يغلق الباب دون المزيد — وذلك الوفاق يلوح واضحا لعينى. وهى أيضا قد اكتشفت وفاقها معى .

واذن :

واذن فانى جبان لم أكسب .

الفصل الثالث

حكاية بيمالا

– ٦ –

عجبا . اين ذهب حيائى ؟ الحق أنى لم أجد وقتا لأفكر فى أمرى . كانت أيامى ولياليّ تمر خاطفة كدوامة أنا فى مركزها ، ولم يكن ثمة منفذ ليدخل منه التردد أو التلطف .

وذات يوم قالت سلفتى لزوجى : كان البكاء حظ النساء فى هذا المنزل حتى الآن . وها قد جاء دور الرجال .

ومضت تقول ، والتفتت الى : علينا الا نضيع عليهم نصيبهم . انى أراك قد برزت للمعركة يا « تشوتا رانى » (١) فصوبى سهامك الى قلوبهم .

وفحصتنى عيناها الحادتان من فرعى الى قدمى ، فلم يفتنها لون من الالوان التى ازدهرت فى زينتى وثيابى وشارتى وكلامى . انى أخجل اذ أتحدث اليوم عن هذا ، ولكن لم أشعر بخجل آنذاك ، فقد كان يعتمل فى باطنى شىء لا أعيه مجرد وعى . حقا لقد كنت أبالغ فى العناية بملابسى ، ولكنى كنت أفعل ذلك وانا أشبه بالآلة ، لا أرمى الى قصد معين . ولا شك انى كنت أعرف ما الذى سيستحسنه سنديب بابو من جهودى ، ولكن ذلك لم يكن يحتاج الى حدس ، فكان يتحدث عنه فى صراحة أمام الجميع .

ذات يوم قال لزوجى : أتدرى يا نيكهيل .. عندما رأيت ملكتنا للمرة الاولى كانت جالسة هناك ساكنة الطائر فى ساريها ذى الحاشية الذهبية ، وكانت عيناها تحدقان فى الفراغ مستفهمتين

(١) بيمالا هى زوجة الاخ الاصغر ، فهى « التشوتا رانى » أو الاميرة الصغيرة . (المترجم) .

كنجمتين ضلتا طريقهما ، وكأنها قضت عصــورا وهي واقفة على حافة ظلام تنظر ، ترتقب شيئا مجهولا . ولــكنى حين رأيتهـا شعرت بهزة تشملنى ، وخيل الى ان الحاشية الذهبية لساريها كانت هى نارها الباطنة تتلهب وتلتف حولها . تلك هى الشعلة التى نريدها ، النار المنظورة ! بالله يا ملــكة الا أحسنت الينا بأن تلبسى مره أخرى كشعلة حية .

كنت قبل كنهر صغير على حافة قرية . كان ايقاعى ولغتى غير ما هما الآن . ولــكن المد جاء من البحر ، وجاش صدرى ، وتداعى شاطئاى . وتجاوبت أمواج البحر تقرع قرع الطبــول فى تيــارى المجنون . لم أستطع أن افهم معنى ذلك الصوت فى دمى . أين كانت نفسى الاولى ؟ من أين جاء هذا السيل الآنى من المجد يزبد فى باطنى ؟ كانت عينا سنديب الجائعتان تشــتعلان كمصبــاحين للعبادة أمام هيكلى . كانت كل رنوته تعلن انى المحبوبة فى الجمال والقوة ، وعلو مديحه المنطوق وغير المنطوق يفرق كل الاصــوات الاخرى فى عالمى . وتساءلت هل خلقنى الخالق من جديد ؟ وهل أراد أن يعوضنى الآن عن طول ما نبذنى ؟ أنا التى كنت خلوا من الجمال أصبحت فجأة جميلة . أنا التى كنت ولا شأن لى أصبحت الآن أشعر فى نفسى بكل بهاء البنغال .

فان سنديب بابو لم يكن فردا مجردا . لقد التقت فيه ملايين النفوس فى البلاد ، وعندما سمانى ملــكة الخلية ردد كل رجالنــا الوطنيين آيات الثناء . وبعــد ذلك لم أعد آبه للمزات ســلفتى الجهيرة ، فقد تغيرت علاقاتى بالعالم بأسره ، وأوضح لى سنديب بابو أن الوطن كله فى حاجة الى ، ولم أجد صــعوبة فى تصــديق ذلك ، فقد شعرت بأن لدى القوة لأفعل كل شيء . لقد جاءتنى قوة الهية ، كانت شيئا لم أشعر به قط من قبل ، شيئا أكبر منى ، لم يتسع لى الوقت لأتبين طبيعته . كان يبدو أنها لى ، ولــكنها تعوقنى ، لقد كانت تشمل البنغال كلها .

وكان سنديب بابو يحب أن يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة مما يتصل بالحركة ، وكنت فى أول الأمر أشــــعر بالحرج وأميل الى التوارى ، ولــكن سرعان ما زال عنى ذلك ، وكنت كلما أشرت بشيء بدت عليه الدهشة ، وطــار من البهجة ، وقال : الرجــال لايحسنون الا أن يفكروا ، أما أنتن معشر النساء فلــكن طريقة فى الفهم دون أن تفكرن . ان الله خلق المرأة من خيال ، أما الرجل

فقد طرقه كى تعتدل صورته .

وكانت الرسائل ترد الى سنديب بابو من أنحاء البلاد فيعرضها على لأبدى رأيى فيها . وربما اختلفنا دون أن أحاول مجادلته ، فيبعث فى طلبى بعد يوم أو يومين وكأنما لاحت له فجأة فكرة جديدة ، ويقول : لقد كنت مخطئا . كان رأيك هو الصواب . وكثيرا ما يعترف لى بأنه حيثما عمل بخلاف نصيحتى كان الخطأ رائده . وهكذا تكون عندى اليقين بأن سنديب بابو وراء كل ما يحدث ، وان وراء سنديب بابو بداهة عادية لامرأة . وامتلأ كيانى بمجد مسئولية عظيمة .

ولم يكن لزوجى مكان فى مشاوراتنا . فقد كان سنديب بابو يعامله كأخ أصغر قد يكون المرء شديد الحب له ولكنه لا يأخذ برايه فى الأمور . وربما تكلم بحنان وابتسام عن براءة زوجى التى تشبه براءة الطفل ، قائلا ان مذهبه الغريب وافكاره الشاذة لا يخلوان من فكاهة تزيدهما ظرفا ، وكأنما كان عطفه على نيكهيل هو نفسه الذى يمنع سنديب بابو من أن يحمله أعباء البلاد .

ان فى صيدلية الطبيعة مسكنات كثيرة تقدمها خفية حين تقطع الروابط الحية على غير انتظار ، فلا يدرى أحد بالجراحة حتى يصحو المرء أخيرا ليعلم بما أحدث من شق كبير . فبينما كان المشرط يعمل جاهدا فى أمس حياتى كانت ترين على عقلى أبخرة غاز مسكر ، فلم اشعر ادنى شعور بقسوة ما يحدث . لعل هذه هى طبيعة المراة . فحين تثور عاطفتها تفقد القدرة على ادراك كل ماعداها . عندما نبقى نحن النساء كالنهر داخل شطآنه ، نغذو بكل ما لدينا ، فاذا فضنا على الشطآن دمرنا بكل ما فينا

حكاية سنديب

ـ ٢ ـ

يبدو لى أن ثمة خطأ ما . وقد شعرت بهذا الخطأ منذ يومين. فمنذ قدومى أصبحت حجرة جلوس نيكهيل شيئا خلاسيا ، بين جناح للنساء وجناح للرجال . فكانت بيمالا تدخلها من «الزينانا» ، ولم تكن مقفلة دونى من الجانب الآخر . ولو أننا أبطأنا فى السير وآثرنا القصد فى الاستفادة من امتيازاتنا لما اصطدمنا بأناس آخرين. ولكننا مضينا مندفعين فلم نفكر فى العواقب .

فكلما كانت « الملكة » تدخل حجرة نيكهيل كنت أعرف ذلك بطريقة ما وأنا فى حجرتى. فهناك رنين الخلاخيل ورسومات أخرى، وقد يصفق الباب بقوة غير ضرورية ، ولخزانة الكتب صرير حين تفتح لأن مصاريعها غير ناعمة . وحين أدخل أجد الملكة وظهرها الى الباب عاكفة على اختيار كتاب من بين الأرفف ، فاذا تطوعت لمساعدتها فى هذه المهمة الصعبة نفرت وأبت ، ثم ننتقل دون تعمد الى موضوعات أخرى .

وأمس الاول ، وكان يوم خميس منحوسا (١) ، انطلقت بعد الظهر من حجرتى على نداء الاصوات نفسها ، فوجدت حارسا فى الممر ؟ فمضيت فى سيرى دون أن أعيره نظرة ، ولكنه اعترض طريقى حين اقتربت من الباب قائلا : ليس هـذا هو الطريق ياسيدى .

ـ ليس هذا هو الطريق ؟ لماذا ؟

ـ أمنا الرانى هناك .

ـ أوه ، حسنا ، قل لأمك الرانى أن سنديب بابو يريد أن يراها .

(١) وفقا للتقويم الهندى . (المترجم) .

ـ هذا لا يكون ياسيدى . انه مخالف للأوامر .
واستبد بى الغضب ، فقلت بصوت عال : انى آمرك . اذهب وأعلنها بقدومى !
واجفل الرجل شيئا ما ازاء مسلكى ؟ وكنت قد دنوت من الباب وأوشكت أن أبلغه حين تبعنى وأمسك بذراعى قائلا : لا ياسيدى ، يجب ألا تفعل !
ماذا ! خادم يلمسني ! جذبت ذراعي وصفعت الرجل صفعة رنانة ، وفى هذه اللحظة خرجت الملكة من الحجرة لتجد الرجل موشكا أن يعنف بى .
ولن أنسى صورة غضبها ! اننى أنا الذى اكتشفت جمال الملكة ، ونعل معظم قومنا لايرون فيها شيئا ، فقوامها الطويل المشوق يسميه هؤلاء الاجلاف « نحيلا » ، ولكن هذه اللدونة فيها هى التى تعجبنى ، كينبوع حياة متوثب ، صادر من أعماق قلب الخالق . وبشرتها سمراء ولكنها سمرة الفرند اللامعة فى حدة ولألاء .
أشارت بأصبعها وهى واقفة بالوصيد وأمرت : نانكو ! اتركنا ! فقلت : لا تغضبى عليه ، ان كان هذا مخالفا للأوامر فأنا الذى يجب أن أذهب .
وكان صوت الملكة لايزال مرتعشا وهى تجيب : يجب الا تذهب . ادخل !
لم يكن ذلك رجاء بل أمرا جديدا ! وتبعتها داخلا ، وجلست على كرسى وأخذت أروح عن نفسى بمروحة وجدتها على المنضدة . وخطت الملكة شيئا بقلم رصاص على قطعة من الورق ونادت خادما سلمتها اليه قائلة : خذ هذه الى المهراجا .
فعدت أقول : معذرة ، لم أستطع أن أملك نفسى ، فضربت رجلك هذا .
قالت الملكة : انه يستحق .
ـ ولكن ذلك لم يكن خطأ المسكين . انما كان يطيع أوامره .
وهنا دخل نيكهيل ، وفى أثناء دخوله تركت كرسى مسرعا ووقفت قرب النافذة وظهرى الى الحجرة . قالت الملكة لنيكهيل :
ـ لقد أهان الحارس نانكو سنديب بابو .
وبدت دهشة نيكهيل صادقة حتى اني لم اتمالك أن التفت وحدقت فيه . حتى الرجل الفاضل فوق ما يتصور يعجز أن يحافظ على عزة الصدق أمام زوجته ـ ان كانت حقا امرأة .

ومضت الملكة تقول :
ــ لقد اعترض طريق سنديب بابو بوقاحة وهو قادم الى هنا . قال ان لديه أوامر ..
فسأل نيكهيل : أوامر من ؟
وصاحت الملكة بصبر نافد وعيناها تطفحان غضبا وقهرا : كيف لى أن أعلم ؟
فبعث نيكهيل فى طلب الرجل وسأله ، فأجاب نانكو عابسا : لم يكن هذا خطئى . كانت لدى أوامر .
ــ من أمرك ؟
ــ أمنا البارا رانى .
وصمتنا جميعا برهة . وبعد أن انصرف الرجل قالت الملكة : يجب أن يذهب نانكو !
فظل نيكهيل صامتا . وكان بوسعي أن أرى أن عدله لايسمح بهذا ، فقد كانت الشكوك تتلجلج دائما فى صدره ، ولكنه كان ازاء مشكلة عنيدة هذه المرة ، فلم تكن الملكة بالمرأة التى تلاين أو تخضع ، وكان لابد لها أن تكيل لسلفتها مثل كيلها بأن تعاقب هذا الرجل ، وكانت عيناها تقدحان شررا ، ونيكهيل ملازم لصمته ، وهى لاتدرى كيف تصب احتقارها على خور زوجها . وترك نيكهيل الحجرة بعد لحظة دون أن يضيف كلمة .
وفى اليوم التالى اختفى نانكو ، وحين استفسرت علمت أنه أرسل الى مكان آخر فى الامارة ، وأن راتبه لم يخفض لهذا النقل.
واستطعت أن ألمح ــ خلف المناظر ــ آثارا مما خربته العاصفة التى أثارها هذا العمل . كل ما أستطيع قوله ان نيكهيل كائن غريب خارج عن المألوف .
وكانت النتيجة أن أصبحت الملكة تستدعينى الى حجرة الجلوس للحديث دون احتيال لذلك أو زعم بأنه مصادفة . وهكذا خرجنا من الايماء الى التلميح الواضح ، فأصبح المفهوم منطوقا . ان السكنة فى بيت الامارة تعيش فى حجرة نائية عن الاجنبى العادى حتى انه لايوجد طريق معلوم ليقترب منها . فما كان أعظمه من تقدم ظافر للحقيقة ألقى قناعا للتقاليد المضللة بعد قناع ، متدرجا ولكن فى اصرار ، حتى تجلت الطبيعة نفسها آخر الأمر .
الحقيقة ؟ أجل انها كانت الحقيقة ، فتجاذب الرجل والمرأة أصل راسخ ، يؤكده عالم المادة كله من ذرة الغبار الى مافوقها .

ولـكن الرجـال يريدون أن يحجبوه عن الانظار خلف قنـاع من الـكلمات ، ويجعلوا منه أداة منزليـة بما يصـنع فى البيت من المقدسات والمحظورات . ان هذا ليس أقل سخفا من صهر النظام الشمسى لصنع سلسلة ساعة لزوج البنت ! (١) .

فاذا استيقظ الواقع ــ رغم كل شيء ــ لنداء ما لايعدو أن يكون حقيقة عارية ، فيا لصرير الاسنان ويا لصك الصدور ! ولكن هل يستطيع المرء أن ينازع عاصفة ؟ انها لن تعنى نفسـها بالرد بل ترجه رجا .

وانى لأستمتع بمرأى هذه الحقيقة وهى تتكشف رويدا رويدا . هـذه الارتجافات فى الخطا ، وهـذه الاشاحات من الوجه أجدها حلوة ، وحلوة هى الخدع التى لا تخدع الآخرين فحسب بل الملكة نفسـها . فحين يضطر الواقع الى أن يلقى الزيف يـكون الخداع سلاحه الرئيسى ، لأن أعداء الواقع يحاولون دائما اخزاءه اذ ينعتونه بالفظاظة ، فلابد له أن يختفى أو يتنكر ، والمقام لا يسمح له أن يعلن فى صراحـة . نعم اننى فظ ، لأنى حق . أنا الجسم . أنا العاطفة . أنا الجوع الذى لا يخجل ولا يرحم .

كل شيء واضح لى الآن . الستارة تهتز ، ومن خلالها أستطيع ان أرى الاعداد للفاجعة . الشريط الاحمر الصغير الذى يطل من خصل شعرها الاثيث متضرجا بشوقه الدفين هو اللســان الذى يتدلى من سحابة العاصـفة الحمراء . انى أحس الدفء فى كل ثنية من ساريها ، وكل ايماءة فى ملابسها . ولعل اللابسة نفسها لا تشعر بذلك شعورا جليا .

ان الملـكة لم تشعر ، لأنها خجلة من الواقع الذى نبذه النـاس بلقب الشـيطان ، فاضطر أن يتسلل الى جنة النعيم فى صـورة ثعبان ، ويهمس بالاسرار فى أذن رفيقة الرجل المختارة ، واذا هى تثور ، فسلاما على كل راحة ، وبعد ذلك يأتى الموت !

ان ملـكتى الصغيرة المسكينة تعيش فى حلم . هى لا تدرى فى اى طريق تسـير ، وايقاظها قبل الاوان غير مأمون ، فخير لى أن ادعى من عدم الوعى مثل ما عندها .

منذ أيام كانت تتأملنى على الغداء بنظرات غريبة ، جاهلة معنى هذه النظرات . وحين التقت عيناى بعينيها أشاحت بوجهها الذى تضرج خجلا . فقلت : أتدهشك شهيتى ؟ اننى أستطيع أن أخفى

(١) زوج البنت هو الشخص المدلل فى البيت الهندى . (المترجم) .

كل شيء الا نهمي . وعلى كل حال لماذا يحمر وجهك من أجلى وأنا لا أستحى ؟

فلم يزد ذلك وجهها الا احمرارا ، وتمتمت : كلا ، كلا . لقد كنت فقط ..

فقاطعتها قائلا : انى أعلم . النساء يملن الى الرجال النهمين ، فنهمنا هذا هو الذى يجعل لهن اليد العليا . وقد تلقيت من أيديهن اكراما زادنى عدم حياء ، فلست أبالى البتة أن تنظرى الى الطيبات تختفى ، فانى عازم على أن أستمتع بكل واحدة منها .

ومنذ أيام كنت أقرأ كتابا انجليزيا يعالج مشكلات الجنس بطريقة واقعية جريئة . فتركته فى حجرة الجلوس . وحين دخلتها بعد ظهر اليوم التالى لبعض الشأن وجدت الملكة جالسة وهذا الكتاب فى يدها ، فحين سمعت خطواتى ألقته مسرعة ووضعت فوقه كتابا آخر — مجلدا من أشعار مسز هيمان .

وبدأت الحديث قائلا : لست أدرى لماذا تخجل النساء اذا ضبطن يقرأن الشعر . قد يكون لنا نحن الرجال — محامين أو مهندسين أو غير ذلك — أن نخجل من هذا ، واذا لم يكن لنا من قراءة الشعر بد فينبغى أن يكون ذلك فى هدوء الليل خلف أبواب مغلقة . أما أنتن معشر النساء فبينكن وبين الشعر نسب قريب . ان الخالق نفسه شاعر ، ولابد أن جايايديفا (١) قد تعلم الفن القدسى جالسا عند قدميه .

فلم تحر الملكة جوابا ، غير أن وجهها احمر فى قلق ، وهمت بمغادرة الحجرة ، فقلت مستنكرا : كلا ، كلا ، أرجوك أن تمضى فى قراءتك . أنا لا أبغى الا كتابا تركته هنا ، وسأنطلق من فورى — وأخذت الكتاب من على المنضدة — من حسن الحظ أنك لم تفكرى فى تصفحه فيدعوك ذلك الى معاقبتى .

فسألت الملكة : حقا ! لماذا ؟

قلت : لأنه ليس شعرا ، بل أشياء صريحة ، فى لغة صريحة ، لا تتحرز ولا تتحرج . وددت لو يقرؤه نيكهيل .

فعبست الملكة قليلا وهى تتمتم : وما الذى يجعلك تود ذلك ؟

— الا ترين انه رجل ، واحد منا ؟ كل الخلاف بينى وبينه أنه يحب أن ينظر الى هذا العالم نظرة مغلفة بالضباب . ألم تلاحظى

---

(١) شاعر غنائى تصلح قصائده فى تمجيد الله للتعبير عن مختلف العواطف الانسانية . (المترجم) .

ان هذه الصفة فيه تجعله بنظر الى « السواديشي » كأنها قصيدة شعر يجب أن يسلم وزنها فى كل خطوة ؟ أما نحن فانا محطمو الوزن بهراواتنا النثرية .

ــ وما شأن كتابك بالسواديشي ؟

ــ ستعلمين متى قرأته . ان نيكهيل يريد أن يتبع مبادىء موضوعة . يريد ذلك السواديشي كما يريده فى كل شيء آخر ، ولهذا يصطدم بالطبيعة البشرية عند كل منعرج ، ثم يأخذ فى ذمها ، ولا يريد أن يدرك أبدا أن الطبيعة البشرية قد خلقت قبل أن تخلق العبارات بوقت طويل ، وستعيش بعدها أيضا .

فصمتت الملكة لحظة ثم قالت برزانة : أليس من الطبيعة البشرية انها تحاول السمو على نفسها ؟

وابتسمت فى باطنى ، وقلت لنفسى : ليست هذه كلماتك ، لقد حفظتها من نيكهيل . « أنت » بشر سوى . لقد استجاب لحمك ودمك لنداء الواقع . كل عروقك تشتعل بنار الحياة ــ الست اعلم ذلك ؟ فحتام يبقونك باردة بهذه المنشفة المبللة ، المبادىء الخلقية ؟

وقلت بصوت مرتفع : ان الضعفاء اغلبية ، وهم دائما يسممون آذان الناس بترديد هذه المزاعم . لقد حرمتهم الطبيعة من القوة ، ولهذا يحاولون أن يضعفوا الآخرين .

فردت بيمالا : نحن النساء ضعيفات ، وأحسبنا يجب أن ننضم الى مؤامرة الضعفاء .

فصحت ضاحكا : النساء ضعيفات ! ان الرجال يمتدحونكن بالنعومة والرقة حتى يوهموكن انكن ضعيفات . ولكن القوة فيكن معشر النساء . ان الرجال يبالغون فى التظاهر بما يسمونه حريتهم ، ولكن الذين يعرفون تفكيرهم الباطنى يدركون عبوديتهم . لقد كتبوا الكتب بأيديهم ليقيدوا انفسهم . وبمثاليتهم صنعوا اغلالا ذهبية للنساء يلفونها حول اجسامهن وعقولهن . ولو لم تكن للرجال هذه القدرة العجيبة على ايقاع انفسم فى أشراك من صنعهم لما استطاع شيء أن يبقيهم فى القيد . اما انتن معشر النساء فقد رغبتن أن تحتوين الواقع . بالجسم والروح ، لقد ولدتن الواقع وأرضعتن الواقع أثداءكن .

وكانت الملكة واسعة الاطلاع بالنسبة الى غيرها من النساء ، ولم يكن من اليسير أن تسلم بحججى . فقالت تناقضنى : لو

صح ذلك لما وجد الرجال جاذبية فى النساء .

فأجبتها : ان النســاء يدركن الخطر . هن يعلمن ان الرجال يحبون الاوهام ، لذلك يعطينهم كفايتهم منها بأن يستعرن عباراتهم نفسها . هن يعلمن ان الرجل ـ ذلك السكير ـ يفضل النشوة على الطعام . ولذلك يحاولن أن يبدون فى مظهر شيء يثيرالنشوة. والواقع انه لولا الرجل لما احتاجت المرأة الى التمثيل .

ـ اذن لماذا تعنى نفسك بتحطيم هذا الوهم ؟

ـ من أجل الحرية . اننى أريد الحرية للبلاد ، واريد الحرية للعلاقات الانسانية .

ـ ٣ ـ

كنت أعلم ان مفاجأة من يمشي فى النوم بايقاظه امر غير محمود العاقبة ، ولكن فى طبعى اندفاعا ينفرنى من المشية المتئدة . وقد علمت انى مسرف فى الجسارة ذلك اليوم ، وعلمت ان صدمة مثل هذه الافكار توشك أن تكون غير محتملة ، ولكن الجسارة هى التى تكسب دائما مع النساء .

بينما كنا نتقدم بخطا حثيثة اذ بأستاذ نيكهيل الشيخ ـ تشاندرانات بابو ـ يدخل علينا . ان العالم ليذهب منه أكثر من نصف رداءته مكانا للعيش لو خلا من هؤلاء المعلمين الذين يجعلون المرء يود أن يغادره فى اشمئزاز . وأمثال نيكهيل يريدون أن يبقى العالم ابدا مدرسة . وقد ظهرت هذه المدرسة المتجسدة عصر ذلك اليوم فى لحظة سيكولوجية .

نحن جميعا نظل تلاميذ صغارا فى ركن ما من قلوبنا . وحتى أنا شعرت بشيء من الارتباك . أما الملكة المسكينة فقد انتظمت فى مكانها على الفور كأول الصف على المقعد الاول ، وكأنها تذكرت فجأة أن عليها أن تواجه الامتحان .

ان بعض الناس أشبه « بعمال تحويل » دائمين ينتظرون بجانب الخط الحديدى ليحولوا قطار أفكار المرء من قضيب الى قضيب .

ماكاد تشاندرانات بابو يدخل حتى أخذ يتلمس عذرا للانصراف متمتما : معذرة .. اننى ..

ولكن الملكة أسرعت اليه قبل أن يتم ، وانحنت فى خشوع قائلة : أتوسل اليك الا تتركنا ياسيدى . الا تتفضل بالجلوس؟

كانت كفريق يتعلق به طالبا النجدة ..! الرعديدة الصغيرة !

ولكن من الجائز انى اخطات الفهم فلعل دعوتها اياه كانت تنطوى على شيء من مكر النساء . لعلها كانت تريد أن ترفع قيمتها فى عينى . لعلها كانت تقول لى فى وضوح وايجاز : لا يخطرن ببالك لحظة انى خضعت لك . بل ان احترامى لتشاندرانات بابو لأكثر من ذلك .

حسنا ، اسبقى احترامك كما تشائين . فالمعلمون يعيشون عليه ، ولكنى لست معلما ، ولا حاجة لى بتلك التحية الفارغة.

وبدأ تشاندرانات بابو يتكلم عن « السواديشى » ، فظننت انى استطيع أن أدعه يتكلم وحده ، فلا شيء يعدل أن تترك شيخا عجوزا يفرغ ما عنده فى الكلام ، يخال انه يربط العالم فى حزمة ، وينسى طول الوقت كم يبعد العالم الواقعى عن لسانه الثرثار .

ولكن أعدى أعدائى لا يستطيع أن يتهمنى بالصبر. وحين بدأ تشاندرانات بابو يقول : « اذا كنا ننتظر أن نجنى الثمار من حيث لم نضع بذورا .. » اضطررت أن أقاطعه . فصحت : من الذى يريد الثمار ؟ نحن نتبع صاحب « الجيتا » الذى يقول : ان علينا أن نسعى وليس علينا أن ننتظر ثمار أعمالنا .

فسأل تشاندرانات بابو : اذن فما الذى تريدونه حقا ؟

فصحت : الاشواك ! الاشواك التى لا تكلف شيئا لتزرع .

فأجاب : الاشواك لا تعوق الآخرين فحسب ، بل ان من شأنها ان تجرح أقدام من يزرعها .

فرددت عليه قائلا : هذا حق ليكتب فى مشق . ولكن الشيء الواقعى هو أن لدينا هذه الأكلة فى قلوبنا . ليس علينا الآن الا ان نزرع الشوك لأقدام غيرنا ، وعندما يؤلمنا فيما بعد سيكون لدينا من الفراغ ما يسمح لنا بأن نندم . ومع ذلك فلماذا نخاف حتى ان حدث هذا ؟ عندما يكون علينا أن نموت أخيرا سنجد متسعا من الوقت لنبرد ، اما والنار تلهبنا فدعنا نحتدم ونغلى .

فابتسم تشاندرات بابو قائلا : لك أن تحتدم كما تشاء ، ولكن على الا تحسب هذا عملا أو بطولة ، فالأمم المتقدمة فى العالم قد تقدمت بالعمل لا بالغليان . وأولئك الذين رقدوا دائما فى خوف من العمل اذا استيقظوا فجأة لحالهم المحزنة بحثوا عن خلاصهم فى اختصار الطرق ولهوجة الاعمال .

وكنت أتحفز لالقاء رد قاطع حين عاد نيكهيل. فنهض تشاندرانات

بابو ونظر الى الملكة قائلا : دعينى اذهب الآن يا أمى الصغيرة لأعنى ببعض شأنى .

ولما خرج أريت نيكهيل الكتاب الذى بيدى وقلت له : لقد كنت أحدث الملكة عن هذا الكتاب .

ان تسعة وتسعين فى المائة من البشر يجب خداعهم بالاكاذيب ، ولكن الطريق الاسهل مع هذا التلميذ الابدى لمعلم المدرسة هو خداعه بالحقيقة . فأفضل ما يغش به هو الصراحة . ولهذا كانت ايسر الطرق حين أقامره أن أضع أوراقى على المائدة .

قرأ نيكهيل العنوان على الغلاف ولم يقل شيئا . فمضيت أقول: هؤلاء الكتاب يعملون مكانسهم بهمة ، مزيحين تراب النعوت التى غطى بها الناس عالمنا هذا . لذلك كنت أقول انى أود لو تقرؤه .

فقال نيكهيل: لقد قراته .

ـ حسنا ، وما رايك ؟

ـ انه نافع لمن يريدون حقا أن يفكروا ، ولكنه سم لمن يفزعون من التفكير .

ـ ما الذى تعنيه ؟

ـ أولئك الذين يدعون الى « المساواة فى حقوق الملكية » يجب الا يكونوا لصوصا ، لأنهم ان كانوا لصوصا فما يعلمونه أكاذيب . وعندما يتغلب الانفعال لا يفهم مثل هذا الكتاب على وجهه .

فأجبت : الانفعال هو مصباح الشارع الذى يرشدنا . وتسميته باطلا عبث ، كتوقع أن تحسن الرؤية باقتلاع العينين الطبيعيتين.

وكان واضحا أن نيكهيل قد أخذته الحماسة . قال : اننى لا أسلم بحقيقة الانفعال الا حين أسلم بحقيقة التحكم فيه . وحين ندفع ما نريد رؤيته داخل عيوننا لا نرى وانما نؤذى عيوننا ، وكذلك عنف العاطفة الذى لا يترك مسافة بين العقل وموضوعه يؤدى الى عكس المقصود .

فأجبت : انما هو تأنقك الفكرى الذى يجعلك تسترسل فى لطائف أخلاقية ، متجاهلا الجانب الوحشى للحقيقة . وهذا لايساعدك الا على اضفاء غلالة من الابهام على الاشياء فلا تستطيع أن تعمل بشىء من القوة .

فقال نيكهيل نافد الصبر: ان اقحام القوة فى غير محلها لايساعدك فى عملك .. ولكن لماذا تجادل فى هذه الأمور ؟ ان الجدل الفارغ لايذهب الا نضارة الحقيقة .

وكنت أريد أن تشترك الملكة فى المناقشة ، ولكنها لم تنطق بكلمة الى تلك اللحظة . فهل صدمتها صدمة عنيفة تركتها نهبا للريب ، راغبة فى أن تحفظ درسها من جديد على يدى معلم المدرسة ؟ بيد أن الهزة الكبيرة كانت لازمة . فيجب أن يبدأ المرء بادراك أن الامور التى تظن راسخة يمكن أن تهتز .

قلت لنيكهيل : يسرنى انى تحدثت معك ؟ فقد كنت موشكا أن أعير هذا الكتاب للملكة كى تقرأه .

فقال نيكهيل : وأى بأس فى ذلك ، اذا كنت أستطيع قراءة الكتاب فلماذا لا تقرؤه بيمالا أيضا ؟ كل ما أريد قوله هو أن الناس فى أوربا ينظرون الى كل شىء من وجهة العلم . ولكن الانسان ليس علم وظائف الاعضاء فحسب ، ولا علم الاحياء ، ولا علم النفس، بل ولا علم الاجتماع. بربك لاتنس هذا . ان الانسان أكبر كثيرا من العلم الطبيعى عن نفسه . أنت تضحك منى ، تسمينى تلميذ معلم المدرسة ، ولكنك أنت هذا التلميذ لا أنا . فأنت تريد أن تعرف حقيقة الانسان من مدرس العلوم لا من وجودك الداخلى .

فقلت ساخرا : ولكن لماذا كل هذه الحماسة ؟

ــ لأنى أراك عاكفا على تحقير الانسان واذلاله .

ــ وفيم بالله ترى كل هذا ؟

ــ فى الهواء . فى مشاعرى المهانة . انك دائب على جرح ما هو عظيم وغيرى وجميل فى الانسان .

ــ أى فكرة مجنونة هذه التى تزعم !

فهب نيكهيل فجأة وقال : أصارحك القول ياسنديب ، ان الانسان قد يحرج حتى الموت ويأبى مع ذلك أن يموت . لهذا السبب أنا مستعد لأن أتحمل كل شىء ، وأنا أعلم كل شىء ، وعيناى مفتوحتان .

قال هذه الكلمات وغادر الحجرة مسرعا .

وكنت أحملق زائغ البصر فى شخصه المتباعد عندما سمعت صوت كتاب يسقط عن المنضدة ، فالتفت لأرى الملكة تتبعه بخطا سريعة عصبية وقد خطت طريقا دائريا لتتجنب المرور بقربى .

مخلوق عجيب نيكهيل هذا ! انه يشعر بالخطر يتهدد بيته ، ولكن لماذا لايطردنى منه ؟ انا أعلم السبب . انه ينتظر بيمالا أن تعطيه الاشارة . فان قالت له بيمالا أن زواجهما كان خطأ

فسيحنى رأسه ويسلم بأنه ربما كان خطأ ! فليست لديه الصلابة ليدرك ان الاعتراف بالخطأ هو افدح الاخطاء ، وانه لمثل واضح يبين كيف تورث الأفكار ضعفا . ما رأيت أحدا مثله أعجوبة من بدوات الطبيعة ! انه لا يكاد يصلح شخصية فى رواية أومسرحية ، بله واقع الحياة .

والملكة ؟ أخشى أن تكون حياتها الحالمة قد انتهت منذ اليوم . فقد فهمت أخيرا حقيقة التيار الذى يحملها معه ، وعليها الآن أن تتقدم أو تتأخر مفتوحة العينين . ولعل الاقرب الى الظن أنها ستتقدم خطوة ثم تتأخر خطوة ، ولكن ذلك لا يقلقنى . فعندما تشتعل النار باسان يكون اندفاعه ذهابا وجيئة سببا لاحتدامها ، ولن يكون الخوف الذى شعرت به الا مذكيا لانفعالها .

لعل الاحجى الا أكلمها كثيرا ، بل أكتفى بأن أختار لها بعض الكتب الحديثة لتقرأها . فلتصل رويدا رويدا الى الايمان بأن الانسان يكون عصريا حين يعترف بالانفعال ويحترمه على أنه الواقع الاسمى ، لا حين يخجل منه ويمجد السيطرة عليه . واذا وجدت ملاذا فى كلمة مثل « العصرية » فسوف تجد قوة .

ومهما يكن من شىء فيجب أن أرى هذا الأمر الى نهاية الفصل الخامس . على اننى لا أستطيع ـ ويا للأسف ! ـ أن أزهو بكونى متفرجا وحسب ، أجلس فى المقصورة الملكية وأصفق من حين لآخر . ان فى قلبى عصرة ، وفى كل عصب وخزة . عندما أطفىء النور وأرقد فى فراش ترف حوالى وتملأ الظلام لمسات ونظرات وكلمات صغيرة ، وعندما أصحو فى الصباح تعرونى هزة اذ أستبق الزمن ، ويخيل الى أن الدم يجرى فى عروقى على نغمات الموسيقى ..

كان على المنضدة اطار مزدوج فيه صورة الملكة الى جانب نيكهيل . فنزعت صورتها . وأمس أريتها الجانب الخالى وقلت لها : السرقة لا تصبح ضرورية الا بسبب البخل ، فيجب أن يقسم اثمها بين البخيل والسارق . ألا ترين ذلك ؟

فلم تزد على أن قالت وابتسمت ابتسامة صغيرة : انها لم تكن جميلة .

قلت : وما العمل ؟ لن تكون الصورة أفضل من صورة . وعلى أن أقنع بها مهما كانت .

فأخذت الملكة كتابا وراحت تقلب صفحاته . ومضيت أقول :

ان كان هذا يضايقك فعلى أن أحتال لملء الفراغ .

وقد ملأته اليوم . ان صورتى هذه أخذت وأنا فى ريق الشباب ، وكان وجهى آنذاك أنضر ، وكذلك كانت نفسى . ثم كانت لدى بعد أوهام عن هذا العالم والعالم الآخر . والايمان يخدع الرجال ، ولـكن له فضيلة واحدة عظيمة : انه يضفى على القسمات بهاء .

صورتى ترقد الآن بجانب صورة نيكهيل . ألسنا صـــديقين قديمين ؟

الفصل الرابع

حكاية نيكهيل

- ٣ -

ما كنت قط عاكفا على ذاتى ، ولكنى كثيرا ما أحاول فى هذه الايام أن أنظر الى نفسى من الخارج .. أن أرى نفسى كما ترانى بيمالا . ويالها من صورة قاتمة كئيبة ، تلك التى تصنعها عادتى فى تناول الأمور تناولا مسرفا فى الجد !

لخير لك أن تصرف الدنيا بالضحك من أن تغرقها بالدموع . هكذا ـ فى الحق ـ تسير الدنيا . فنحن لا نلذ طعامنا وراحتنا الا لأننا نطرد الاحزان المنتشرة فى كل مكان ، فى البيت وفى العالم الخارجى ، كما لو كانت أشباحا خاوية ، ترى أين كانت تذهب شهيتنا ونومنا لو أننا نظرنا الى تلك الاحزان ، ولو مرة واحدة ، على أنها حقائق ؟

ولكنى لا أستطيع أن أطرد نفسى كما لو كانت واحدا من تلك الاشباح . ولهذا يرقد حمل حزنى ثقيلا ثقل الابد على قلبعالمى.

لماذا لا تقف متفردا متباعدا على جادة العالم ، وتشعر أنك جزء من الكل ؟ مابيمالا بالنسبة اليك وسط تيار البشرية الضخم الممتد عبر العصور؟ زوجك ..؟ وما الزوجة ؟ فقاعة اسم ، تنفخها نفسك حتى تكبر ، تحرسها حذرا بالليل وبالنهار ، ولكنها توشك أن تنفجر لأى شكة دبوس من الخارج .

زوجتى .. اذن فهى ـ ولاريب ـ ملكى ! فان قالت : «لا ، اننى ملك نفسى » ، فهل لى أن أجيب : « كيف يكون ذلك ؟ ألست لى ؟ » .

زوجتى .. وهل تصلح هذه الكلمة حجة ، بله أن تكون

حقيقة ، هل يستطيع امرؤ أن يسجن شخصية كاملة فى ذلك الاسم؟

زوجتى ! .. ألم أودع ذلك العالم الصغير أنقى ما فى حياتى وأحلاه ، كل ما هو أنقى وأحلى ، ولم أدعه لحظة يسقط من حضنى الى التراب ؟ أى بخور للعبادة ، وموسيقى للعاطفة ، وزهور لربيعى وخريفى لم أقدم عند هيكله ؟ فان جرفتها مياه البالوعة العكرة كزورق ورقى صغير ــ ألست أيضا ..؟

مرة أخرى هذه النظرة القاتمة التى لا أستطيع الخلاص منها! لماذا هى بالوعة ولماذا هى عكرة ؟ ان أسماء تقال فى نوبة غيرة لن تغير حقائق العالم . ان لم تكن بيمالا لى فليست لى ، ولن يثبت الغضب والغيظ والجدل انها لى . وان كان قلبى ينصدع فلينصدع! فلن يغدو العالم مفلسا بسبب ذلك ــ ولا أنا نفسى ، فالانسان اكبر كثيرا مما يفقده فى هذه الحياة . حتى بحر الدموع له شاطئه الآخر ، ولولا ذلك ما بكى انسان .

ولكننا يجب أن ننظر الى رأى المجتمع.. فلندع المجتمع يرى. ان كنت أبكى فعلى نفسى أبكى لا على المجتمع . وهل أبالى ــ ان قالت بيمالا انها ليست لى ــ أين تكون زوجتى التى يعرفها المجتمع ؟

لابد من بلاء . ولكننى يجب أن انقذ نفسى ــ بكل وسيلة فى يدى ــ من أحد أنواع تعذيب النفس ، يجب ألا أفكر أبدا ان حياتى تفقد قيمتها لأنها ابتليت باهمال ما . ان القيمة الكاملة لحياتى لا تذهب كلها ثمنا لعالمى البيتى الضيق ، فتجارتها العظيمة لا تنتعش ولا تهبط لنجاح تافه أو خيبة تافهة فى مقايضة مسراتى وأحزانى الشخصية .

لقد حان الوقت لأجرد بيمالا من كل زينة مثالية خلعتها عليها . لقد كان افراطى فى هذه العبادة ناشئا عن ضعفى . كنت شديد الطمع ، فخلقت من بيمالا ملاكا لأضاعف سعادتى ، ولكن بيمالا هى كما هى ، وليس بمعقول أن تلبس لبوس ملاك لترضينى . ولا يلزم أن يمدنى الخالق بملائكة لأنى ظامىء الى الكمال الخيالى.

يجب أن أعترف بأنى لم أكن الا مصادفة فى حياة بيمالا . ولعل طبيعتها لا تستطيع أن تعرف الاتحاد الحقيقى الا مع رجل مثل سنديب . على انى لا أستطيع باسم التواضع الزائف أن أعد رفضى جزاء أستحقه . ان لسنديب ولا شك صفات جذابة كان لها سلطان على أيضا . ولكننى أشعر يقينا انه ليس رجلا أفضل منى

واذا كان غار النصر نصيبه اليوم والاهمال لى ، فسوف يدعى مانح الغار ليوم حساب .

انني لا أقول هذا مفاخرا . لقد الجأتني الضرورة نفسها الى حيث يجب أن أقرر كل قيمتي الحقيقية لأنقذ نفسي من الدمار الكامل — فلتقبل على من خلال تجربة العذاب المخيفة فرحة الخلاص — الخلاص من شكي في نفسي .

لقد وصلت الى التمييز بين ما هو حقيقة في وما كنت أتوهم غفلة مني انه في ، وسوى حساب الربح والخسارة واصبح الباقي هو نفسي — لا نفسا كسيحة مكسوة بالخرق والمزق ، ولا نفسا مريضة تغذى بطعام المرضى ، بل روحا خاضت أشد البلاء واستطاعت أن تعيش .

مر أستاذي بحجرتي منذ لحظة وقال ويده على كتفي : قم الى فراشك يانيكهيل فقد تقدم الليل .

والواقع انه أصبح من العسير على أن آوى قبل أن يتأخر الوقت — أي قبل أن تستغرق بيمالا في النوم . فنحن نتلاقى في النهار ، وربما تحادثنا ، ولكن ماذا عساى قائلا لها حين ننفرد في سكون الليل ، وبنفسي وجسمي ما بهما من الخجل ؟

سألت بدوري : وكيف بقيت ساهرا حتى الآن ياسيدي ؟ فابتسم شيخي قليلا وهو يتركني قائلا : لقد انتهت أيام نومي ، وبلغت سن اليقظة .

كنت قد بلغت من الكتابة هذا الحد وهممت بالقيام لأذهب الى الفراش حين رايت سحاب تموز ينفرج غطاؤه الثقيل فجأة : فرجة صغيرة لمع فيها نجم كبير ، وكأنه يقول لى : مواثيق أرض الاحلام تبرم ، ومواثيق أرض الاحلام تنقضى ، ولكنني هنا أبدا ، المصباح الخالد لليلة العرس .

وامتلأ قلبي فجأة بفكرة أن حبي الخالد ينتظرني صابرا خلال العصور ، خلف حجاب الاشياء المادية ، خلال حيوات كثيرة . في مرايا كثيرة رأيت صورتها — مرايا مكسورة ، مرايا معوجة ، مرايا مغبرة . وكلما حاولت أن أجعل المرآة مرآتي أنا ، واغلق عليها صندوقي ، غابت الصورة عن ناظري . ولكن ماذا في ذلك ؟ ماذا أصنع بالمرآة ، بل بالصورة نفسها ؟

ياحبيبتي ، ان بسمتك لن تغيب أبدا ، وفي كل فجر سيظهر لى الطابع القاني بكرا على جبينك !

يهزأ شيطان مر ركنه المظلم : ياله من ملق صبيانى لخداع النفس! ثرثرة حمقاء تبقى الاطفال هادئين .

قد يكون ذلك صحيحا . ولكن ملايين وملايين من الاطفال بملايين من الصيحات يجب أن يبقوا هادئين . فهل يمكن أن يكون ما يهدىء هذا الجمع كله كذبة ؟ كلا ، ان حبى الخالد لا يمكن أن تخدعنى ، لأنها حق !

انها حق ، ولهذا رأيتها وسأراها كثيرا حتى فى أخطائى ، حتي فى أكثف غمامة من الدمع . لقد رأيتها وفقدتها فى زحمة سوق الحياة ، ووجدتها ثانية ، وسأجدها مرة أخرى عندما أنجو خلال ثغرة الموت .

آه ياحبيبتى القاسية ، لا تمضى فى لعبك بى ! ان كنت قد عجزت عن الاهتداء اليك بآثار خطاك على الطريق ، وعبق جدائلك فى الهواء فلا تجعلينى أبكى ذلك أبدا . النجمة المسفرة تأمرنى الا أخاف ، فما هو أبدى لابد أن يكون موجودا دائما .

فلأذهب الآن ولأر بيمالا . لابد أنها قد مدت أعضاءها المتعبة على السرير ، مسترخية بعد طول جهادها ، واستغرقت فى النوم . سأترك قبلة على جبينها دون أن أوقظها ، لتكون قربان الزهر لعبادتى . أعتقد انى أستطيع نسيان كل شىء بعد الموت ، كل أخطائى وكل عذاباتى ، ولكن صدى لذكرى هذه القبلة سوف يبقى ، فان الاكليل الذى نسج من قبلات ولادات كثيرة متعاقبة سيتوج المحبوبة الخالدة .

عندما دقت الساعة الثانية دخلت زوجة أخى الحجرة ، وصاحت: « ماذا تصنع يا أخى العزيز (١) بالله قم الى سريرك ولا تشغل بالك . اننى لا أطيق النظر الى ذلك الظل المخيف من الألم على وجهك . . » . وفاضت الدموع من عينيها وهى تدعونى هذا الدعاء .

فلم أستطع أن أنبس بكلمة ، ولكنى مسحت التراب عن قدميها ومضيت لأنام .

---

(١) عندما تقوم رابطة بين شخصين بطريق الزواج أو التفاهم المشترك الناشىء عن صداقة أو مودة خاصة فانهما لا يناديان أحدهما الاخر بالاسم بل باللفظ الذى يدل على تلك العلاقة . (المترجم) .

حكاية بيمالا

– ٧ –

فى مبدأ الأمر لم أكن أرتاب فى شىء ولا أخاف شيئا ، انما كنت اشعر انى منذورة لبلادى . وكم كان فى ذلك التسليم المطلق من فرح عظيم ! ثم عرفت كيف يمكن أن يجد الانسان السعادة القصوى فى تمام تدميره لذاته .

مهما يكن من شىء فقد كان يمكن أن تنتهى لوثتى هذه نهاية تدريجية طبيعية . ولكن سنديب بابو لم يشأ ذلك . بل أصر على أن يكشف نفسه . أصبحت نبرة صوته حميمة كلمسة ، وكل نظرة تركع على ركبتيها مستجدية ، وفى ثنايا ذلك كله يتلهب شوقا كأنه يوشك من حدته أن يقتلعنى من الجذور ، ويجرنى من الذوائب.

لن أروغ من الحقيقة . ان هذه الرغبة الجارفة كانت تجذبنى نهارا وليلا ، وكان ذلك التخريب لنفسى يبدو مغريا مهلك الاغراء . كم كان يبدو مخجلا ومروعا ، وحلوا على الرغم من ذلك ! ثم كان هناك تطلعى المستبد كأنه لا يقف عند حد . ذلك الرجل الذى لا أعلم عنه الا القليل ، الذى لا يمكن أبدا أن يكون خالصا لى ، الذى يفور شبابه بمائة شعلة من اللهب .. آه ، أى سر فى عواطفه الجياشة العريضة الصاخبة !

بدأت بشعور بالعبادة ، ولكن ذلك سرعان ما ذهب . حتى اننى لم أعد أحترم سنديب ، بل بدأت أحتقره . ولكن قيثارتى هذه المصنوعة من لحم ودم ، والمشكلة بوجدانى وخيالى ، وجدت فيه عازفها البارع . ومع اننى كنت أنفر من لمسه ، بل أصبحت أكره القيثارة نفسها ، فقد ظلت أنغامها تستثار .

يجب أن أعترف بأنه كان فى شىء .. ماذا أقول ؟.. شىء يجعلنى أتمنى لو استطعت أن أموت !

ان تشاندرانات بابو يجيئنى حين يتسع وقته لذلك . وله من

الفوة ما برفع نفسى الى قمة أستطيع منها أن أبصر حدود حياتى فى لحظة واحدة وقد امتدت من كل جانب ، فأدرك ان الخطوط التى حسبتها حدودا لم تكن الا أوهاما .

ولكن ما فائدة ذلك كله ؟ هل أرغب فى التحرير حقا ؟ لكأنى أدعو : ليأت الشقاء الى بيتنا ؟ لينكمش أفضل ما فى ويسود ، على ألا تتركنى هذه الفتنة .

عندما كنت أرى سلفا لى قبل زواجى ـ وقد مات الآن ـ مخمورا يضرب زوجته بجنون ثم يبكى ويجأر فى ندم السكارى ، مقسما ألا يمس الشراب ثانية ، ولكنه يجلس فى ليلة ليعب الخمر عبا ـ كانت نفسى تمتلىء تقززا . بيد أن نشوتى اليوم أفظع ، والخمر لا تشترى ولا تسكب ، بل تنبع من عروقى ولا أستطيع لها صمودا .

هل يجب أن يستمر هذا الى آخر أيامى ؟ اننى أنتبه مرة بعد مرة وانظر الى نفسى ، وأفكر أن حياتى كابوس سيختفى فجأة بكل ما فيه من مجافاة للحقيقة . لقد أصبحت متناقضة تناقضا مخيفا ، لا ارتباط لها بماضيها . أما ماذا تكون ، وكيف صارت الى هذا المأزق ، فذلك ما لا أستطيع أن أفهمه .

ذات يوم قالت سلفتى بضحكة لاذعة : يا ما أكرم تشوتا رانى التى عندنا ! ان ضيفها لايريد أن يتزحزح . فى أيامنا كان هناك ضيوف أيضا ، ولكنهم كانوا لا يجدون مثل هذا السخاء ، فقد كنا ـ يا لحمقنا ! ـ مشغولات بأزواجنا ، ان أخى المسكين نيكهيل يغرم ثمن ميوله العصرية المسرفة . كان يحب أن يأتى ضيفا ان كان يريد البقاء ، أما الآن فالظاهر انه قد آن الأوان ليرحل .. أيتها الشيطانة الصغيرة ! ألا تخزين مرة حين تقع عيناك على وجهه المعذب ؟

لم تنل منى هذه السخرية ، لعلمى ان هؤلاء النسوة لا يملكن القدرة على فهم كنه عبادتى . وكنت وقتئذ فى درع واق من نشوة التضحية ، لا تستطيع مثل هذه السهام أن تنفذ منه لتخجلنى .

— ٨ —

انتهى كل كلام عن فضية البلاد منذ بعض الوقت . وأصبح حديثنا فى هذه الايام حافلا بمشكلات الجنس العصرية ، وشتى أمور أخرى مع شىء من الشعر فيه الفياشنافى القديم والانجليزى

الحديث ، يتخلله لحن خفى أجش الطبقة لم أسمع مثله فى حياتى من قبل ، وكأنه يصور نغمة الرجولة الحقة .. نغمة السلطان .

لقد جاء اليوم الذى انكشف فيه كل غطاء ، ولم يبق سبب ولا تعلة ابقاء سنديب ، أو انفرادى واياه فى الحديث كل حين . وشعرت بالسخط الشديد على نفسى وعلى سلفتى وعلى أحوال الدنيا ، وآليت الا أذهب الى الجناح الخارجى أبدا ولو كان فى ذلك موتى .

وأمضيت يومين كاملين دون أن أغادر مكانى . ثم تبينت للمرة الاولى الى أى مدى أبعدت فى السير . فقد شعرت أن حياتى لا طعم لها . كنت كلما لمست شيئا أود أن أطرحه بعيدا ، وكنت أشعر بأنى انتظر – من قمة رأسى الى أطراف أصابعى – أنتظر شيئا ما ، انسانا ما ، ودمى لا ينى ينبض بالتوقع .

حاولت أن أشغل نفسى بعمل زائد . كانت أرضية غرفة النوم نظيفة ، ولكنى أصررت على أن تغسل ثانية أمام عينى . وكانت الاشياء مرتبة فى الخزائن بنظام معين ، فأخرجتها جميعا وأعدت ترتيبها بنظام آخر . ولم أجد وقتا عصر ذلك اليوم حتى لتمشيط شعرى ، فعقدته دون أن أضفره ، ورحت أزعج الجميع ، وأثير المشكلات حول حجرة الخزين . وبدا أن ثمة نقصا فى المخزن ، وأن السرقة لابد كانت جارية على قدم وساق ، ولكنى لم أستطع أن أستجمع الشجاعة لمحاسبة شخص معين ، فقد كان يمكن أن تخطر هذه الفكرة فى عقل انسان ما : « وأين كانت عيناك طوال هذه الأيام ! »

خلاصة القول انى تصرفت كالمجنونة فى ذلك اليوم . وفى اليوم التالى حاولت أن أقرأ . ولست أدرى ماذا قرأت ، ولكنى شعرت بعد نوبة من الذهول انى شردت . والكتاب فى يدى ، عابرة الدهليز المؤدى الى الجناح الخارجى ، وأصبحت واقفة الى جانب نافذة تطل على الشرفة الملاصقة لصف الحجرات على الجانب المقابل من المستطيل . وشعرت ان واحدة من هذه الحجرات قد عبرت الى شاطىء آخر ، وقارب التعدية لم يعد يعمل . وشعرت انى شبح لنفسى التى كنتها قبل يومين ، مقضى على أن أظل حيث أنا ولست هناك فى الحقيقة ، ناظرة أبدا الى بعيد نظرة فارغة .

وفيما أنا واقفة هناك رأيت سنديب يخرج من حجرته الى الشرفة وفى يده صحيفة . واستطعت أن أرى على سيماه قلقا غير

عادي وكأنما كان الفناء والحاجز الحديدى أمامه يثيران غضبه ، فألقى الصحيفة بعيدا فى حركة كأنها تريد أن تمزق الفضاء أمامه.
وشعرت انى لم أعد أستطيع البر بقسمى ، وكنت موشكة أن أمضى نحو حجرة الجلوس حين وجدت سلفتى خلفى . صاحت وهى تدلف مبتعدة : « رباه ! لم يبق الا هذا ! » ولم أستطع أن أتقدم الى الجناح الخارجى .
وعندما جاءت وصيفتى تنادى فى الصباح التالى : « يا أمنا الرانى ، لقد حان الوقت لاخراج المئونة » ألقيت اليها بالمفاتيح قائلة : « قولى لهاريماتى تتولى الأمر » ، ومضيت أعمل فى قطعة من التطريز انجليزية الرسم كنت متشاغلة بها ، وأنا جالسة قرب النافذة .
ثم جاء خادم برسالة. قال : «من سنديب بابو» . يا للجسارة ! ماذا عسى أن يظن الرسول ؟ كانت فى صدرى رعشة وأنا افض الغلاف . لم يكن على الرسالة عنوان ، ولم يكن فيها الا هذه الكلمات : « أمر عاجل – يتعلق بالقضية . سنديب » .
القيت بالتطريز جانبا ، وفى لحظة كنت على قدمى ، أسوى شعرى فى المرآة بلمسة أو لمستين . وابقيت « السارى » الذى كان على ، ولم أغير الا مئزرى – فقد كان لأحد مآزرى ذكريات.
وكان طريقى على شرفة تعودت سلفتى أن تجلس فيها صباحا تشقق جوز « التنبول » (١) فلم أتهيب ، وصاحت : الى أين ياتشوتا رانى ؟
– الى حجرة الجلوس فى الخارج .
– فى هذا الوقت المبكر ؟ « ماتينيه » ؟ هه ؟
وبينما كنت أمر دون أن أرد ثانية ، دندنت من ورائى بأغنية خليعة .

– ٩ –

بينما كنت مقبلة على حجرة الجلوس رأيت سنديب عاكفا على دليل مصور للوحات الاكاديمية البريطانية ، وظهره الى الباب ، وكان يعد نفسه خبيرا فى أمور الفن .
وذات يوم قال له زوجى : « اذا احتاج الفنانون الى معلم فلن يعوزهم وأنت موجود » . ولم يكن من عادة زوجى أن يسخر ،

(١) نوع من الافاويه . (المترجم) .

ولكنه تغير فى الايام الاخيرة ، ولم يعد يتجاوز لسنديب عن شيء .

ورد سنديب : ما الذى يجعلك تظن ان الفنانين غير محتاجين الى معلمين ؟

فأجاب زوجى : الفن خلق . فينبغى ان نقنع شـاكرين بتلقى دروسنا عن الفن من عمل الفنانين .

فضحك سنديب من هذا التواضع قائلا : انت تحسب الخشوع رأس مال يزيد ثروتك كلما استعملته . ويقينى أن من تعوزهم الكبرياء يطفون كأعشاب الماء التى لا جذور لها فى الارض .

وكانت نفسى تحفل بالمتناقضات حين يتكلمان على هذا النحو . فأنا شديدة الرغبة فى أن يفوز زوجى فى المناقشة وتستخذى كبرياء سنديب ، ولكن كبرياء سنديب هى التى تجتذبنى مع ذلك أيما اجتذاب . كانت تنير كماسة ثمينة لا تعرف الخجل ، بل تتألق فى وجه الشمس نفسها .

دخلت الحجرة . وكنت أعلم أن سنديب يستطيع أن يسمع وقع خطاى وأنا أتقدم ، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع ، وأبقى عينيه على الكتاب .

وكنت أخاف أحاديثه عن الفن ، لأنى لا أستطيع التغلب على حساسيتى نحو الصور التى يتحدث عنها ، والاشياء التى يقولها ، وكان يشق على أن أتكلف الجمود لأخفى ألمى . لهذا كنت موشكة أن أعود أدراجى حين رفع سنديب عينيه وهو يزفر زفرة عميقة ، وتظاهر بالدهشة لرؤيتى وقال : آه لقد جئت !

كان فى كلماته ونبرته وعينيه عالم من اللوم المكتوم ، وكأن حقوقه التى اكتسبها على جعلت غيابى ــ ولو يومين أو ثلاثة ــ ظلما بليغا .

وعرفت أن فى هذا المسلك اهانة لى ، ولكنى ــ ويا للأسف ! ــ لم أجد القوة لأستنكره .

لم أجب ، ولكنى وان نظرت الى جهة أخرى لم استطع أن أفر من الشعور بأن نظرة سنديب الشاكية لا تبرح وجهى ، ولن تقبل حرمانا . وتمنيت لو يقول شيئا ما ، حتى أستطيع الاحتماء خلف كلماته . ولست أدرى كم استمر ذلك ، ولكنى اخيرا لم أطق احتماله ، فسألت : ما هذا الأمر الذى تريد أن تحدثنى عنه ؟..

وتظاهر سنديب بالدهشة مرة أخرى وهو يقول : أمن اللازم أن

يكون هناك دائما أمر ما ؟ هل الصداقة بذاتها جريمة ؟ أوه يا ملكتى ! كيف تستخفين بأعظم ما على الارض ! هل تطرد عبادة القلب وكأنها كلب ضال ؟

ومرة أخرى شعرت بتلك الرغبة فى باطنى . كان فى استطاعتى أن أحس باقتراب الأزمة ، ملحة بحيث يمكن ارجاؤها . تنازع السيادة فرح وخوف . سألت نفسى : هل تستطيع كتفاى احتمال صدمتها ، أم تتركنى طريحة ووجهى فى التراب ؟

كان جسمى كله يرتعد . وتماسكت بجهد وكررت : لقد دعوتنى لأمر يتعلق بالقضية ، فتركت واجبات بيتى لأنظر فيه .

قال بضحكة جافة : هذا ما كنت أحاول شرحه . ألا تعلمين أنى اجىء لأعبد ؟ الم أخبرك انى أتمثل فيك روح بلادنا ؟ انجغرافية بلد ما ليست كل الحقيقة ؟ لا أحد يمكنه أن يهب حياته لخريطة ! عندما أراك أمامى ، هنالك فقط أدرك كم أن بلادى جميلة . عندما تمسحيننى بيديك سوف أعلم أن بلادى باركتنى ، فاذا سقطت فى الصراع وهذه البركة فى قلبى فلن يتلقانى تراب أرض تصورها الخرائط . بل ثوب نسائى منشور بحب . أتعلمين أى ثوب ؟كذلك السارى الداكن الحمرة الذى كنت تلبسينه بالامس ، ذى الحاشية الحمراء بلون الدم . هل أستطيع نسيانه أبدا ؟ مثل هذه الرؤى تمنح الحياة قوة ، والموت فرحا !

اشتعلت عينا سنديب وهو يتكلم ، ولكننى لم أر أكانت نار العبادة أم نار الانفعال . وتذكرت يوم سمعته يتكلم لأول مرة فلم استطع أن أحكم أشخص هو أم شعلة حية .

لم أجد القوة لأنطق بكلمة واحدة . انك لا تستطيع أن تحتمى بأسوار الاحتشام حين تثب النار فى لحظة لتدمر كل خزائن البخيل بلمعان سيفها وزئير ضحكها . وخفت أن ينسى نفسه ويمسك يدى ، فقد كان يهتز كلسان مرتعش من نار ، وعيناه تمطراننى بشواظ محرق .

صاح بعد وقفة : أعازمة أنت أبدا ان تتخذى واجبات بيتك التافهة آلهة ، وأنت التى فى يدك أن تبعثينا الى الحياة أو الى الموت ؟ هل يجب أن تحجب قوتك هذه فى « زينانا » ؟ أضرع اليك أن تطرحى كل ادعاء للخجل بعيدا ، وتهزئى بالهمس الذى يحيط بنا وتقتحمى اليوم حرية العالم الخارجى .

عندما تمتزج فى دعوات سنديب عبادته للوطن بعبادته لى —

هنالك يرقص دمى حقا ، وتترنح أسوار ترددى . ان أحاديثه عن الفن والجنس وتمييزه بين الواقع والزيف ، لم تكن الا أقذاء منعت ـ بقبحها الكريه ـ ما هممت به من الاستجابه . ولكن هذه العبادة تشتعل الآن مرة أخرى بوهج يذوب أمامه اشمئزازى. شعرت ان طبيعتى النسائية المتألقة تجعلنى الهة حقا . فلماذا لايشرق مجدها من جبينى بلألاء تجتليه العيون ؟ لماذا لا يجد صوتى كلمة ، صيحة مسموعة ، تكون رقية مقدسة لبلادى وهى تقتحم نار التطهير ؟

فجأة اندفعت وصيفتى « خيما » الى الحجرة مشعثة صائحة : اعطينى أجرتى ودعينى أذهب . أبدا فى حياتى ما رأيت ..

وغرق باقى كلامها فى الدموع .

ـ ماذا جرى ؟

فظهر أن « ثاكو » وصيفة البارارانى قد سبتها سبا قبيحا بدون سبب . وعبثا حاولت تهدئتها بقولى انى سأنظر فى الأمر فيما بعد.

لقد طفا وحل الحياة البيتية الراقد تحت شط اللوتس ، وكان لابد أن أسرع داخلة حتى لا يطيل سنديب النظر اليه .

ـ ١٠ ـ

كانت سلفتى عاكفة على جوزها ، يحوم حول شفتيها شبح ابتسامة ، وكأن شيئا لم يكن . وكانت لا تزال تدندن نفس الأغنية فانفجرت صائحة : لماذا شتمت خادمتك ثاكو خيما المسكينة ؟

ـ حقا : الملعونة ! سأجعلهم يكنسونها من المنزل بمكنسة . يا للخجل ! تفسد عليك زيارتك الصباحية هكذا ؟ وخيما ؟ أين أدب هذه البنت حين تذهب وتزعجك وانت مشغولة ؟ على كل حال لا تشغلى نفسك بمشاجرات الخدم ياتشوتا رانى ، دعيها لى وعوذى الى صديقك .

ما أسرع ما تتحول الرياح فى قلوع عقولنا ! لقد بدا خروجى لمقابلة سنديب فى ضوء قانون « الزينانا » أمرا شاذا خارقا للعادة ، حتى اننى ذهبت الى حجرتى وانا لا أدرى بماذا أجيب . وأدركت ان سلفتى هى التى دبرت الأمر ، وحرضت خادمتها لتثير هذه المشاجرة ، ولكننى كنت فى حالة من الاضطراب لم أجرؤ معها على الرد .

أجل ، لقد تبينت منذ أيام قليلة انى لا أستطيع المضى الى

النهاية فى كبريائى العنيدة حين طلبت من زوجى أن يفصل الرجل نانكو . وشعرت بالخجل فجأة حين جاءت البارا رانى وقالت : « اننى أنا المخطئة يا أخى العزيز . نحن ناس من النـــوع القديم وأحوال صديقك ســنديب بابو لم تعجبنى ، فأمرت الحارس .. ولكن من أين أعلم أن تشوتا رانى ستعد هذا اهانة ــ كنت أظن العكس ! هى بلاهتى التى لايمكن اصلاحها ! » .

ان الشىء الذى يبـــدو مجيدا مجيدا حين ينظر اليه من قمم القضية الوطنية ، يبدو موحلا حين ينظر اليه من القاع . فى أول الأمر نغضب وبعد ذلك نشمئز .

حبست نفسى فى حجرتى ، وجلست الى النافذة أفكر كم تغدو الحياة سهلة لو استطاع الانسان أن يعيش فى تناغم مع ما يحيط به . بأى يسر تجلس الرانى الـكبرى فى شرفتها مع جوزها ، وكم أصبح مقعدى الطبيعى بجانب واجباتى اليومية عسيرا على ! وسألت نفسى : ألام ينتهى كل هذا ؟ هل أفيق يوما وأنسى كل شىء ، كما لو كنت فى بحران ، أم أسحب الى أعماق لا نجاة منها فى هــذه الحياة ؟ وانى استطعت أن أضيع طالعى الحسن ، وأفسد حياتى هذا الفساد ؟ ان كل حائط فى مخدعى هذا الذى دخلته عروسا منذ تسع سنين يحدق فى مذعورا .

عندما عاد زوجى الى البيت بعد امتحان الماجستير أحضر لى شجرة « الاوركيد » هذه التى تنتسب الى بلد بعيد وراء البحار. ومن تحت هذه الاوراق الصغيرة القليلة نبع شلال من الزهر كأنما كان يصب من كأس جمال مقلوبة . وقررنا معا أن نعلقها هنـــا فوق هذه النافذة . أنها لم تزهر غير تلك المرة ، ولـكننا ظللنا نأمل أن تزهر مرة أخرى . والعجيب انى واظبت على ســقيها فى هذه الأيام بحكم العادة وأنها لا تزال خضراء . مضت أربع سنوات منذ صنعت اطارا من العاج لصورة زوجى ووضعته فى تلك الفجوة. اذا حانت منى نظرة الى تلك الناحيــة فلابد أن أنكس عينى . حتى الاسبوع المــاضى كنت أضع هنـــاك زهور عبادتى دائما كل صباح بعد الحمام ، وكثيرا ما وبخنى زوجى على هذا ، ويوما قال لى : انى أخجل اذ أراك ترفعيننى الى مكان لا أستحقه .

ــ هذا غير صحيح !..

ــ لبست خجلا فقط ، بل أنا أيضا غيران !

ــ ماذا تقول ؟ وممن تراك غيران ؟

ـ من هذه الصورة الـكاذبة لى . انها لا تدل الا على انى أتفه مما ينبغى لك ، وأنك تريدين رجلا خارقا يستحوذ عليك بسطوته، ولهذا لابد لك أن تلجئى الى اصطناع صورة أخرى منى .

قلت : مثل هذا الـكلام يغضبنى .

فأجاب : ولمـاذا تغضبين منى ؟ لومى نصيبك الذى لم يدع لك خيارا ، بل جعلك تأخذيننى مغمضمة العينين . فهذا ما يجعلك تدأبين على اصلاح غلطته بأن تصنعى منى مثالا للـكمال .

وساءتنى هذه الفكرة وحدها حتى ان الدموع جالت فى عينى ذلك اليوم . وكلما فـكرت فى ذلك الآن لم أستطع أن أرفع عينى الى الفجوة .

فثمة الآن صورة أخرى فى صندوق حليى . منذ أيام كنت أرتب حجرة الجلوس فأخذت ذلك الاطـار المزدوج الذى يضم صـورة سنديب وصورة زوجى . اننى لا أقدم لهذه الصورة زهور العبادة ولـكنها تبقى مخبوءة تحت جواهرى ، ولها مزيد من السحر لأنها تبقى سرا . اننى أنظر اليها بين الحين والحين والابواب مغلقة . وبالليل أضىء المصباح ، وأجلس وهى فى يدى أنظر وأنظر ، وكل ليلة أفكر فى أن أحرقها فى شعلة المصباح لأخلص منها الى الأبد ، ولـكنى كل ليلة أتنهد وأكتمها ثانية بين لآلئى وماساتى .

يالك من امرأة تعيسة ! أى ثروة من الحب لفت حول كل واحدة من هذه الجواهر ! أوه ، لماذا لا أموت ؟

لقد أوحى الى سنديب أن التردد ليس من طبيعة المرأة . ليس لليمين ولا للشمال وجود عندها ، فهى انما تتحرك الى الأمام . وكان يكرر ويلح أن نسـاء بلادنا متى استيقظن فسوف يكون صـوتهن ثابتا واثقا اذ يصيح : « أريد .. » .

ومضى سنديب يقول ذات يوم : « أريد ! » هذه كانت الكلمة الاولى عند بدء الخليقة . لم يكن لديها حكمة تسترشد بها ، ولكنها أصبحت نارا وصنعت من نفسها شموسا ونجوما . انها مخيفة اذ تحابى فلرغبتها فى الانسـان لم تبال ان ضحت بملايين الوحوش ملايين السنين لتحقق تلك الرغبة . هذه الـكلمة المخيفة « أريد » قد تجسمت فى المرأة ولهذا يحاول الرجال الجبناء بكل قوتهم أن يحجزوا هذا الفيضان الابدى بسدودهم الطينية ، فهُم يخافون أن يكسح فى طريقه الضاحك الراقص كل سياج وعماد فى حقل القرع الذى زرعوه . يقول رجال كل عصر لأنفسهم راضين . انهم قد

كبحوا هــذه القوة داخل حدود منافعهم ولــكنها تتجمع وتنمو . انها الآن ساكنة عميقة كالبحيرة ، ولــكن ضغطها سيزداد شيئـــا فشيئا ، وستنهار السدود ، وتندفع القوة التى ظلت خرساء هذا الأمد الطويل صائحة ، زائرة : « أريد ! » .

ان كلمات سنديب هــذه ليتردد صداها فى دقات قلبى كطبلة حرب. انها لتفحم كل صراعاتي مع نفسي. ماذا على مما يقوله الناس عنى ؟ ما قيمة تلك الاوركيدة وتلك الفجوة فى مخدعى ، أى سلطان لها حتى تحقرنى وتزدرينى ؟ ان نار الخلق الابدية تشتعل فى .

شعرت برغبة عاتية فى أن أنتزع الاوركيدة وأرميها من النافذة ، وأجرد الفجوة من صورتها ، وأكشف عن روح التدمير الجسور التى هاجت فى باطنى . وارتفعت ذراعى لأفعل ذلك ، ولكن شكة مفاجئة اخترقت صدرى ، وجالت الدموع فى عينى ، فارتميت منتحبة : « ما آخر كل هذا ؟ ما آخر كل هذا ؟ » .

حكاية سنديب

– ٤ –

حين أقرأ هذه الصفحات من قصة حيــاتى أسأل نفسى جادا : أهذا سنديب ؟ أمجبول أنا من كلمات ؟ أما أنا غير كتاب له جلد من لحم ودم ؟

ان الارض ليست شيئا ميتــا كالقمر . انها تتنفس . أنهارها ومحيطاتها تبعث الأبخرة التى تكتسى بها . وعليها عباءة من غبارها الذى يطير فى الهواء . والناظر الى الارض من خارج لا يمكنه أن يرى الا النور الذى يعكسه هــذا البخار وهــذا الغبار فجدد القارات العظائم لاتبين .

والانسان الحى كهذه الارض مغلف مثلها أبدا بضبابة الافــكار التى يتنفسها . فأرضه وماؤه الحقيقيان يبقيان محجوبين ، ويبدو انه لم يصنع الا من أضواء وظلال .

لــكأنى فى قصة حياتى هذه كوكب حى ، أبدى صورة عالم مثالى. ولــكننى لست ما أريده وما أفكر فيه فحسب ــ بل أنا أيضا ما لا أحبه ولا أريد أن أكونه . وقد بدأ خلقى قبل أن أولد ، ولم يكن لى خيار فيما يحيط بى ، ولهذا يجب أن أحسن الانتفاع بما يقع فى يدى .

ان نظريتى فى الحياة تجعلنى على يقين أن العظيم قاس . أن تكون عادلا فذلك ما يصلح للرجال العاديين ، أما العظماء فقد خصــوا بالظلم . كان سطح الارض مستويا فضربه البركان بقرنه النارى وبرز بروزه ــ لم يكن عادلا مع ما عاقه ولــكنه كان عادلا مع نفســه . والظلم الناجح والقسوة الاصيلة هما القوتان الوحيدتان اللتان يصبح بفضلهما الفردُ أو المجموع مليونيرا أو ملــكا .

لهذا أدعو الى المبدأ العظيم ، مبدأ الظلم . وأقول لــكل أحد : الخلاص قائم على الظلم . الظلم هو النار التى يجب أن تكون دائما

فى احراق شيء حتى تنفذ نفسها من أن تصير رمادا . وكلما عجز فرد أو أمة عن ارتكاب الظلم جرفا الى مزبلة العالم .

على ان هذه لا تزال فكرتى فقط . فهى ليست نفسى كاملة . وهناك شقوق فى الدرع يطل منها شيء شديد الطراوة ، شديد الحساسية . لأن الجزء الاكبر من نفسي ـ كما قلت ـ مخلوق من قبل أن آتى الى هذا الطور من أطوار الوجود .

اننى أختبر أتباعى ، من حين الى حين ، فى درس القسوة الذى تعلموه . ذات يوم خرجنا فى رحلة . وكانت ثمة عنزة ترعى. فسألتهم : من منكم يقدر أن يقطع ساقا من هذه العنزة وهى حية بهذا السكين ويحضرها الى ؟ ولما ترددوا جميعا ذهبت أنا وفعلت ذلك ففشى على أحدهم ، ولكنهم حين رأونى لم أتأثر مسحوا التراب عن قدمى قائلين اننى فوق كل ضعف بشرى . ومعنى ذلك انهم رأوا فى ذلك اليوم غلاف البخار الذى هو فكرتى ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلمحوا نفسى الباطنة ، التى شاءت نزوة غريبة من نزوات القدر أن تخلق رقيقة رحيمة.

هناك أيضا أشياء كثيرة لا تزال ترقد مختفية فى هذا الفصل الحاضر من قصة حياتى ، حيث يزداد الاهتمام كل يوم ببيمالا ونيكهيل . ان مرض الافكار الذى أعانيه يشكل حياتى الباطنة ، غير أن قسما كبيرا من حياتى لايزال خارجا عن تأثيرها ، ولذلك يقوم نوع من التنافر بين حياتى الخارجية وشكلها الداخلى الذى أحاول جهدى أن أبقيه مختفيا عن نفسى ، حتى لا يحطم خططى ، بل حياتى نفسها .

ان الحياة غير محدودة ـ انها حزمة من المتناقضات . ونحن البشر نجاهد بأفكارنا لنعطيها شكلا معينا بأن نصهرها فى قالب معين ، هو قالب النجاح المحدود . فكل غزاة العالم من الاسكندر الى أصحاب الملايين الامريكيين يطبعون من أنفسهم سيفا أو دارا لسك النقود ، وبذلك يجدون تلك الصورة الواضحة من أنفسهم ، التى هى مصدر نجاحهم .

والخلاف الرئيسى بينى وبين نيكهيل ينبع من هذا : انه وان قلت : « اعرف نفسك » كما يقول نيكهيل : « اعرف نفسك » ، فتفسيره يجعل هذه « المعرفة » مساوية « لعدم المعرفة » .

اعترض على نيكهيل مرة قائلا : ان كسب النجاح الذى تريده لنجاح تغرم الروح ثمنه . ولكن الروح أعظم من النجاح .

فلم أزد فى جوابه على أن قلت : ان كلماتك مسرفة الغموض.

فأجاب نيكهيل : لا حيلة لى فى ذلك . ان الآلة واضحة ، ولا كذلك الحياة . ان أردت أن تعرف الحياة على أنها آلة لتنال الوضوح فمثل هذا الوضوح المجرد لا يقوم مقام الحقيقة . ان الروح ليست واضحة كوضوح النجاح ، ولذلك فأنت لا تزيد على أن تخسر روحك حتى تلتمسها فى نجاحك .

ــ وأين اذن هذه الروح العجيبة ؟

ــ حيث تعرف نفسها فى اللامحدود ، وتسمو فوق نجاحها .

ــ ولكن ما علاقة هذا كله بعملنا من أجل البلاد ؟

ــ ان الأمر واحد . حيث تجعل بلادنا نفسها هى الغرض النهائى تكسب النجاح على حساب الروح . وحيث تعترف بالأكبر على انه أكبر من كل شىء فهناك قد لا تصيب النجاح ولكنها تكسب روحها .

ــ أفى التاريخ مثل على هذا ؟

ــ ان عظمة الانسان تجعل فى مقدوره أن يزدرى لا التاريخ وحده بل المثل أيضا . لعل المثل غير موجود كما انه لا مثل للزهرة الكامنة فى البذرة . ولكن اندفاع الزهرة قائم فى البذرة على كل حال .

ليست القضية انى لا أستطيع أن أفهم وجهة نظر نيكهيل فهما ما : بل ان الخطر يكمن هنا . لقد ولدت فى الهند ، وان سم روحانيتها ليجرى فى دمى ، ومهما أرفع صوتى معلنا جنون السير فى طريق انكار الذات فانى لا أستطيع أن أبتعد عنه كل الابتعاد.

هكذا تحدث مثل تلك الشواذ الغريبة فى بلادنا اليوم . يجب أن يكون لنا ديننا ووطنيتنا فى الوقت نفسه . « بهاجا فادجيتا » و « باندى ماترم » . والنتيجة هى الضرر لكليهما . كما تعزف فرقة موسيقى عسكرية انجليزية بجانب أنابيبنا الهندية . يجب أن أجعل غرض حياتى هو القضاء على هذا الخلط الفظيع .

أريد أن يسود الطراز العسكرى الغربى لا الطراز الهندى . واذن لا نخجل من راية انفعالنا التى أرسلتها معنا أمنا الطبيعة لتكون علمنا فى معركة الحياة . الانفعال جميل ونقى . نقى كالزنبقة التى تطلع فى الوحل . انها تستعلى على أوضارها ولا تحتاج الى صابون لتنظيفها .

- ٥ -

كان يقلقنى فى الايام القليلة الماضية سؤال : لماذا أدع حياتى تتشابك مع حياة بيمالا ؟ أخشبة تائهة أنا ليستوقفنى كل عائق ؟

ليس الأمر أمر خجل زائف أن تكون بيمالا هدفا لرغبتى . انها تريدنى ولا خفاء بذلك ، ولذا أعدها لى حقا مشروعا . ان الثمرة تتدلى على غصن بجانب الجذع ، ولكن ذلك لا يصلح سببا لأن يدعيها الجذع لنفسه أبدا . ولن تبقى الثمرة الناضجة الى الأبد تقسم بقبضة جذعها المتراخية . لقد تجمعت كل حلاوتها من أجلى، واستسلامها ليدى هو علة وجودها وكنه طبيعتها، وصريح خليقتها. واذن فيجب أن أقطفها ، لأنه لا يجدر بى أن أجعلها تذهب عبثا .

على ان الذى يغيظنى هو انى بدأت أتخبط . ألم أولد لأحكم ؟ لأركب جوادى الحقيقى ، الجماهير ، وأسوقه كيف أريد ، العنان فى يدى ، والغاية معروفة لى وحدى ، وله الشوك والوحل على الطريق ؟ هذا الجواد ينتظرنى الآن عند الباب ، يفحص بقدميه ويعلك لجامه ، وصهيله يملأ السماء ولكن أين أنا ، وبم أشتغل، تاركا الفرصة الذهبية تمر يوما بعد يوم ؟

كنت أفكر أنى أشبه عاصفة ، وان الزهورالممزقة التى نثرتها على طريقى لن تعوق قدمى . ولكننى لا أنفك أدور حول زهرة واحدة كأنى نحلة لا عاصفة . اذن فلون الافكار الذى يعطيه المرء لنفسه ليس الا شيئا ظاهريا كما قلت من قبل . والانسان الجوانى يظل عاديا كشأنه أبدا . ولو جاء انسان ليكتب سيرتى ، وعرف دخيلة نفسى ، لجعلنى لا أختلف عن ذلك الاحمق بانشو ، بل ولا عن نيكهيل .

كنت فى الليلة البارحة أقلب صفحات يومياتى القديمة .. اننى حديث عهد بالتخرج ، رأسى يوشك أن ينفجر من الفلسفة . وحتى فى ذلك العهد المبكر كنت قد آليت على نفسى الا أستسلم لوهم من الأوهام ، سواء أكان من صنعى أم من صنع غيرى ، بل أبنى حياتى على أساس مكين من الواقع . ولكن ماذا كانت قصتها الحقيقية من بعد ؟ أين بناؤها المكين ؟ لقد كانت أقرب الى شبكة ، ان اتصلت خيوطها فمعظم مساحتها ثقوب . ومهما أحارب فلن تعرف هذه بالهزيمة . هأنذا قد وقعت فى شرك ثقب بينما كنت أهيىء نفسى بأنى أسير مستقيما على الخيط ! لقد أصبحت عرضة لتأنيب الضمير .

« أنا أريد هذا الشيء ، وهو هنا ، فلآخذه » . ان هذه سياسة صريحة محددة ، من يتبعها بهمة فلابد أن يكسب اخيرا . ولكن الآلهة لايريدون أن تكون مثل هذه الرحلة سهلة ، ولذلك أوقدوا حورية البحر « الشفقة » لتضل المسافر ، لتغشى بصره بضبابها الباكى .

لايغيب عنى ان بيمالا تصارع كظبية فى الحبائل . أى خوف يستدر العطف فى عينيها ! وكم يمزقها الجهد اذ تحاول التخلص من قيودها ! نعم . ان هذا المنظر ينبغىأن يسر قلب الصياد الحقيقى: وانى لمسرور ، ولكنى أشعر بالاشفاق أيضا ، ولهذا أضيع الوقت ، وأقف على الحافة مترددا فى أن أجذب الانشوطة لتزداد اطباقا .

أعلم ان لحظات مرت كان يمكننى فيها أن أهجم عليها وأمسك يديها وأضمها الى صدرى دون أن تقاوم . ولو فعلت ذلك لما قالت كلمة واحدة . فقد كانت تعلم أن ثمة أزمة تقترب لتغير معنى العالم كله فى لحظة . وكان وجهها يشحب وعيناها تومضان بنشوة مخيفة وهى واقفة أمام ذلك الكهف ، كهف المجهول الذى لا يمكن تقديره وان كان منتظرا . حين تجىء تلك اللحظة يتشكل فيها أبد ، ينتظر مصيرنا ممسكا أنفاسه .

ولكننى تركت تلك اللحظة تمر . لم أحول ، بقوة نافذة ، ما يوشك أن يكون يقينا الى قضاء مبرم . وانى لا أرى الآن فى وضوح أن ثمة عناصر خفية فى طبيعتى قد احتشدت جهرة لتعوقطريقى .

هكذا لقى « رافانا » حتفه ، وهو فى نظرى البطل الحقيقى « للرامايانا » ، فقد استبقى « سيتا » فى جنة آسوكا منتظرا آية رضاها ولم يأخذها على الفور الى حريمه . ان هذا المغمزالوحيد فى شخصيته العظيمة يجعل قصة الاختطاف كلها عبثا . ومثل هذا التورع جعله يغمض عن أخيه الخائن بيبهيسان ، ويظهر الرأفة به ، ليجد نفسه مقتولا جزاء له على مجهوده .

وهكذا تأتى المأساة فى الحياة من تلقاء نفسها . فى أول الأمر ترقد كالشيء الصغير فى قبو مظلم ، وفى آخر الأمر تهدم البناء كله . ان المأساة الحقيقية هى أن الانسان لا يعرف نفسه على حقيقتها .

ثم هناك نيكهيل . فمهما يكن من بلاهته ومهما أسخر منه فانى لا أستطيع التخلص من فكرة انه صـديقى . وقـد كنت لا أبالى بوجهة نظره فى أول الأمر ولـكنها بدأت تخجلنى وتؤذينى أخيرا . لهذا أحاول أن أكلمه وأناقشه بحماستى القديمة ولـكننى لا أجد فيها رنة الصدق، بل انها تقودنى أحيانا الى مدى من التكلف أتظاهر معه بأنى أرافقه . ولـكن مثل هذا التكلف ليس فى طبيعتى ولا فى طبيعة نيكهيل . فبيننا اشتراك فى هذه الناحية على الأقل ، ولذلك أصبحت أفضل — فى هـذه الايام — ألا ألتقى به ، وتعودت أن اتجنب محضره .

وهذه كلها آيات ضعف . فانك لا تكاد تسلم بامكان الخطأ حتى يصبح قائما ويمسك بتلابيبك مهما تحاول أن تنفض عنك كل ايمان به . والشيء الذى أتمنى لو أستطيع قوله لنيكهيل فى صراحة هو أن مثل هذه الحوادث يجب أن تواجه دون مواربة — على أنها أمور واقعية عظيمة — وان ما هو حق ينبغى ألا يسمح له بأن يقف بين صديقين .

لاريب انى قد ضعفت . ولم يكن هذا الضعف هو الذى استمال بيمالا . لقد أحرقت جناحيـــها فى لهب عنفوان رجولتى التى لا تتردد . وكلما حجب الدخان وهجها أضطربت هى وتراجعت . ثم يأتى انقلاب تام فى الشعور حتى لتود لو تسترد العقـد الذى طوقت به عنقى ، ولـكنها لا تستطيع ، فتكتفى بأن تغمض عينيها لـكيلا تراه .

ولـكننى يجب ألا أحيد عن الطريق الذى رسمته . لا يجوز أن أتخلى عن قضية البلاد أبدا ، ولا سيما فى الوقت الحاضر . فلتكن بيمالا وبلادى شيئا واحدا . ان الريح الغربية العاتية التى أزالت برقع الضمير عن بلادى ستزيل أيضا برقع الزوجة عن وجه بيمالا ولن يكون ثمة خجل فى ذلك الـكشف . وستهتز السـفينة وهى تحمـل الجمع الـكبير على المحيـط رافعة راية « باندى ماترم » وستكون مهدا لقوتى وحبى جميعا .

سترى بيمالا صورة للخلاص فيهـا من الجلال ما يجعل قيودها تنزلق عنها بلا خجل ، بل دون أن تشعر بها . سيسحرها جمـال هذه القوة المخربة المخيفة فلا تتردد لحظة فى أن تكون قاسية . لقد رأيت فى طبيعة بيمالا تلك القسوة التى هى القوة الـكامنة فى

الوجود ، تلك القسوة التى تبقى على الحياة جمالهـا بما لها من قوة لا تلين .

لو حررت النسـاء من الاغلال المصنوعة التى وضـعها الرجال حولهن لرأينا على الارض الصورة الحية « لـكالى » تلك الالهة التى لا تخجل ولا ترحم . اننى من عبدة كالى ، وسأتعبد لها حقا فى يوم من الايام واضعا بيمالا على مذبح تخريبها . فلأتأهب لذلك.

ان طريق التراجع مسـدود أمام كلينا . سـنتناهب ونتباغض ولـكننا أبدا لن نعود أحرارا .

الفصل الخامس

حكاية نيكهيل

– ٤ –

كل شيء يرتكض ويتموج فى فيض آب . شطء الأرز له نضرة أطراف طفل رضيع ، والماء قد غزا الحديقة المجاورة لمنزلنا ، ونور الصباح يهراق على الارض كأنه حب السماء الزرقاء ، فلماذا لا أقدر أن أغنى ؟ ماء النهر البعيد يرعش النور ، وأوراق الاشجار تتلألأ ، وحقول الأرز تنتابها رعدات فيندلع منها لمعان الذهب ، وفى سيمفونية الخريف هذه لايبقى صامتا الا أنا. ان اشراق العالم يصيب قلبى ولكنه لا ينعكس منه .

وحين أدرك عجزى عن الافصاح أعلم سبب حرمانى . فمنذا الذى يستطيع أن يتحمل صحبتى ليل نهار بغير انقطاع ؟ ان بيمالا منعمة بطاقة الحياة ، ولهذا لم أجدها تافهة قط فى لحظة واحدة طوال هذه السنوات التسع من زواجنا . أما حياتى فليس لها الا أعماقها الخرس ولكن دون همهمة الجريان . فى مقدورى أن أتلقى الحركة لا أن أبعثها ، ولهذا فان صحبتى كالصوم . وانى لأدرك اليوم فى وضوح أن بيمالا كانت تذوى لجوعها الى الصحبة .

اذن فمن ألوم ؟ اننى مثل فدياباتى لا أستطيع الا أن أندب :

« آب أتى والسماء تنهل ،
وا حسرتاه ! منزلى خالى . »

وانى لأرى الآن أن منزلى قد بنى ليبقى خاليا ، فأبوابه لا يمكن أن تفتح . ولكننى لم أعلم قط قبل اليوم أن معبودته كانت تجلس فى خارجه. لقد هدهدت اليقين بأنها قبلت قربانى ، وكافأتنى بنعمتها . لكن وا حسرتاه ! ان منزلى كان خاليا أبدا .

كان من عادتنا فى مثل هذا الوقت من كل عام أن نذهب فى عوامة الى بحيرة ساملدا . وكنت أقول لبيمالا انه لابد لكل أغنية من « مذهب » يتردد كل حين ، والمذهب الاصيل لكل أغنية هو فى الطبيعة حيث تمر الريح المحملة بالمطر على النهر المرتكض ، وتسبغ الارض الخضراء قناعها المنمنم على وجهها لتصغى الى حديث الماء . هناك فى مطلع الزمان التقى رجل وامرأة ، لم تحجبهما جدران . وهناك يجب أن نرجع نحن الاثنان الى الطبيعة ، على الاقل مرة كل عام ، لنوقع حبنا من جديد على النغمة الصافية الاولى لالتقاء قلبين .

لقد قضيت العيدين الاولين لذكرى زواجنا فى كلكتا حيث كنت أؤدى امتحانى. ولكننا لم ننقطع طوال السنوات السبع التالية عن الاحتفال بقراننا بين زهور النيلوفر المتفتحة . والآن يبدأ المقطع التالى فى حياتى .

كان من العسير على أن أتجاهل ان شهر آب نفسه قد عاد من جديد هذا العام . ترى هل تذكره بيمالا ؟ انها لم تذكرنى به. وكل شىء حولى صامت .

« آب أتى والسماء تنهل ،
وا حسرتاه ! منزلى خالى . »

ان المنزل الذى خلا بافتراق الحبيبين تظل فى قلب فراغه موسيقى . ولكن المنزل الذى خلا لأن القلبين انقسما يكون مخيفا فى صمته . حتى صرخة الألم لا مكان لها هناك .

صرخة الألم هذه يجب أن أسكتها فى ، فلن تعرف بيمالا الحرية الحقيقية ما بقيت أتعذب ، ويجب أن أحررها تماما والا فلن أنال أنا حريتى من الزيف ..

أحسبنى قد أوشكت أن أفهم شيئا واحدا ، ان الانسان قد أذكى شعلة الحب بين الرجال والنساء حتى جعلها تتجاوز مجالها الحق ، وهو الآن عاجز عن أن يعيدها الى سيطرته ولو باسم الانسانية نفسها . ان عبادة الانسان قد جعلت من عاطفته صنما ، ولكن يجب ألا نقدم قرابين انسانية جديدة على مذبح ذلك الصنم.

دخلت مخدعى هذا الصباح لأحضر كتابا . ولم أكن قد دخلته بالنهار منذ زمن طويل ، فسرت فى وخزة ألم وأنا أجيل النظر فيه اليوم فى ضوء الصبح . كان على رف الملابس « سارى » لبيمالا ، مهيأ للبس ، وعلى منضدة الزينة عطورها ومشطها

ودبابيس شعرها ، ومعها ـ لايزال صندوق الدهان الفانى ! وأسفل منها كوثها الصغير الموشى بالذهب .

وكنت فى الايام الخالية قد أحضرت هذا الكوث لبيمالا من لكنو لأغريها به حين لم تكن قد تغلبت بعد على كرهها للأحذية : وفى المرة الاولى كادت تهوى خجلا أن تخرج به ولو من الحجرة الى الشرفة وقد أبلت بعد ذلك أحذية كثيرة ، ولكنها حافظت على هذا الزوج. وحين أريتها الكوث لأول مرة قلت لها مازحا : لقد ضبطتك تمسحين التراب عن قدمى وأنت تحسبيننى نائما ! اليك قربان عبادتى ليمنع التراب قدمى معبودتى الساحرة . » .

فقالت مستنكرة : « يجب الا تقول مثل هذا الكلام . والا فلن ألبس أحذيتك .! »

ان مخدعى هذا له جو خفى ينفذ الى قلبى . وما شعرت قط مثلما أشعر اليوم كيف يبعث قلبى الظامى جذوره لتلتف حول كل قطعة مألوفة ، وانى لأرى قطع الجذر الاصلى غير كاف لأن يطلق للحياة حريتها ، فحتى هذا الكوث الصغير يشد المرء الى الوراء .

وتقع عيناى السائحتان على الفجوة . صورتى هناك تنظر كما كانت تنظر دائما ، وان كانت الزهور المنثورة حولها قد ذبلت واسودت ، أشعر بالصدق فى تحيتها وحدها دون سائر الاشياء التى فى الحجرة . انها لم تبق هنا الا اهمالا لأمر ازالتها . لابأس ، فلأرحب بالصدق وان جاء فى هذا الرداء الكالح الكئيب ، ولأتطلع الى الوقت الذى أستطيع فيه أن أرحب ولا أهتز كما ترحب صورتى.

بينما كنت واقفا هناك جاءت بيمالا من خلفى . فحولت عينى من الكوة الى الرفوف مسرعا وأنا أتمتم : « جئت لآخذ يوميات آميل » . فيم التطوع بتفسير ؟ لقد أحسست انى مذنب واغل ، أتدسس الى سر لايراد أن أطلع عليه . ولم أستطع أن أنظر الى وجه بيمالا بل أسرعت خارجا .

- ٧ -

كنت قد اكتشفت أن تظاهرى بالقراءة فى حجرتى الخارجية عبث وانه فى غير مقدورى كذلك أن أشغل نفسى بشىء ما ـ وبدا أن أيامى المستقبلة كلها سوف تتجمد فى كتلة واحدة صلبة وترزح على صدرى الى الأبد ـ عندما قدم الى بانشو الذى يعمل مزارعا عند أحد ملاك الاراضى القريبين ، ومعه سلة من جوز الهند ، وحيانى

بانحناءة عميقة فقلت : حسنا يا بانشو ، لم كل هذا ؟
وكان أستاذى هو الذى عرفنى ببانشو . كان شديد الفقر، ولم أكن أستطيع له شيئا ، فحسبته أراد بهذه الهدية أن أمنحه ما يستعين به على الحياة ، وأخرجت من كيسى شيئا من النقود مددتها اليه ولكنه أطبق يديه مستنكرا : « لا أقدر أن آخذ هذه النقود ياسيدى ! » .

— كيف ؟ ما الأمر ؟

— فلأصرح لك بالحق ياسيدى . مرة كنت فى ضائقة ، فسرقت بعض ثمار الجوز من الحديقة هنا . انى كبرت ، وقد يأتينى الموت فى أى يوم ، ولهذا جئت أردها .

لم أحظ بطائل من يوميات آميل فى ذلك اليوم ، ولكن كلمات بانشو أنعشت قلبى . ان فى الحياة أشياء كثيرة غير اجتماع رجل وامرأة أو افتراقهما . فالعالم الكبير يمتد بعيدا وراء ذلك ، ولا يستطيع المرء أن يقيس مسراته وأحزانه حقا الا حين يقف فى وسطه.

كان بانشو شديد الولاء لأستاذى . وانى لأعلم كيف يكدح ليحصل على رزقه . انه يستيقظ كل يوم قبل الفجر ويخوض فى مياه المستنقع التى تبلغ الركبتين حاملا سلة مليئة بأوراق «البان» وقطع التبغ وخيوط القطن الملونة والأمشاط والمرايا وسائر الطرف التى تحبها نساء القرى ، ويذهب الى أحياء « الناماسودرا » (١) حيث يقايض بضائعه بأرز فيحصل على مقدار أزيد قليلا من ثمنها نقودا . واذا أمكنه الرجوع مبكرا فانه يخرج ثانية بعد أن يتناول وجبة سريعة ليذهب الى بائع الحلوى حيث يساعد فى دق السكر الكعك .

ولا يكاد يعود الى داره حتى يجلس لصنع أساور الصدف . وربما استمر فى ذلك حتى منتصف الليل . وهو لا يكسب لنفسه وأسرته من كل هذا الجهد الشاق وجبتين فى اليوم الا لمدة لا تكاد تتجاوز نصف العام . وطريقته فى الأكل أن يبدأ بشربة ماء كبيرة ، وطعامه الأساسى هو أرخص أنواع الموز الهزيل ، ومع ذلك فلابد للأسرة أن تكتفى بوجبة واحدة فى اليوم بقية العام .

وفكرت مرة فى أن أجرى عليه راتبا من الصدقات ، فقال أستاذى « ان هبتك قد تقضى على الرجل دون أن تقضى على شقاء حظه . فأمنا البنغال ليس فيها بانشو واحد فقط ، واذا كان درها قد جف

(١) طائفة من الطوائف الهندية الدنيا ، مساكنهم شرق البنغال . (المترجم) .

فانه لا يمكن اجتلابه من الخارج » .

هذه أفكار تستوقف المرء ، وقد عزمت أن أعكف على درسها ، فقلت لبيمالا فى ذلك اليوم نفسه : لنهب حيـاتنا لازالة أسـباب الشقاء فى بلادنا .

فأجابت باسمة : أرى انك أميرى سيد هارتا (١) ، ولـكن لاتدع فيض مشاعرك يجرفنى معك .

ــ لقد نذر سيد هارتا نذره وحيـدا ، وأريد أن يكون ميثاقنا مشتركا .

وذابت الفـكرة فى الحديث . والحق ان بيمالا هى فى صـميمها « سيدة » كما يقولون ، وان يكن أهلهـا غير أثرياء فقـد ولدت « رانى » ، وليس يخالجها شك فى أن هناك وحدة أدنى لقيـاس شدائد « الطبقات الدنيا » ومتاعبهم . فالحاجة ، ولاريب ، صفة ملازمة لحياتهم . لـكن لا يلزم أن يكون معناها « الحاجة » بالنسبة لهم . وان فى صغرهم لحماية لهم ، كما تحمى الشواطىء البركة ، ولو اتسعت حدودها لما ظهر الا الوحل .

والأمر الثابت أن بيمالا انما جاءت الى بيتى لا الى حياتى . وقد عظمتها وتركت لها مكانا كبيرا حتى انى لما فقدتها أصبحت طريقة حياتى كلها ضيقة محصورة . لقد ألقيت كل الاشياء الاخرى فى ركن لأفسح المكان لبيمالا ، اذ كنت عليها عاكفا أزينها وألبسها وأعلمها وأدور حولها ليل نهار ناسيا أن البشرية عظيمة عظيمة ، وحيـاة الانسان ثمينة ثمينة . وعندما تستولى وقائع الاشياء اليومية على الرجل يحتجب الحق وتضيع الحرية . وقد جعلت بيمالا للوقائع المجردة قيمة بلغ من ضررها أن الحق بقى محجوبا عنى ، ولهـذا السبب لا أجد ثغرة فى شقائى ، بل أبسط نقطة الخلو الصغيرة هذه على العالم كله ، وتظل الـكلمات تدندن فى أذنى سـاعات فى هـذا الصباح الخريفى :

« آب أتى والســماء تنهـل ،
وا حسرتاه ! منـزلى خالى . »

(١) الاسم الذى عرف به بوذا وهو أمير قبل أن يتنسك (المترجم) .

حكاية بيمالا

— ١١ —

كان التغير الذى طرأ على عقل البنفال فى لحظة تغيرا عظيما . وكأن مياه الـكنج لمست رفات أبناء « ساجار » (١) الستين ألفا ، التى لم تكن لتشعلها نار ولا ليحيلها ماء آخر الى صلصال حى . وفجأة نطق رفات البنفال : « انى هنا . »

لقد قرأت فى بعض الـكتب أن مثالا فى بلاد الاغريق أتيح له أن يمنح الحياة لتمثال صنعته يداه . فى تلك المعجزة نفسـها كان التشكيل سابقا للحياة ، ولـكن أين كانت الوحدة فى تلك الـكومة من الرماد العقيم ؟ لو كانت صلدة كالحجارة لـكان لنا أن نأمل فى شكل ما ينشأ منها ، كما استردت « أهاليا » انسانيتها بعد أن مسخت حجرا ، ولـكن هذا الرماد المتناثر قد تساقط ولا شك حين الخلق لتذروه الرياح هنا وهناك . وتكوم ولم يتوحد قط من قبل . لـكن فى هذا اليوم الذى أتى على البنفـال اكتسبت تلك المجموعة المفككة شكلا ، وأعلنت عند بابنا بصوت قاصف : « انى هنا » .

كيف لا نظن أن هذا كله كان خارقا للطبيعة ؟ لـكأن هذه اللحظة من تاريخنا وقعت فى يدنا مثل جوهرة من السماء . لم تكن تشبه ماضينا فى شىء ، فحسبنا ان كل فاقتنا وشقائنا سيختفيـان بسحر ساحر ، وانه لم تبق بالنسبة لنا ثمة حـدود بين الممكن والمستحيل . بدا ان كل شىء يقول لنا : « انه آت ! لقد جاء !»

وهكذا دخل فى روعنا أن تاريخنا لا يحتاج الى جواد بل سيتحرك بقوته الداخلية كعربة السماء . على الاقل لن يلزمنا أن ندفع أجرا لسائق العربة ، فحسبنا أن نملأ كأسه بالنبيذ مرة بعد مرة ، ثم

(١) قضت اللعنة التى أحالتهم رمادا ألا يعودوا الى الحياة الا اذا أجرى اليهم نهر الكنج . (المترجم) .

نصل الى هدف آمالنا فى جنة مستحيلة .
ولم يخل زوجى من تأثر بذاك ، ولكن نغمة حزنه هى التى ظلت تعمق وتعمق خلال حماستنا كلها . وكان يبدو أنه يرى شيئا وراء الحاضر الفوار .
وأذكر أنه قال يوما فى أثناء مناقشاته المستمرة مع سنديب : ان الحظ يأتى الى بابنا ويعلن عن نفسه فيثبت عجزنا عن استقباله - اننا لم نهيىء ما عندنا لنكون قادرين على دعوته الى منزلنا .
فكان جواب سنديب : كلا . ان حديثك حديث ملحد لأنك لا تؤمن بآلهتنا . لنا قد تبين أن الآلهة جاءت بنعمتها ، ولكنك تنكر آيات حضورها .
قال زوجى : لأنى قوى الايمان بالهى أعتقد أن استعدادنا لعبادته ناقص . الله قادر على الانعام ولكننا يجب أن نكون قادرين على تلقى النعمة .
ما كان هذا الحديث من زوجى الا ليضجرنى . فما تمالكت أن أدليت بقولى : انك تحسب هذه الحماسة نار السكر فقط . أفلا يمنح بعض السكر قوة ؟
فأجاب زوجى : نعم ، قد يمنح قوة ولكنه لا يعطى سلاحا .
فمضيت قائلة : ولكن القوة منحة من الله ، أما الاسلحة فيمكن أن تقدمها الميكانيكا وحدها .
وابتسم زوجى قائلا : ستطالب الميكانيكا بأجرها قبل أن تقدم بضاعتها .
ونفخ سنديب صدره وهو يرد : لا تشغل بالك بذلك . انأجرها سيدفع .
فأجاب زوجى : سأعد موسيقى الفرح عند الدفع لا قبله .
فقال سنديب بازدراء : لا تحسبن أنا نعتمد على كرمك لنحصل على الموسيقى . ان عندنا فوق كل ما تدفعه من النقود .
وبدأ يغنى بصوته الأجش :
« حبيبى بحبه الغالى يزدرى المال .
« وبلا شيء اشترى الناى الذى يعزف ألحانه .
« فيسلب قلبى » .
ثم التفت الى مبتسما وقال : اذا غنيت يا ملكتى فلأثبت أن فقد الصوت الجميل ليس بشيء متى دخلت الموسيقى حياة المرء . عندما نغنى معتمدين على انسجام الصوت وحده نحقر

الاغنية . الآن اذ عمر بلادنا فيض من الموسيقى فليتـدرب نيكهيل على سلالمه بينما نوقظ البلاد بأصواتنا المشققة .

« يصيح بى منزلى : لمـاذا تخرج لتفقد كل شيء ؟

« وتقول حياتى : الق كل ما عندك للرياح !

« ان كان لابد أن نفقد كل شيء ، فلنفقده . فما قيمته آخر الأمر ؟

« ان طلبتى هى جرعة الموت التى تمنح الخلود »

الحق يا نكهيل اننا كلنا فقدنا قلوبنا . ولا يمكن أن يمسكنا شيء داخل حدود المسكن اليسير ، ونحن نتقدم مسرعين الى المستحيل الذى لا أمل فيه .

« من يريدون أن يجذبونا الى الخلف

« لايعرفون فرحة الاندفاع المخيفة ،

« لايعرفون أننا سمعنا النداء .

« من آخر الطريق المعوج .

« كل ما كان طيبا معتدلا مهذبا .

« فليهو فى التراب . »

وظننت أن زوجى سيمضى فى النقاش ، ولـكنه نهض عن كرسيه صامتا وتركنا .

ان الشيء الذى كان يضطرب فى باطنى لم يكن الا صـورة من الانفعال الذى يعصف فى الخارج جارفا البـلاد من أقصـاها الى أقصاها . كانت عربة صانع مصيرى تقترب مسرعة ، وصـوت عجلاتها يتردد صداه فى كيانى ، وكنت أشعر دائما أن شيئا غير عادى يمكن أن يحدث فى أية لحظة ، ولن أكون ــ مع ذلك ــ مسئولة عنه . ألم أنقل من المستوى الذى يجب فيه اعتبـار الصـواب والخطأ ومشاعر الآخرين ؟ وهل كنت أريد ذلك قط ــ هل انتظرت قط مثل هذا الأمر أو رجوته ؟ انظر الى حياتى كلها وأخبرنى ان كان على من شيء !

خلال ماضى كله كنت ثابتة على ولائى ــ حتى اذا حان الوقت لتلقى النعمة ظهر اله آخر ! وكما تهتز البـلاد المستيقظة محيية أمامها المستقبل الذى لم يتحقق : « باندى ماترم » ، كذلك تبعث كل عروقى وأعصابى نبضات الترحيب للغريب الطـارىء المجهول الملحاح .

ذات ليـــلة تركت فراشى ودلفت من حجرتى الى الشرفة

المكشوفة . ان حقول الأرز الناضج تمتد وراء أسوار حديقتنا ، ولمحات من النهر تبدو خلال بساتين القرية الى الشمال . وكان المنظر كله ينام فى الظلام كجنين مبهم لمخلوق مقبل .

فى ذلك المستقبل رأيت بلادى ، امرأة مثلى ، تقف منتظرة . أخرجها من كسر بيتها نداء مفاجىء من مجهول . لم تجد وقتا لتتلبث أو تتأمل، أو لتشعل لنفسها مصباحا وهى مندفعة فى الظلام الممتد . أنا أدرى كيف تستجيب روحها لأنغام الناى البعيدة التى تناديها ، كيف يعلو صدرها ويهبط ، كيف تشعر أنها تقترب منه ، بل انه ملكها فعلا ، فلا بأس أن جرت معصوبة العينين. انها ليست أما . لا يناديها أطفال جياع ، ولا بيت توقد مصابيحه فى المساء ، ولا عمـــل تدبره فى المنزل . لا ، انها عجلى الى ميعادها ، فهذه أرض شعراء « الفياشتافا » . لقد تركت بيتها ، ونسيت واجبات منزلها ، وليس فيهـا الا حنين لا يسبر غوره ، يدفعها قدما ـ فى أى طريق ؟ ولأى هدف ؟ انها لا تبالى .

أنا أيضا يتملكنى مثل ذاك الحنين . أنا أيضـا فقـدت بيتى وضللت طريقى . الغاية والوسيلة كلتاهما غمضتا على . لم يبق الا الحنين والاسراع . آه ! أيتها الجوابة التعسة بالليـل ، حين يحمر الفجر لن تبصرى أثرا لطريق الرجوع . ولـكن لم الرجوع؟ فى الموت غناء عنه . ان كان الظلام الذى عزف على الناى قائدا الى الهلاك ففيم الشغل بالآخرة ؟ عندما يغمرنى السواد لن أكون ، لا أنا ، ولا الخير ولا الشر ، ولا الضحك ولا الدموع .

ـ ١٢ ـ

حين أديرت آلة الزمن فى البنغال ـ هكذا فجأة ـ بأقصى قوتها ، سهلت الاشياء العسيرة ، وتتابعت واحدا بعد واحد . لم يعد فى الامكان أن يكبح جماح شىء ما ، حتى فى ركننا من البلاد . وكان اقليمنا فى المؤخرة أول الأمر . لأن زوجى أبى أن يجبر أهل القرى على شىء ، وكان يقول : « حقا ان الذين يضحون فى سبيل بلادهم هم خدامها ، ولـكن الذين يجبرون غيرهم على التضحية باسمها هم أعداؤها . انهم يقطعون الحرية عند الجذور لينالوها فى القمة».

لـكن لما جاء سنديب وأقام هنـا ، وبدأ أتباعه يتجولون فى البلاد ، ويخطبون فى المدن والاسواق ، امتدت موجات الحماسة

الينا نحن أيضا . والتف حوله طائفة من شباب الاقاليم ، ومنهم من كانوا يعدون معرة للقرية ، لكن وهج حماستهم الصادقة أضاءهم ظاهرا وباطنا ، وتبين انه حين تنتظم البلاد أنسام نقية من فرح عظيم وأمل كبير ، تطهر من كل درن وعفن . نعم ، انه لعسير على الناس أن يكونوا صرحاء مستقيمين أصحاء وبلادهم تعانى آلام البأس .

وهنا تحولت كل العيون الى زوجى ، اذ كانت ولاياته وحدها هى التى لم يمنع فيها السكر والملح والمنسوجات الاجنبية . وبدا موظفو الامارة أنفسهم يشعرون بالقلق والخجل من ذلك ، مع أن زوجى حين بدأ ـ منذ زمن ـ يستورد البضائع الوطنية الى قريتنا لامه الشيوخ والشباب على جنونه ، سرا وعلانية . فقد كنا نحتقر « السواديشى » من كل قلوبنا قبل أن تصبح دعوة يستمد منها الفخر .

وما زال زوجى يبرى أقلامه الهندية بمبراة هندية ، ويكتب بأقلام « البسط » ويشرب الماء فى طاس ، ويعمل بالليل فى ضوء مصباح زيتى قديم . ولكن أسلوبه « السواديشى » الراكد البارد لم يستهونا قط ، بل اننا كنا نخجل دائما من الاثاث الخشن العتيق الطراز فى حجرات استقباله ، وبخاصة حين يزوره قاضى التحقيق أو غيره من الاوربيين .

وكان زوجى يستخف بمآخذى ، فيقول باسما : لماذا تسمحين لهذه التفاهات أن تزعجك ؟

ـ سيظنوننا همجا ، أو على الاقل غير متمدنين .

ـ ان فعلوا فسوف أكافئهم بالظن ان مدنيتهم ليست أعمق من جلودهم البيضاء .

وكان عند زوجى وعاء نحاسى عادى على مكتبه ، يتخذه زهرية . وكثيرا ما حدث أن تسللت الى حجرته عند سماعى بقدوم زائر أوربى لأضع فى مكانه زهرية بلورية أوربية الصنع .

وأخيرا أنكر فعلى بقوله : انظرى يا بيمالا . ان هذا الوعاء النحاسى لا يشعر بنفسه ، كما لا تشعر تلك الأزهار . أما ذلك الشىء فانه يعلن عن غرضه بصوت عال ، ولا يصلح الا للأزهار الصناعية .

وكانت « الباراراني » هى وحدها التى تتملق نزوات زوجى . فمرة تجىء لاهثة لتقول : « أوه يا أخى ! هل سمعت ؟ لقد ظهر

صابون هندى بديع ! ان أيام ترفى قد ذهبت ، لـكن اذا لم يكن فى هذا الصابون شحم حيوانى فانى أود أن أجربه » .

ومثل هذا يجعل زوجى يتهلل فرحا ، فاذا بالمنزل يغرق فى العطور الهندية والصابون الهندى . وأى صابون : انه أشبه بقطع الصودا الكاوية . وبعد فأنا أعلم ان سلفتى لا تستعمل غير الصـــابون الاوربى المعهود ، أما هذه الانواع الهندية فانها تسلم الى الخادمات لغسل الملابس .

ومرة ثانية تقول : « أوه يا أخى العزيز ! أحضر لى شيئا من أيدى الاقلام الهندية هذه ! » .

فيتحمس « أخوها » كعادته ، وتمتلىء حجرات البارارانى بكل صنف من العصى القبيحة التى تسمى أيدى أقلام « سواديشى » . وهى لا تبالى بذلك لأن القراءة والـكتابة ليستا من شغلها . ومع ذلك فان اليد العاجية لا تزال فى صندوق أدواتها الكتابية ، وهى اليد الوحيدة التى تستعملها ، حين تستعمل يد قلم على الاطلاق .

وحقيقة الأمر أن هذا كله كان ضربة موجهة الى لأنى لا أجارى زوجى فى بداوته . وكان من العبث أن أظهر زيف سلفتى ، فزوجى يتصلب وجهه اذا أشرت الى ذلك مجرد اشارة . اننا لا نجنى غير التعب اذ نحاول انقاذ مثل هؤلاء الناس ممن يحتالون عليهم !

والبارارانى تحب الخياطة . وذات يوم لم أتمالك أن انفجرت قائلة : يا لك من كذوب يا أختى ! عندما يكون « أخوك » حاضرا يجرى لعابك اذا ذكرت المقصات « السواديشى » ولكنك لاتستعملين الا المقص الانجليزى حين تخيطين .

فأجابت : وما الضر ؟ ألا ترين سروره بذلك ؟ لقد كبرنا معا فى هذا المنزل منذ كان صبيا . وأنا لا أطيق مثلك ، أن تبرح الابتسامة وجهه . هذا العزيز المسكين ! انه لا يجد تسلية الا هــذا اللعب بأشياء الدكاكين . أنت وحدك التى يضيع عليك ماله ، ومع ذلك تريدين أن تهلـكيه ؟

فأجبت : مهما تقولى فان النفاق لا يجوز .

فضحكت سلفتى فى وجهى : يا المتشوتا رانى الصغيرة الصريحة! مستقيمة كعصا المعلم ، أهو هذا ؟ ولـكن المرأة لم تخلق كذلك . انها ناعمة مرنة ، بحيث تنحنى دون تعوج .

لم أستطع أن أنسى تلك الـكلمات : « يضيــع عليــك ماله ،

وتريدين أن تهلكيه ! » واليوم أشعر أن الرجل ان كان لابد له من مسكر فيحسن ألا يكون امرأة .

- ١٣ -

« سكسار » التى تقع فى امارتنا هى من أكبر المراكز التجارية فى الاقليم فهناك مجرى ماء تعقد على أحد جانبيه سوق يومية وعلى الجانب الآخر سوق أسبوعية . وحين يتصل هذا المجرى بالنهر فى وقت الامطار وتستطيع القوارب أن تبلغه ، تجلب للبيع مقادير كبيرة من الخيوط القطنية والمنسوجات الصوفية للشتاء المقبل .

وفى قمة حماستنا قرر سنديب أن جميع البضائع الاجنبية يجب أن تطرد من بلادنا مع شبح النفوذ الاجنبى .

وقلت وأنا أتأهب للصراع : أجل !

فقال سنديب : لقد تحدثت مع نيكهيل وهو يقول لى انه يقبل الدعوة الى ذلك ولكنه لا يقر حمل الناس عليه .

فقلت مزهوة بقوتى : سأتولى هذا الأمر .

لقد كنت أعلم عمق محبة زوجى لى ، ولو كنت فى رشدى لرضيت أن أمزق اربا ولا أتخذ لنفسى هذا الحق ، فى مثل ذلك الوقت ، ولكن كان يجب أن يقتنع سنديب بقوة « الروح » تتمثل فى .

وكان سنديب قد أوحى الى ، بطريقته التى لا تقاوم ، ان الطاقة الكونية تتجلى لكل فرد فى شكل جاذبية خاصة . وقال ان فلسفة الفياشنافا تتحدث عن « روح » المسرة التى تسكن فى قلب الوجود ، وتجذب دائما حبيبها الخالد .

والناس يتوقون أبدا أن يخرجوا هذه « الروح » من الاعماق المستورة فى طبيعتهم ، فمن استطاع منا أن يفعل ذلك فانه يفهم على الفور فى وضوح معنى الموسيقى التى تأتينا من الظلام . وانطلق يغنى :

« نايى الذى كان مشغولا بأغنيته
« الآن يصمت حين التقينا وجها لوجه .
« ندائى ذهب يبحث عنك من سماء الى سماء
« وأنت ترقدين مختفية ،

« ولـكن صحبتى كلها تلقى بسمتها الآن
في وجه محبوبتى »

ونسيت وأنا أصغى الى استعاراته اننى بيمالا العادية البسيطة. لقد كنت « روحا » وكنت تجسيدا لفرحة الـكون ، لم يكن شيء ليغللنى ، ولا كان شيء مستحيلا على ، فكل ما المسه يكتسب حياة جديدة . لقد كانت الحياة من حولى مخلوقة جديدة لى . ألا ترى ان سماء الخريف لم تكن تحتوى على هذه الثروة من الذهب قبل أن تلمسها استجابة قلبى ؟ وهذا البطل ، هـذا الخادم للوطن ، هذا العابد لى ـ هذا الذكاء المتوقد ، هذه الطاقة المشتعلة ، هذه العبقرية المتألقة ـ اننى أخلقه أيضا من لحظة للحظة . ألم أر كيف يسكب فيه حضورى حياة جديدة مرة بعد مرة ؟

منذ أيام قليلة رجانى سنديب أن أستقبل شـابا صغيرا من حوارييه المخلصين اسمه امووليا . وفى لحظة استطعت أن أرى نورا جديدا يومض فى عينى الفتى ، وعرفت أنه هو أيضا قد تجلت له آية « الروح » ، وأن قوتى الخالقة قد بدأت تعمـل فى دمائه . وفى اليوم التالى قال لى سنديب متعجبا : « ما هذا السحر الذى لك ! ان اموليا لم يعد صبيا ، ان فتيلة حياته تسطع اشتعالا . من ذا الذى يقدر أن يخفى نارك تحت سقف بيتك ؟ كل واحـد منهم يجب أن تمسه تلك النار ان قريبا وان بعيدا ، وعندما يشتعل كل مصباح فستشهد البلاد احتفالا رائعا بتجلى الروح .

حين أعمانى بريق مجدى عزمت على أن أمنح عبادى تلك النعمة. وكنت واثقة ثقة ملؤها الـكبرياء أن أحـدا لن يستطيع منعى مما أريده حقا . فلما عدت الى حجرتى بعد حديثى مع سنديب أرسلت شعرى وعقصته ثانية من فوق ، وكانت مس جلبى قد علمتنى طريقة لتمشيطه من العنق وجمعه فى عقدة على رأسى . وكان زوجى يحب هذا النمط ، وقد قال مرة : « خسارة أن السماء اختارتنى أنا بدلا من الشاعر كاليداس لأذيع كل محاسن جيد المرأة لعل الشاعر لو رآه لشبهه بعنق زهرة . ولـكنى اشعر انه مشعل يرفع شعلة شعرك السوداء . » قال ذلك و .. ولـكن لمـاذا ، أوه ، لمـاذا أعود الى ذلك كله ؟

أرسلت فى طلب زوجى . لقد كان فى وسعى قديما أن أخترع مائة علة وعلة ، مقبولة ، أو غير مقبولة لأجعله يأتى الى . أما الآن وقد انقطع ذلك أياما كثيرة فانى فقدت فن الاختراع .

حكاية نيكهيل

– ٦ –

توفيت زوجة بانشو منذ قليل بعد أن لازمها مرض ذات الرئة مدة طويلة . وكان على بانشو أن يدخل فى مراسم التطهير ليخلص من الاثم ويرضى طائفته . وقد حسبت الطائفة تكاليف ذلك وأخبرته انها ثلاث وعشرون ومائة روبية .

وصحت غاضبا : ما هذا السخف ! لا تخضع لهم يا بانشو ! ما الذى يستطيعون أن يفعلوه بك ؟

فرفع الى عينيه الصابرتين كعينى دابة مجهدة ، وقال : هناك بنتى الكبرى يا سيدى ، يجب أن تتزوج ، ولابد من اتمام المراسم الاخيرة لزوجتى المسكينة .

فرفعت صوتى بما كان يجرى فى ذهنى : حتى لو كان الذنب ذنبك يا بانشو لقد كفرت عنه بما يكفى فيما سلف .

فوافق بسذاجة : هذا صحيح ياسيدى . لقد اضطررت أن أبيع جزءا من أرضى وأرهن الباقى لأدفع ما يطلبه الطبيب . ولكن لا مهرب من الهبات التى يجب أن أقدمها الى البراهمة .

ما فائدة الجدل ؟ وسألت نفسى : متى يحين الوقت لتطهير البراهمة أنفسهم وهم الذين يقبلون مثل هذه الهبات ؟

وأسقط فى يد بانشو بعد موت زوجته ودفنها ، وكان من قبل يعيش على شفا الجوع . وحاول يائسا أن ينال شيئا من السلوان بأن تعود الجلوس عند قدمى زاهد جواب آفاق ، واستطاع أن يكتسب قدرا من الفلسفة مكنه من نسيان أن أطفاله جياع . وأغرق نفسه زمنا فى فكرة أن الدنيا غرور ، وأنها وان كانت خالية من المتاع فالألم أيضا وهم . وأخيرا ترك صغاره ذات ليلة فى كوخهم المتداعى وانطلق يجوب الآفاق مستقلا .

لم أعرف شيئا عن ذلك الأمر فى حينه . ففى ذلك الوقت كان

الآلهة والشياطين يمخضون المحيط فى عقلى ، ولم يخبرنى أستاذى أنه حمل أطفال بانشو الضائعين الى داره وتولى أمرهم ، وان كان وحيدا فى المنزل ، وملزما أن يرعى مدرسته طول النهار .

وبعد شهر عاد بانشو وقد ذهب الكثير من حميته الصوفية ، فالتصق به ابنه الاكبر وبنته الكبرى صائحين : « أين كنت كل هذا الوقت يا أبتاه؟» وتربع صغيره على حجره ، وانحنت بنته الثانية على ظهره وقد طوقت عنقه بذراعها ، وبكوا جميعا . وأخيرا قال بانشو لأستاذى منتحبا : « آه ياسـيدى ! اننى غير قادر على اشباع هؤلاء الصغار ، ولست حرا لأهرب منهم . ماذا كان ذنبى حتى أعذب هذا العذاب ، ويداى مغلولتان وقدماى ؟ » .

وكان خيط علاقات بانشو التجارية الصغيرة قد انقطع ، ولم يعد فى استطاعته أن يصله . فظل ملتجئا الى منزل أستاذى حيث وجد المأوى عند عودته ، ولم يقل كلمة واحدة عن رجوعه الى منزله . وأخيرا اضطر أستاذى أن يقول له : « انظر يا بانشو ! ان لم تعن بكوخك فانه سوف يتهدم . سأقرضك بعض النقود لتبيع بها وتشترى ، وتردها الى شيئا فشيئا . »

لم يسر بانشو كثيرا بذلك : أما بقى على الارض شىء اسمه الاحسان ؟ وعندما سأله أستاذى أن يكتب صكا بالمال شعر أن هذه العطية التى يلزم ردها لا تستحق أن تؤخذ . ولكن أستاذى لم يرد أن يقدم منحة ظاهرة تستتبع دينا باطنا ، فقد كان يرى أن تحطيم احترام المرء نفسه تحطيم للكرامة التى يستمدها من مكانه فى المجتمع .

وبعد أن وقع بانشو الصك فقدت تحيته لأستاذى كثيرا من مظهرها الخاشع ، فلم يعد يمسح التراب عن قدميه ، وكان أستاذى يبتسم لذلك ، فانه ماكان يريد شيئا خيرا من الاقتصاد فى التبجيل ، وكان يعبر عن ذلك بقوله : « الاحترام معطى ومردودا يسوى الحساب بين الرجلين ، أما التبجيل فمغالاة . »

وبدأ بانشو يشترى المنسوجات فى السوق ويقايض بها فى القرية . ومع انه لم يحصل على كثير من النقود فان ما استطاع جمعه من السلع كالأرز والقنب وغيرها من المنتجات الزراعية قد ساعده على سداد حسابه ، فاستطاع بعد شهرين أن يرد قسطا من دين أستاذى ، وصاحب ذلك نقص مقابل فى عمق انحناءته . ولعله بدأ يشعر انه كان يقدس رجلا عاديا لم يتسام حتى عن اغراء المال .

وبينما كانت هذه حال بنتو صدمه تيار « السواديشى » بكل قوته .

– ٧ –

كان الوقت عطلة ، وقد عاد كثير من الشبـاب فى قريتنا وجيرتها من منازلهم وكلياتهم . والتفوا حول زعامة سـنديب متحمسين ، وانقطع بعضهم عن الدراسة لفرط غيرتهم . وكان كثير من الفتيان تلاميذ بالمجان فى مدرستى التى أنشأتها هنا ، وبعضهم يتلقون منى معونات ليدرسوا فى كلـكتا . جاءنى هؤلاء جميعا مطالبين بأن أمنع البضائع الاجنبية من سوق سكسار .

فقلت لهم انى لا أستطيع ذلك .

قالوا ساخرين : لماذا يا مهراجا ؟ هل نشق عليك الخسارة ؟

فلم أبال بما فى نبرتهم من الاهانة ، وكدت أرد بأن الخسارة لن تصيبنى بل سـوف تصيب التجار الفقراء وزبائنهم ، حين أدلى أستاذى – وكان حاضرا – بقوله : نعم ، انه هو الذى سيخسر لا أنتم . هذا واضح جلى .

– ولـكن الوطن ..

فقاطعهم أستاذى مرة أخرى : الوطن ليس معناه الارض ، بل الناس الذين عليها . هل أنفقتم قبل اليوم ولو نظرة على ما يحدث لهم ؟ ولـكنكم تريدون الآن أن تقرروا أى ملح يأكلون وأى ثيـاب يلبسون ؟ لمـاذا يتحملون مثل هـذا الاسـتبداد ، لمـاذا تدعهم يتحملونه .

– ولـكننا نحن قد ألفنا الملح الهندى والسكر الهندى .

– لـكم أن تفعلوا ما تشاءون لتذهبوا ضجركم وتبقوا تعصبكم . فأنتم ميسورو الحال ، ولاحاجة بكم أن تفكروا فى الثمن . ان الفقراء لايعارضونكم ولـكنكم مصرون على أن يخضعوا لما تفرضونه . ان كل لحظة من لحظاتهم – على ما هم الآن – لهى صراع حياة أو موت فى سبيل حفظ الرمق ، وليس بوسعكم أن تتخيلوا الفرق الذى يمكن أن تحدثه لهم دوانق قليلة ، فانكم لا تكادون تشاركونهم فى شىء . لقد قضيتم ماضيكم كله فى طبقـة عليـا ، والآن تهبطون لتتخذوا منهم أدوات لانزال غضبكم . انى أسمى هذا جبنا .

وكانوا جميعا من تلاميذ أستاذى السابقين ، فلم يجرؤوا على أن يسيئوا أدبهم ، وان ارتعدوا من الغضب والتفتوا الى : اذن فهل

تكون الوحيد الذى يضع العقبات أمام سعى البلاد يامهراجا ؟

ـ ومن أكون حتى أجرؤ على مثل هـذا الفعل ؟ أم اننى غير مستعد لأن أهب حياتى فى سبيل تحقيقه ؟

وابتسم طالب الماجستير ابتسامة شوهاء وهو يسأل : هل لنا أن نعلم ماذا تقوم به فعلا فى هذا السبيل ؟

ـ لقد استوردت غزلا مصنوعا فى الهند وعرضته فى سـوق سكسار ، وأرسلت بالات منه الى الاسواق التابعة للملاك المجاورين .

فصاح الطالب نفسه : ولكننا ذهبنا الى سوقك يامهراجا ولم نجد أحدا يبيع ذلك الغزل .

ليس هذا خطئى ولا خطأ سوقي ، انما هو دليل على أن البـلاد لم تدخل جميعها فى ميثاقك .

ومضى أستاذى يقول : ليس هذا كل شيء . انه يدل على انكم ما تعاهدتم الا على مضايقة غيركم . أنتم تريدون التجار الذين لم يدخلوا فى ميثاقكم أن يشتروا ذلك الغزل . والنساجين الذين لم يدخلوا فى ميثاقكم أن ينسجوه ، ثم ان تعرض بضائعكم آخر الأمر على مستهلكين لم يدخلوا فى ميثاقكم أيضـا . أما الطريقة فهى الصياح منكم والاضطهاد من ملاك الاراضى . وأما النتيجة فهى أن لكم كل الفضل ولهم كل الحرمان .

فعقب طالب علوم : وهل لنا أن نسأل ماذا كان نصيبكم من الحرمان ؟

فأجاب أستاذى : أتريد أن تعلم ؟ انعلىنيكهل نفسه أن يشترى هذا الغزل الهندى ، وقد لجأ الى انشاء مدرسة نسيج لحياكته ، واذا حكمنـا بأعمـاله البـاهرة السـابقة فى هذا الميدان فان ثمن منسوجاته القطنية عنـد خروجهـا من النول سيكون كثمن نسيج الذهب ، ولذلك فلن تكون لها فائدة الا أن تتخذ ستائر فى حجرة جلوسـه ، ولو كانت أرق من أن تستره . عنـدما تتعبون من ميثاقكم ستضحكون بأعلى صوت عن تأثيرها الفنى . وأن أعجبت صناعتها أحدا فانها لن تعجب غير الأجانب .

لقد عرفت أستاذى طيلة حياتى ، ولـكن لم أره قط فى مثل هذه الثورة . ولاح لى أن الألم ظل يتجمع فى قلبه زمنا وهو صامت لفرط حبه لى وان ما تعوده من امتلاك زمام نفسه قد نيـل منه حتى كاد يتداعى .

قال طالب الطب : انتم أكبر منـا سـنا ، ولا يليق بنـا أن

نجادلكم . ولكننا نود أن نعلم أخيرا هل أنتم عازمون على الا تخلوا سوقكم من البضائع الاجنبية ؟

قلت : لن أفعل ، لأنى لا أملك هذه البضائع .

فقال طالب الماجستير مبتسما : لأن ذلك يسبب لك غرما !

فرد أستاذى : لأن الذى سيغرم هو أولى الناس بأن يحكم .

فتركونا هاتفين : باندى ماترم .

الفصل السادس

حكاية نيكهيل

— ٨ —

بعد أيام جاءنى أستاذى مصاحبا بانشو . وظهر أن مالك الارض التى يقيم فيها غرمه مائة روبية وهدده بالطرد .

سألت : وبأى ذنب ؟

فقيل لى : لأنه وجد يبيع منسوجات أجنبيـــــة وقد رجا « هاريش كوندو » مالك الارض وتضرع اليه أن يتركه حتى يبيع ما عنده من بضــاعة اشتراها بالدين ، وحلف ألا يعود الى ذلك العمل مرة أخرى ، ولــكن صاحب الارض لم يصغ اليه ، وأصر على احراق البضائع الاجنبية فى الحال ان أراد اطــلاق سراحه . وصاح بانشو متحديا فى غيظه : أنا لا أتحمل هذا . أنت مقتــدر فلماذا لا تشتريها كلها وتحرقها ؟ فما كان من هاريش كوندوا الا أنه صاح وقد احمر وجهه : يجب تأديب هــــذا اللعين . اضربوه بالاحذية ! وهكذا لقى بانشو المسكين فوق الغرامة اهانة .

— وماذا جرى للقماش .

— لقد أحرقت البالة جميعها .

— ومن كان هناك غيره ؟

— عدد كبير من الناس كانوا كلهم يصيحون : « باندى ماترم » وكان فيهم سنديب أيضا ، فتنــاول بعض الرماد صــائحا : أيها الاخوة ! ان هذا أول حريق جنزى توقده قريتكم محيية المراسم الاخيرة للتجارة الاجنبية . هذا رماد مقدس ، فامسحوا أنفسكم به آية على انــكم أخذتم عهد « السواديشى » .

فالتفت الى بانشو قائلا : يجب أن تقدم شكوى يا بانشو .

فأجاب : لن يشهد لى أحد .
ــ لن يشهد أحد ؟.. سنديب ! سنديب !
فجاء سنديب من حجرته حين سمع ندائى ، وسأل : ماذا جرى؟
ــ ألا تشهد على احراق قماش هذا الرجل ؟
فابتسم سنديب قائلا : سأكون لاشك شاهدا فى القضية. ولكنى سأشهد عليه لا له .
فصحت : ماذا تعنى بشهادتك عليه ؟ ألا تشهد بالحقيقة ؟
ــ هل الشيء الذى يحدث هو الحقيقة الوحيدة ؟
ــ وأى حقائق أخرى يمكن أن توجد ؟
ــ الاشياء التى ينبغى أن تحدث ! ان الحقيقة التى يجب أن نبنيها ستحتاج فى سبيل ذلك الى كثير مما يخالف الحقيقة . ان أولئك الذين شقوا طريقهم فى الحياة قد خلقوا الحقيقة ولم يسيروا وراءها سيرا أعمى .
ــ واذن .. ؟
ــ واذن فسأدلى بما يلذ لكم أن تسموه شهادة الزور ، كما فعل أولئك الذين أوجدوا الامبراطوريات وأقاموا النظم الاجتماعية وأنشأوا المنظمات الدينية . الذين يريدون أن يحكموا لا يخشون مخالفة الحقيقة ! أما قيود الحقيقة فلأولئك الذين يقعون تحت حكمهم. ألم تقرأ التاريخ ؟ ألا تعلم انالاكاذيب هىالمكونات الرئيسية فى داخل تلك الصهاريج الضخمة التى تغتلى فيها التطورات السياسية العظيمة ؟
ــ لاشك ان ثمة طبخا سياسيا يجرى على نطاق واسع ، ولكن.
ــ أوه ، أنا أعلم . انك لن تشترك فى شيء من الطبخ ، فأنت تفضل أن تكون واحدا من أولئك الذين تدفع الخلطة المطبوخة فى حلاقيمهم . سيقسمون البنغال ويقولون أن ذلك لمصلحتك . سيوصدون أبواب التعليم ويسمون ذلك رفعا للمستوى ولكنكم ستبقون أبدا أولادا طيبين ، تبكون فى أركانكم . أما نحن الرجال الاشرار فعلينا أن ننظر فى وسيلة لاقامة حصون دفاعية من مخالفة الحقيقة .
فتدخل أستاذى قائلا : لا فائدة من الجدال فى هذه الأمور يا نيكهيل . أنى لمن لا يشعرون بالحقيقة فى داخلهم أن يدركوا أن اخراجها من الظلام الى النور هو أسمى هدف للانسان لا المواظبة على تكديس المادة فى الخارج ؟

فضحك سنديب قائلا : أحسنت ياسيدى ! هذه خطبة تليق بمعلم . هذا كلام قرأت مثله فى الكتب ، ولكنى رأيت فى العالم الواقعى أن هم الانسان هو جمع المادة الخارجية . وأساتذة هذا الفن يروجون أكبر الاكاذيب فى أعمالهم ، ويدخلون الحسابات الزائفة فى سجلاتهم السياسية بأعرض أسنة أقلامهم ويطلقون صحفهم كل يوم محملة بالمغالطات ، ويبعثون الوعاظ الى الخارج لينشروا الافك ، كالذباب الذى يحمل جراثيم الوباء . اننى تابع متواضع لهؤلاء العظماء . وعندماكنت متصلا بحزب المؤتمر لم أتردد قط فى أن أخلط عشرة فى المائة من الحقيقة بتسعين فى المائة من الافك . واذا كنت قد أصبحت غير منتسب لهذا الحزب فان ذلك لم ينسنى الاصل الواقعى الثابت الذى يقول ان هدف الانسان ليس الحقيقة بل النجاح .

فصحح أستاذى قوله : النجاح الحقيقى .

فأجاب سنديب : ربما . ولكن ثمرة النجاح الحقيقى لا تنضج الا بزرع حقل الافك ، بعد تمزيق الارض وطحنها ترابا . انالحقيقة تنمو وحدها كالاعشاب والاشواك ، ولا ينتظر الثمار منها غير الديدان !

قال ذلك واندفع خارجا من الحجرة . ونظر أستاذى الى بابتسام . قال : أتدرى يا نيكهيل .. أنا لا أعتقد أن سنديب غير مؤمن . ان دينه هو الوجه الآخر للحقيقة . كالقمر المظلم ، لايزال قمرا وان ذهب نوره الى الجانب الآخر .

فقلت موافقا : لهذا كنت دائما أميل اليه وان لم نستطع قط ان نتفق . وليس فى وسعى أن أدينه الآن أيضا . وان كان قد أساء الى اساءة بالغة ، ولعله سيزداد ايذاء لى .

قال أستاذى : لقد بدأت أتبين ذلك . وكثيرا ما سألت نفسى : كيف تستطيع احتماله ، بل اننى نسبتك الى الضعف أحيانا . والآن أرى أنكما وان لم تتفقا فى الروى فأنتما من بحر واحد .

فقلت متابعا فكرته : كأن القدر صمم على أن يكتب لى « فردوسا مفقودا » بالشعر المرسل ، فلم ير حاجة الى صديق موافق .

وتابع أستاذى حديثه الاول سائلا : ولكن ماذا عن بانشو ؟

ـ تقول ان هاريش كوندو يريد أن يطرده من مقر أجداده . فان اشتريت المكان وأبقيته مستأجرا عندى ؟

ـ وغرامته ؟

ـ كيف يحصلها صاحب الارض ان أصبح مستأجرا عندى ؟
ـ وبالة القماش التى حرقت ؟
ـ سأشترى له بالة أخرى . ولعل أحدا يتدخل فى شأن مؤاجر من مؤاجرى لأنه يتاجر كما يريد !
فقال بانشو بانكسار : أخشى ياسيدى أن يجتمع نسور الشرطة والقانون ويستمتع الجمهور بالمنظر وانتم تتحاربون معشر الكبراء ، فاذا وصل الأمر الى القتل جاء دورى أنا المسكين !
ـ لماذا ؟ أى ضرر يمكن أن يصيبك ؟
ـ سيحرقون منزلى ياسيدى ، ولن يبقوا على الاطفال !
فقال أستاذى : حسنا ، سأعنى بأطفالك . ولك أن تتاجر كما تريد ، فلن يمسوك بأذى .
وفى ذلك اليوم نفسه اشتريت مسكن بانشو وأصبحت المالك الرسمى له ، ثم بدأت المتاعب .
كان بانشو قد ورث المسكن عن جده على أنه وريثه الوحيد الباقى على قيد الحياة ، وكان كل امرىء يعلم ذلك ، ولكن فى هذه اللحظة ظهرت زوجة عمه من مكان ما ، ومعها صناديقها وحزمها وسبحتها ، وابنة أخ مترملة . وتربعت فى منزل بانشو وطالبت بنصيبها ـ مدى الحياة ـ فى ربع جميع ما يملك .
وذهل بانشو . واحتج بقوله : ولكن زوجة عمى ماتت منذ أمد بعيد !.
فأجيب بأنه يعنى زوجة عمه الاولى ، ولكن العم لم ينتظرطويلا حتى اتخذ زوجة ثانية .
وصاح بانشو وقد زادت دهشته : ولكن عمى مات قبل عمتى . فكيف تسنى له أن يتزوج ثانية ؟
ولم ينكرعليه قوله ، ولكنه ذكر بأنه لم يزعم قط مجىء الزوجة الثانية بعد وفاة الاولى ، بل ان عمه تزوج الثانية فى حياة الاولى. ولم تسترح الزوجة الثانية للعيش مع ضرة فبقيت فى منزل أبيها حتى وفاة زوجها ، وبعد ذلك تنسكت وأقامت فى أرض برندابان المباركة التى قدمت منها الآن . وكانت هذه الوقائع معروفة لموظفى هاريش كوندو وبعض مؤاجريه . ولو صمم مالك الارض لوجد أيضا بعض من شهدوا وليمة العرس !

ذات أصيل كنت مشغولا بعمل كثير ، واذا برسالة تأتينى فى مكتبى أن بيمالا تطلبنى . فدهشت ، وسألت الرسول : تقول من التى بعثت فى طلبى ؟

— أمنا الرانى .

— البارا رانى ؟

— لا ياسيدى بل أمنا التشوتا رانى .

التشوتا رانى ! كأنما مر قرن منذ بعثت تطلبنى . فتركت الخلق منتظرين هناك ، وذهبت الى الحجرات الداخلية . وعندما خطوت داخلا الى حجرتنا أصابتنى دهشة أخرى اذ وجدت بيمالا واقفة فى زينة غير عادية . وكانت الحجرة التى طال اهمالها حتى اكتسبت مظهر الشرود ، قد استعادت شيئا من نظامها القديم فى تلك الساعة. ووقفت صامتا أنظر مستفهما الى بيمالا .

احمر وجهها قليلا وجعلت أصابع يمناها تلعب بالاسورة على ذراعها اليسرى . ثم قطعت الصمت فجأة : راعنى ! هل يجوز أن تكون سوقنا هى الوحيدة فى البنغال التى تباع فيها البضائع الاجنبية ؟

فسألت : وما السبيل الصحيح اذن ؟

— تأمر باخراجها !

— ولكننى لا أملكها .

— ألست تملك السوق ؟

— بل هى أولى بأن تكون ملكا لمن يستعملونها فى التجارة .

— فليتاجروا فى البضائع الهندية اذن .

— ليس أدعى لسرورى من هذا . ولكن ماذا ان أبوا ؟

— هراء ! كيف يجرؤون على مثل هذه الوقاحة ؟ ألست ..

— اننى مشغول جدا هذه الساعة ، ولا أستطيع أن أستمر فى الجدل ولكننى لن أكون مستبدا .

— لن يكون استبدادا من أجل كسب شخصى ، بل من أجل مصلحة الوطن .

— الاستبداد من أجل مصلحة الوطن هو استبداد الوطن . ولكننى أخشى الا تفهمى هذا أبدا .

قلت ذلك وخرجت ، وفجأة أضاء لى العالم بنور جديد . وكأنما احسست فى دمى أن الارض قد فقدت ثقل ارضيتها ، وان واجبها

اليومى فى امداد الحياة لم يعد يبدو عبثا ، وانها تدور فى الفضاء بفيض عجيب من القوة ، مسبحه بأيامها ولياليها . يا له من عمل لا ينتهى ، ويا لها من طاقة للحرية لا تحد ! لن يمنعها شىء ما . لا ولن يمكن أبدا أن يمنعها شىء ! وانبعثت من أعماق وجودى دفقة فرح كأنها نافورة ، وارتفعت الى عنان السماء .

وسألت نفسى مرة بعد مرة عن معنى هذا الانبعاث ، فلم أجد فى أول الأمر جوابا مفهوما ، ثم وضح لى أن القيد الذى كنت أثور عليه فى باطنى ليل نهار قد انكسر ، وتبينت لدهشتى أن عقلى قد تخلص من كل ضبابية ، واستطعت أن أبصر كل ما يتعلق ببيمالا فى وضوح كأنه مصور على شاشة سينما . كان ظاهرا ملموسا أنها تأنقت فى ملبسها عمدا لتستميلنى الى اصدار ذلك الأمر . ولم أكن حتى ذلك الحين قد نظرت قط الى زينة بيمالا على أنها شىء مستقل عنها . ولكنها اليوم بدت مجرد زخرفة من الطريقة المصطنعة التى عقصت بها شعرها على النمط الانجليزى . وأصبح الشىء الذى كان محملا بسر شخصيتها ، ولم أكن أقدره بثمن ، معروضا للبيع بالثمن الرخيص .

حين خرجت من ذلك القفص المحطم — ذلك المخدع — الى ضوء الشمس الذهبى فى العراء ، كان صفا أشجار « البوهينيا » على جانبى الدرب المواجه لشرفتى يسكبان على السماء ألقا ورديا . وكان سرب من الزرازير منطلقا فى ثرثرة عالية تحت الاشجار . وعلى بعد عربة خالية من العربات التى تجرها الثيران ، قد رفعت ذيلها فى الهواء وأنفها على الارض ، وأحد ثوريها المحلولين يرعى والآخر راقد على العشب ، وعيناه منكستان استرواحا ، بينما كانت بقرة ترقد على ظهرها عاكفة على تحريك رأسها لطرد الحشرات عن جسمها .

كأنما اقتربت من نبضات قلب الارض العظيمة فى كل بساطة حياتها اليومية . لمستنى أنفاسها الدافئة بعطر أزهار البوهينيا ، وبدا كأن نشيدا تدق عذوبته عن الوصف ينبعث من هذا العالم ، حيث أحيا بحريتى فى حرية كل شىء آخر .

نحن الرجال فرسان نبتغى تلك الحرية التى تدعونا اليها مثلنا ، والمرأة التى تصنع لنا العلم الذى نسير تحته هى حق المرأة لنا . يجب أن نمزق قناع تلك التى تنسج شباك الفتنة لنا فى البيت وأن نعرفها على حقيقتها . يجب أن نحاذر من الباسها سحر

أشواقنا وخيالاتنا لتضلنا عن مطلبنا الحق .

اليوم أشعر اني سأنتصر . وصلت الى باب البساطة ، وأنا الآن راض بأن أرى الاشياء كما هى . لقـــد كسبت الحرية لنفسى وسأفتح الحرية للآخرين وفى عملى سيكون خلاصى .

أعلم أن قلبى سيتألم مرة بعد مرة ولـكننى الآن فهمت ألمه فى كل حقيقته . أستطيع ألا أراعيه . الآن وقد علمت اننى أنا وحدى مداره فماذا يمكن أن تكون قيمته آخر الأمر . ســيكون عذاب البشرية كلها هو تاجى .

أنقــذنى ياحق ! لا تدعنى أبدا يعــاودنى الحنين الى فردوس الوهم الـكاذب ! واذا كان على أن أسير وحيــدا فاجعلنى على الاقل أسلك طريقك . اجعل دقات طبول الحق قائدى الى النصر .

حكاية سندباد

— ٧ —

استدعتني بيمالا في ذلك اليوم ولكنها ظلت مدة لا تستطيع أن تنطق بكلمة ، وعيناها تغرورقان وتوشكان أن تفيضا . وأدركت على الفور أنها لم توفق مع نيخيل . لقد كانت على ثقة ملؤها الكبرياء أنها ستظفر بما تريد ، ولكنى لم أشاطرها قط هذه الثقة . فالمرأة تعرف الرجل معرفة حسنة حيث يكون ضعيفا ، ولكنها عاجزة كل العجز عن سبر غوره حيث يكون قويا . والحق ان الرجل لغز للمرأة كما ان المرأة لغز للرجل . ولو لم يكن ذلك صحيحا لكان التمييز بين الجنسين مضيعة لجهد الطبيعة .

الكبرياء ، وما أدراك ما الكبرياء ! لم يكن الخطب أن الأمر الضروري قد تعذر انجازه بل ان الرجاء الذي كلفها كل هذا الصراع قد رفض . ما أكثر اللون والحركة والايماء والخداع حول كلمة « أنا » عند المرأة ! وهنا جمالها — فهي ذاتية أكثر جدا من الرجل . عندما خلق الرجل كان الخالق معلما حقيبته مملوءة بالوصايا والمبادىء ، ولكنه حين خلق المرأة ترك أستاذيته وتحول فنانا ليس له الا ريشته وصندوق ألوانه .

حين وقفت بيمالا هنالك صامتة محمرة الوجه باكية في كبريائها الكسيرة وكأنها سحابة عاصفة مثقلة بالمطر مشحونة بالبرق تحط على الافق ، بدت حلوة حلوة حتى اني لم أتمالك أن أسرعت اليها وأمسكت يديها . كانت ترتعد ولكنها لم تنتزعهما من يدي . فقلت : يا ملكتي ، نحن الاثنان زميلان لأن أهدافنا واحدة . فلنجلس ونتحدث في الأمر .

وقدتها الى كرسي وهي لا تقاوم . ولكن أي عجب ! في هذه اللحظة نفسها انحبس اندفاعي دون سبب معلوم ، كتيار «البادما» الجبار يزأر أتيه — ولا مقاومة — واذا بعقبة صغيرة تحت السطح

تحوله عن الشاطىء المتداعى أمامه . عندما ضغطت على يد بيمالا عرفت أعصابى كأوتار مشدودة ولكن السيمفونية توقفت عن الحركة الاولى .

ما الذى اعترض الطريق ؟ لا شىء بمفرده ، بل خليط من أشياء كثيرة — لا شىء ملموس ولكن ذلك الشعور المبهم بالتعويق. ومهما يكن من شىء فقد وضح لى أمر وهو انى لا أستطيع أن أقسم على ان حقيقتى هى كذا ، وما فتنتنى بنفسى الا لأننى لغز محير لعقلى، ولو مرة عرفت نفسى كاملة لطرحتها كلها بعيدا ووصلت ألى نعيم الروح !

انتسف وجه بيمالا وهى تجلس ، ولابد أنها هى أيضا شعرت بالازمة التى جاءت وذهبت تاركة اياها لم تصب بأذى . لقد مر المذنب ، ولكن لفحة ذنبه المشتعل هزمتها . ولكى أساعدها على استعادة جأشها قلت : لابد من عقبات ولكن دعينا نحاربها حتى ننتصر ، وحذار أن نقنط . ألا ترين أن ذلك أفضل ياملكتى ؟

فسعلت بيمالا سعلة صغيرة لتطلق صوتها الا أنها لم تزد على أن قالت : نعم .

ومضيت أقول ، وأخرجت من جيبى قطعة من الورق وقلم رصاص : فلنرسم خطتنا للعمل .

وبدأت أكتب قائمة بأسماء المجاهدين الذين انضموا الينا من كلكتا وأعين لكل واجباته . فقاطعتنى بيمالا قبل أن أتم ذلك قائلة بملل : « دع هذا الآن ، سألقاك ثانية هذا المساء » . ثم أسرعت خارجة من الحجرة . وكان واضحا أنها غير قادرة على النظر فى شىء ما ، بل يجب أن تخلو الى نفسها برهة — أو ترقد على سريرها وتبكى حتى تشتفى !

وعندما غادرتنى بدأت نشوتى تعمق ، كما تغزر ألوان السحب بعد مغيب الشمس . وشعرت بأنى تركت لحظة اللحظات تفلت . أى جبان رعديد كنت ! لابد أنها تركتنى اشمئزازا من تورعى — ولقد كانت على حق !

وبينما كنت أغلى بمثل هذه الافكار جاء خادم وأعلن قدوم « أموليا » أحد فتياننا . وهممت أن أبعده بعض الوقت ولكنه دخل قبل أن أعزم ، ثم أخذنا نتناقش فى أخبار المعارك التى نشبت فى جهات مختلفة حول القماش والسكر والملح ، وسرعان ما صفا الجو من كل أبخرة النشوة وكأنما صحوت من حلم ، فهببت شاعرا

أنى على أتم استعداد للصراع « باندى ماترم ! » .

كانت الاخبار مختلفة . فمعظم التجار الذين يقيمون فى مقاطعة هاريش كوندو قد انضموا الينا ، وكثيرمن موظفى نيكهيل يناصروننا سرا ، ويدبرون الأمور فى الخفاء لمصلحتنـا ، وتجار « مرورى » مستعدون لدفع غرامة ان نحن تركناهم يتخلصون من البضائع التى فى مخازنهم ، الا أن بعض التجار المسـلمين كانوا لا يزالون على عنادهم .

وكان أحدهم يحمل الى منزله بعض الشيلان الالمانيـة الصنع لأسرته ، فصادرها أحد فتيان قريتنا وأحرقها ، وتفاقم الأمر ، فعرضنا أن نعوضه أصوافا هندية ، ولـكن أين نجد أصـوافا هندية رخيصة الثمن ؟ لم يكن فى وسعنا أن ننعم عليه بشيلان كشمير ! فجاء نيكهيل شاكيا ، ونصحه هذا بأن يلجأ الى القانون ، وقد تكفل رجال نيكهيل بأن تذهب القضية سدى ، بل أن محامى الرجل كان فى صفنا !

والمشكلة هى أننا لن نستطيع أن ندبر المال اذا كان علينا فى كل مرة أن نعوض الاقمشة المحروقة بأقمشة هندية ، ثم ندخل فى قضية فوق ذلك ، وأبدع ما فى الأمر أن هـذا الاتلاف للبضـائع الاجنبية يزيد الطلب عليها ويرفع أرباح الاجانب ــ كما حدث لذلك التاجر السعيد الحظ الذىأغرم « النواب » بتحطيم شمعداناته ، لأنه كان يتلذذ برنين الزجاج المـكسور ؟

والمشكلة الثانية هى هل ينبغى أن نتشدد فى مقاطعة أصواف الفانلا والمورينو الاجنبية أو نستثنيها من هذه المقاطعة ، ما دامت لا توجد أصواف هندية أنيقة رخيصة ؟

قلت أخيرا مجيبا عن النقطة الاولى : اسمع ! أننا لن نمضى فى تقديم هدايا من المنسوجات الهندية الى أولئك الذين صـودرت بضائعهم الاجنبيـة . انهم هم المقصـودون بالعقوبة لا نحن . فاذا لجأوا الى القضاء فيجب أن نرد باحراق مخازنهم ! ــ ما الذى يفزعك يا أموليا ؟ ان منظر النيران لا يخلبنى . ولـكن يجب أن تعلم أن هذه حرب فان كنت تخاف ايقاع الاذى فاذهب لتلتمس لك حبا فانك لن تصلح لهذا العمل !

وحللت المشكلة الثانية بأن قررت الا أتوسـط فى أمر البضائع الاجنبية مهما تكن الحال . ففى الماضى حين كانت هـذه الشيلان الاجنبية الزاهية الالوان غير معروفة اعتاد فلاحونا الاكتفاء بالملاحف

القطنية البسيطة ـ فليتعلموا ذلك ثانية . ولعلها تبدو أقل جمالا، ولكن هذا ليس وقت التفكير فى المظاهر .

وكان معظم الملاحين قد اقتنعوا بأن يرفضوا نقل البضائع الاجنبية ، ولكن رئيسهم « ميرجان » بقى على عناده . فسألت مدير أعمالنا هنا : ألا تستطيع أن تدبر اغراق قاربه ؟

فأجاب : ليس أسهل من ذلك ياسيدى : ولكن ماذا يكون ان اعتبرت مسئولا بعد ذلك ؟

ـ ولماذا تسىء التدبير بحيث تترك ثغرة للمسئولية ؟ ومع ذلك فان وجدت ثمة مسئولية فان كاهلى يستطيع احتمالها .

كان قارب ميرجان مربوطا قرب المرسى بعد أن نقلت حمولته الى السوق . ولم يكن فيه أحد ، فقد رتب وكيلنا حفلا دعى اليه الجميع . وبعد الغسق حمل القارب بالنفايات وأرسل مع التيار فغرق فى وسط النهر .

وفهم ميرجان الأمر كله فجاءنى باكيا مسترحما . وبدأ يقول : لقد كنت مخطئا ياسيدى ..

فسألته ساخرا : وما يجعلك تدرك ذلك فجأة ؟

فلم يجب جوابا صريحا . قال : لقد كان القارب يساوى ألفى روبية. اننى أعرف خطئى الآن ، واذا سومحت هذه المرة فلن ..

وارتمى على قدمى .

فسألته أن يعود بعد عشرة أيام . لو أننا استطعنا أن ندفع له هذين الالفين فورا لاشتريناه جسما وروحا ، فمثل هذا الرجل يستطيع أن يقدم الينا خدمة جليلة اذا كسبناه . لن نستطيع أن نتقدم ان لم نضع أيدينا على مال كثير .

ما كادت بيمالا تدخل حجرة الجلوس فى ذلك المساء حتى قلت وأنا أنهض لاستقبالها : ياملكتى ! كل شىء معد . والنجاح قريب ولكننا يجب أن نحصل على مال .

ـ مال ! كم من المال ؟

ـ ليس بالشىء الكثير . ولكننا يجب أن نحصل عليه من أى سبيل !

ـ ولكن كم ؟

ـ خمسون ألف روبية تكفى فى الوقت الحاضر .

شحبت بيمالا فى باطنها حين سمعت الرقم ، ولكنها حاولت ألا تظهر ذلك . كيف تسلم بالهزيمة مرة ثانية .

قلت : يا ملكتى ! أنت التى تقدرين أن تجعلى المستحيل ممكنا. بل انك قد فعلت هذا قبل الآن . ليتنى أستطيع أن أظهرك على مدى ما حققته كى تعلمى ذلك . ولكن ليس هذا وقته . اننا الآن نريد النقود !

فقالت : ستنالها .

وخمنت أنها فكرت فى بيع جواهرها . فقلت : جواهرك يجب أن تبقى مصونة . اننا لا ندرى متى نحتاج اليها .

وحملقت بيمالا نحوى صامتة . فأردفت : هذه النقود يجب أن تأتى من خزانة زوجك .

فزادت بيمالا اجفالا . وبعد صمت طويل قالت : ولكن كيف أحصل على هذه النقود ؟

ـ أليس ماله مالك ؟

قالت وقد مست كبرياؤها الجريحة من جديد : لا !

فصحت : ان لم يكن مالك فليس بماله أيضا : انما هو مال بلاده الذى حرمها منه فى وقت حاجتها !

فرددت : ولكن كيف أحصل عليه ؟

ـ ستحصلين عليه ، ويجب أن تفعلى . أنت أدرى بالسبيل . يجب أن تحصلى عليه لتلك التى هى مالكته الحقة . باندى ماترم! هاتان هما الكلمتان السحريتان اللتان ستفتحان باب خزانته الحديدية وتخترقان جدران حجرته المحصنة ؟ وتنزلان الرعب فى قلوب من لا يؤمن بهذا النداء . قولى يا ملكة : باندى ماترم !

ـ باندى ماترم !

الفصل السابع

حكاية سنديب

- ٨ -

نحن رجال ، نحن ملوك فيجب أن نأخذ الجزية . منذ جئنا الى الارض ونحن نسلبها ، وكلما أمعنا فى الطلب أمعنت فى الوضوح . منذ أقدم العصور كنا نحن الرجال نقطف الثمار ونقطع الاشجار ونقلب الارض ونقتل الوحش والطير والسمك . انتزاع ثم انتزاع — من قاع البحر ، من أعماق الارض ، من بين أنياب الموت نفسه . لم يحترم صندوق مغلق فى خزانة الطبيعة ولا ترك غير منهوب .

والمسرة الوحيدة لهذه الارض هى أن تفى بما يطلبه الرجال . لقد أخصبت وجملت وكملت خلال تضحياتها التى لا تنتهى من أجلهم ، ولولا ذلك لضاعت فى القفار ولم تعرف نفسها : أبواب قلبها مغلقة ، وماساتها ولآلئها لا ترى النور .

وكذلك فتحنا نحن الرجال كل مكنونات النساء بقوة مطالبنا وحدها . وفى استسلامهن لنا كسبن دائما عظمتهن الحقة ، ولأنهن ألزمن أن يجلبن كل ماسات سعادتهن ولآلىء حزنهن الى خزانتنا الملكية وجدن ثروتهن الحقة . فأن يتقبل الرجال هو حقا أن يعطوا ، وأن تعطى النساء هو حقا أن يكسبن .

على أن مطلبى من بيمالا لهو مطلب كبير ! وقد شعرت بشىء من التحرج أول الأمر ، أليس من عادة عقل الرجل أن يكون فى صراع غير مجد مع نفسه ؟ خلت انى كلفتها أمرا عسيرا . وكان أول ما هممت به أن أناديها لترجع وأخبرها اننى أفضل الا أشقى حياتها بجرها الى كل هذه المتاعب ، ونسيت فى تلك اللحظة أن رسالة الرجل هى أن يعتدى ، أن يجعل وجود المرأة مثمرا باثارة القلق فى

أعماق سجيتها ، أن يبارك الحيـاة كلهـا اذ يمخض هاوية الألم السحيقة ! لهذا كانت يدا الرجل قويتين وقبضته صلبة .

لقـد كانت بيمالا تتوق من كل قلبهـا أن أطلب منهـا ــ أنا سنديب ــ تضحية عظيمة ، أن أدعوها لحتفها . كيف تسعد بغير ذلك ؟ وهل انتظرت كل هذه السنوات المملة الا أن تسنح لها فرصة تبكى حتى يشتفى قلبها ، وهى التى أضجرتها رتابة سـعادتها الهادئة ؟ لهذا لم تكن ترانى حين أظلم أفق قلبها بسحاب ماطر من أيام عذابها المقبل . فلأى غرض اذن ولدت رجلا ان أنا أشفقت عليها وأنقذتها من أحزانها ؟

ان السبب الحقيقى لتحرجى هو أن مطلبى اتفق أن كان مالا ، وفى ذلك معنى الشحاذة ، فان المـال للرجل لا للمرأة . ولهـذا اضطررت أن أرفع الرقم ، فألف أو ألفان يبدوان سرقة حقيرة ، أما خمسون ألفا منها فلها كل اتساع القرصنة الرومانسية .

آه ، لـكن الاموال كان ينبغى حقا أن تكون لى ! كم رغبة لى توقفت مرة بعد مرة وهى فى سبيل التحقيق لا لشىء الا حاجتى الى المـال ! ان هذا لا يليق بى . ولو كان القـدر ظالمـا فحسب لسامحته ، ولـكن فساد ذوقه شىء لا يغتفر . ليس عناء فحسب أن يحار رجل مثلى فى دفع أجرة منزله ، أو يضطر الى عد نقوده لشراء تذكرة قطار فى الدرجة الثانية ــ ان هذا فظيع !

وواضح كذلك ان الضياع التى ورثها نيكهيل ليست بذات فائدة له . فلو كان فقيراً لناسبه ذلك ، ولشد مستبشراً أرسان عربة السوقية الفقيرة هو وأستاذه المبجل .

أتمنى أن تتاح لى مرة واحدة فرصة الالقاء بخمسين ألف روبية فى خدمة بلادى وارضاء نفسى . لقد ولدت « نوابا » وانه لحلم من أحلامى الـكبيرة أن أطرح رداء الفقر هذا ولو يوما واحدا وأرى نفسى على حقيقتها .

على انى أشـك كثيرا فى أن تصل يد بيمالا الى تلك الروبيـات الخمسين ألفا . لعلنا لا نحصل الا على ألف أو ألفين . ان الرجل العاقل يقنع بنصف رغيف ، بل بكسرة ، فذلك خير من ألا يجد خبزا .

يجب أن أعود الى هذه التأملات الشخصية فيما بعد . لقد جاء الخبر أنى مطلوب حالا . هناك عثرة ما ..

يبدو ان الشرطة قد استدلت على الرجل الذى أغرق لنا قارب

ميرجان . انه مجرم عائد ، وهم يتعقبونه الآن ، ولـكن خبـرته ينبغى أن تمنعه من اذاعة الاسرار . ومع ذلك فمن يدرى ؟ ان نيكهيل ثائر ، وقد لايستطيع وكيله أن يدبر الأمور كما يريد .

قال الوكيل حين رأيته : اذا وقعت ياسيـــدى فسأضطر الى جرك معى !

فسألته : وما الحبل الذى يمكنك أن تشدنى به ؟

ـ لدى رسالة منك وعدة رسائل من أموليا بابو .

لم ألاحظ أن الرسالة التى كانت عليها كلمة « عاجل » والتى سارعت بكتابة ردها كان يقصد بها هـذا الفرض وحده على وجه الاستعجال ! لقد بدأت أتعلم أشياء كثيرة .

والنقطـة الآن هى أنه يجب رشـوة الشرطة واسكات ميرجان باعطائه مبلغا من المـال عوضا عن قاربه . وكذلك يظهر أن الجانب الاكبر من ثمن مغامرتنا الوطنية هذه سـيتخذ سـبيله ربحا الى جيوب وكيل نيكهيل . ولـكننى يجب أن أغمض عينى عن ذلك فى الوقت الحاضر . ألا يهتف « باندى ماترم » بمثل حماستى ؟

ان مثل هذا العمل لابد أن يسير بآنية مخروقة يتسرب منهـا أكثر مما تأتى به . وفينا جميعا قدر من الحكم الاخـلاقى مخبوء ومدخر فى باطننا ، ولهذا كدت أسخط على الوكيل وأدخـل فى يومياتى خطبة وعظية فى أن مواطنينا غير جديرين بالثقة . ولـكن يجب أن أقر بالشكر لله ان أعطانى عقلا واضح البصيرة لا يسمح بشىء من الغموض فى داخله أو خارجه . اننى قـد أخـدع غيرى ولـكنى لا أخدع نفسى أبدا . ولهذا لم أستطع أن أسـتمر فى غضبى .

كل ماكان حقيقيا فليس بخير ولا شر ، انما هو حقيقى فحسب ، وذلك هو العلم . ليست البحيرة الا بقيـة من المـاء لم تتشربها الارض ، وتحت عقيـدة « باندى ماترم » ـ وفى قرار كل عمـل فى هـذه الدنيـا ـ هناك منطقـة من الوحـل يجب أن نحسب حساب قدرتها على الامتصاص . سينال الوكيل مطالبـه ، وأنا أيضا لى مطالبى ، وهذه المطالب الاقل هى جزء من مطالب القضية الـكبيرة ، فالحصان يجب أن يطعم والعجلات يجب أن تشحم اذا أريد المزيد من التقدم .

وأول الأمر وآخره اننا يجب أن نحصل على النقود سريعا ، ويجب أن نأخذ ما يصل الى أيدينا أولا لأننا لا نملك أن ننتظر .

وانى لأعلم ان العاجلة قد تذهب بالآجلة ، وان خمسة آلاف روبية اليوم قد تضيع علينا خمسين ألفا غدا ، ولكنى يجب أن أقبل هذا الغرم . الم آخذ على نيكهيل أن الذين يسيرون فى طريق الحكمة ناظرين الى المستقبل لم يعرفوا قط ما التضحية ؟ اننا نحن الطامعين الذين يجب أن نضحى بطمعنا فى كل خطوة !

من كبائر الانسان الرغبة ، هذه كبيرة الرجال الذين هم رجال. أما الضلال فانه للجبناء وحدهم ، وهو للرجال معطل . لأن الضلال يبقيهم مغلفين فى الماضى والمستقبل ، ولكنه هو الشيطان الذى يربك خطاهم فى الحاضر . ان أولئك الذين ينصتون دائما لنداء البعيد مهملين نداء القريب مثلهم كمثل ساكونتالا (١) التىتستغرقها ذكريات حبيبها ، ويأتى الضيف ولايؤبه له، وتنزل اللعنة لتحرمهم مما يرغبون فيه .

منذ أيام ضغطت على يد بيمالا . لا تزال هذه اللمسة تهز نفسها كما تتموج فى نفسى . ويجب ألا يميت هزتها التكرار ، فينزل ما هو الآن موسيقى الى محض جدال . ليس فى عقلها الآن محل للسؤال « لماذا ؟ » وبيمالا هى أحدى تلك المخلوقات التى لا تستغنى عن الوهم ، فيجب ألا أحرمها كفايتها منه .

أما أنا فعملى كثير حتى انى يجب أن أقنع فى الوقت الحاضر بحباب كأس العاطفة . ايه يا ابن الرغبة ! اكبح طمعك ، ودرب يدك على مزهر الوهم حتى تبعث كل لطائف الايماء ، فليس هذا وقت اشتفاف الكأس الى الثمالة .

— ٩ —

عملنا يتقدم بخطا سريعة . ولكننا وان بححنا أصواتنا معلنين أن المسلمين اخوة لنا فقد بدأنا ندرك أننا لن نستطيع أبدا أن نحولهم الى صفنا تماما . فيجب اذن كبحهم كبحا تاما وافهامهم أننا نحن السادة . انهم الآن يكشرون عن نواجذهم ولكن سيأتى اليوم الذى يرقصون فيه كالدببة الاليفة على الانغام التى نعزفها نحن .

لقد اعترض نيكهيل قائلا : اذا كانت فكرة وحدة الهند فكرة حقيقية فالمسلمون جزء ضرورى منها .

---

(١) بعد أن عاد الملك حبيب ساكونتالا الى مملكته ، على وعد أن يبعث فى طلبها ، استغرقها التفكير فيه حتى انها لم تسمع نداء ضيفها الناسك ، فلعنها قائلا بأن من تحبه سينساها نسيانا . (المترجم) .

قلت : أجل . ولكننا يجب أن نعرف مكانهم ونلزمهم اياه ، والا فسوف يثيرون المتاعب دائما .

ـ اذن فأنت تريد أن تثير المتاعب لتمنع المتاعب ؟

ـ وما خطتك اذن ؟

فقال نيكهيل ملمحا : ليس هناك الا طريق واحد معروف لتجنب النزاع .

انى أعلم أن حديث نيكهيل ينتهى دائما بحكمة ، كالحكايات التى يكتبها النـــاس الطيبون . وأعجب ما فى الأمر انه لايزال يؤمن بالمبادىء الخلقية مع علمه التام بها . فهو لا يمكن أن يخرج أبدا عن حدود التلميذ ، وفضيلته الوحيدة هى اخلاصه . ومصيبة أمثاله هى أنهم لايريدون الاعتراف بأن ثمة نهـاية حتى فى الموت نفسه ، بل يبقون عيونهم مشدودة أبدا الى الآخرة .

وقد كنت أفكر منذ زمن بعيد فى خطة لو استطعت تنفيذها لأرسلت فى البلاد كلها ضراما . فالوطنية الحقة لا يمكن أن تبعث فى أبناء بلادنا الا اذا استطاعوا أن يتمثلوا صورة الوطن . يجب أن نتخذ من الوطن معبودا .

وقد أدرك زملائى على الفور ما أعنيه فصاحوا : « فلنتخيل صورة مناسبة ! » فوعظتهم : « لن يصلح الأمر اذا تخيلتموها . يجب أن نأخذ صورة من الصور الشائعة التى تعد ممثلة للوطن ، فتتجه عبادة الشعب نحوها فائضة فى مجارى العادة العميقة » .

ولكن نيكهيل يأبى الا أن يجادل حتى فى هذا . قال لى منذ مدة : يجب ألا نستعين بالاوهام على ما نؤمن أنه الحق .

قلت : الاوهام لازمة للعقول المحدودة ، وهذه هى الطبقة التى ينتمى اليها القسم الاكبر من العالم . لهذا تقام الآلهة فى كل بلد حتى تحافظ على أوهام الشعب ، فان النـــاس يشعرون أتم الشعور بضعفهم .

فأجاب : كلا . بل اننا محتاجون الى الله ليبدد أوهامنا . أما المعبودات التى تستبقى الحياة لأوهامنا فانها آلهة باطلة .

ـ وأى ضير فى ذلك ، ان لم يكن بد فلندع الآلهة الباطلة نفسها ولا ندع عملنا يفشل . من سوء حظنا أن فى أوهامنا قدرا كافيا من الحياة ولكننا لا نعرف كيف نستغلها . انظر الى البراهمة . اننا نعاملهم كأنهم أنصاف آلهة ولا ننفك نمسح التراب عن أقدامهم ولكنهم قوة توشك أن تضيع .

ستبقى أبدا طبقة كبيرة من الناس دأبهم التذلل ، لايمكنك أن تدفعهم الى عمل شيء أبدا الا اذا تلوثوا بتراب قدمى شخص ما ، سواء اكان على رءوسهم أم على ظهورهم ! فأى خسارة بعد أن احتفظنا بالبراهمة فى مخزن أسلحتنا طوال هذه العصور — مشحوذين صالحين للخدمة — ألا تستطاع الاستفادة منهم لتحريك هذه الغوغاء فى وقت حاجتنا !

ولكن اقناع نيكهيل بهذا كله أمر محال . فان فى نيكهيل تعصبا للحق — كأنما يمكن أن يوجد واقع موضوعى كهذا ! وكم من مرة حاولت أن أشرح له أنه حيث يوجد الباطل وجودا حقيقيا فانه يكون هو الحق . لقد كان هذا مفهوما فى بلادنا فى الازمان الماضية، ومن ثم وجدوا الشجاعة ليعلنوا أن الباطل هو الحق لضعاف الافهام . فالذين يمكنهم أن يؤمنوا حقا بأن بلادهم الهة معبودة أولئك تقوم صورتها عندهم مقام الحقيقة . ان طبيعتنا وتقاليدنا تجعلنا عاجزين عن ادراك بلادنا كما هى ، ولكننا نستطيع أن نصل فى سهولة الى الايمان بصورتها وعلى الذين يريدون أن يعملوا عملا صحيحا ألا يتجاهلوا الحقيقة .

غير أن نيكهيل ثار . وصاح : لأنك فقدت القدرة على السير فى طريق التماس الحق فأنت لا تزال تترقب معجزة ، هبة تهبط عليك من السماء . لهذا فان كل ما تستطيع أن تفكر فيه حين تأخرت فى خدمة بلادك قرونا هو أن تتخذ منها صنما وتمد يديك منتظرا منه الهبات .

قلت : اننا نريد أن نصنع المستحيل ، ولهذا يجب أن نتخذ بلادنا الها .

فأجاب نيكهيل : تعنى أنك مشفق من الاعمال الممكنة . ما هو قائم فعلا فليترك ولا يمس ، لكن يجب أن تكون ثمة نتيجة خارقة للطبيعة .

قلت أخيرا وقد استبد بى الغضب : اسمع يا نيكهيل . ان ما تقوله قد يصلح دروسا أخلاقية ، هذه الافكار قد استنفدت أغراضها فى مرحلة من تطور الانسان ، كاللبن للرضع ولكنها لا تصلح الآن وقد نبتت للانسان أسنان .

ألسنا نرى أمام أعيننا كيف تنبثق فى كل جانب أشياء لم نحلم قط بأن نلقى بذورها ؟ فبأى قوة ظهرت ؟ بقوة ألوهية بلدنا التى أخذت تتجلى . وعلى عبقرى هذا العصر أن يمنح الالوهية صورتها ،

والعبقرية لا تجادل بل تخلق . ما أنا الا معط الشكل لما تتخيله البلاد .

سأذيع على الملأ أن الالهة اصطفتنى بحلم . سأقول للبراهمة أنهم اختيروا كهنة لها ، وان سبب سقطتهم هو اهمالهم الواجب فى رعى عبادتها . أتقول انى أتفوه اذن بأكاذيب ؟ ولكنى أقول لا ، انها الحقيقة ، بل أكثر من ذلك ، انها الحقيقة التى طالما انتظرت البلاد أن تعلمها من شفتى . لئن تمكنت من ابلاغ رسالتى لترين العجب من فعلها .

قال نيكهيل : الذى أخشاه هو أن عمرى محدود ، وأن الفعل الذى تتحدث عنه ليس بالفعل الاخير ، فسوف تكون له آثار لاتظهر فى الحال . قلت : انما أبحث عن الفعل الذى ينتمى الى اليوم .

فأجاب نيكهيل : أما الفعل الذى أبحث عنه فينتمى الى الزمن كله .

لعل نيكهيل نال قسطه من موهبة البنغال العظمى . أعنى الخيال، ولكنه سمح لنوع من التحرج أجنبى عنه أن يحجبه حتى كاد يقتله . انظر الى عبادة « درجا » التى رفعتها البنغال الى تلك المنزلة العليا . اننى أستطيع أن أقسم على أن درجا الهة سياسية تصورت فيها روح البطولة أيام كانت البنغال تتضرع للخلاص من سلطان المسلمين . فأى اقليم آخر فى الهند استطاع أن يعبر عن المثل الاعلى الذى ينشده كروعة هذا التعبير المنظور .

لم يكشف عن فقد نيكهيل لنعمة الخيال المقدسة مثل رده على اذ قال : لقد طاب المراثا والسيخ الثمار من الاسلحة التى حملوها هم أنفسهم ، أما البنغالى فانه اكتفى بوضع الاسلحة فى يدى الهته والتمتمة بالأدعية لها . ولأن بلاده لم تكن الهة حقا فقد كانت الثمرة الوحيدة التى حصل عليها هى الرءوس المقطوعة ، رءوس الماعز والجاموس المضحى بها . أما يوم أن نطلب خير بلادنا من الطريق المستقيم فسيمنحنا الثمار الحقة من هو أكبر من بلادنا .

الشىء المؤسف هو أن كلمات نيكهيل تبدو جميلة حين توضع على الورق ولكن كلماتى لا يراد بها أن تخط على الورق بل أن ترسم فى قلب البلاد . ان البانديت يسجل « مقالته عن الزراعة » بحبر المطبعة ، ولكن الزارع بسن محراثه يطبع مجهوده عميقا فى الارض .

عندما رأيت بيمالا فى المرة التالية لم أحجم عن رفع النغمة الى طبقة عالية . فبدأت بقولى : هل استطعنا أن نؤمن من كل قلوبنا بالاله الذى ولدنا كل هذه الملايين من السنين لنعبده ، حتى تجلى لنا آخر الأمر ؟

ومضيت قائلا : طالما قلت لك اننى لو لم أرك لما استطعت أبدا أن أعرف بلادى كلها على أنها « واحد » . لست أدرى بعد ان كنت تفهمين ما أعنيه . ان الآلهة تكون غير مرئية فى سمائها فقط — أما على الارض فانها تظهر نفسها للبشر .

فنظرت بيمالا الى نظرة غريبة وهى تجيب بوقار : بل اننى أفهمك ياسنديب . وكانت هذه هى أول مرة تنادينى فيها « سنديب » مجردا .

ومضيت أقول : ان كريشنا الذى لم يكن أرجونا يعرفه عادة الا على أنه سائق عربة ، كانت له أيضا صورته الكونية ، وقد رأى أرجونا هذه الصورة أيضا ذات يوم . وفى ذلك اليوم رأى الحق . لقد رأيت صورتك الكونية فى بلادى . ان الكنج والبراهما هما سلاسل الذهب التى تلتف وتلتف حول عنقك ، وفى الغابات التى تحف بالشواطىء البعيدة لمياه النهر الداكنة رأيت أهدابك المكحلة ، وبريق ساريك القلاب يلمع أمامى فى لعب النور والظل على أعواد القمح الاخضر المتمايلة ، وحرارة الصيف المتقدة التى تجعل السماء كلها ترقد لاهثة كأسد أحمر اللسان فى الصحراء ما هى الا ضياؤك القاسى .

واذا أنعمت الآلهة على عبدها بتجليها فى هذا المظهر الرائع فعلى أن أعلن عبادتها فى طول البلاد وعرضها ، وعند ذلك سوف تكون للبلاد حياة جديدة . « فى معبد بعد معبد نصنع صورتك » (١) ولكن شعبنا لم يدرك ذلك بعد حق الادراك . لهذا أريد أن أدعوهم باسمك وأقدم لعبادتهم صورة لايستطيع أحد أن يضن عليها باعتقاده . امنحينى تلك النعمة وذلك السلطان .

مالت أهداب بيمالا الى أسفل وتصلبت فى كرسيها كتمثال من الحجر . فلو مضيت فى كلامى لأصابتها غيبوبة . وعندما سكت فتحت عينيها واسعتين وتمتمت وهى شاخصة ببصرها كأنها غائبة

(١) بيت من النشيد الوطنى « باندى ماترم » لبانكيم تشاترجى .

عن الوعى « أيها المسافر فى طريق الهلاك ! منذا الذى يستطيع صدك ؟ ألست أرى ان أحدا لن يقف فى سبيل رغباتك ؟ سيضع الملوك تيجانهم عند قدميك ، ويسارع الاغنياء بفتح خزائنهم لمرضاتك ، والذين لا يملكون غير حياتهم سيضرعون أن يؤذن لهم بتقديمها . يا مليكى ، يا الهى ! أنا لا أدرى ماذا رأيت فى ، ولكنى رأيت جلال عظمتك فى قلبى . من أنا أو ما أنا فى محضرها ؟ يالقوة التدمير الرهيبة ! اننى لن أعرف الحياة الحقيقية أبدا حتى تقتلنى وتمحقنى ! اننى لم أعد أستطيع احتمالها . قلبى ينشق.

وانزلقت بيمالا عن كرسيها وترامت عند قدمى . وعانقتهما وراحت تبكى وتبكى وتبكى .

هذه هى المغناطيسية حقا ، السحر الذى يمكنه أن يخضع العالم! لا مادة ولا أسلحة بل ضلال الايحاء الذى لا يقاوم . منذا الذى يقول : « ان الحق سينتصر ؟ » (١) الضلال هو الظافر فى النهاية. لقد فهم البنغالى ذلك حين تخيل صورة الالهة ذات الرءوس العشرة ممتطية صهوة أسدها ، ونشر عبادتها فى البلاد. يجب أن تخلق البنغال الآن صورة جديدة لتسحر العالم وتغزوه . باندى ماترم !

رفعت بيمالا برفق الى مقعدها ، ولكيلا يظهر رد الفعل رحت أقول دون أن أضيع وقتا : يامليكتى ! لقد كلفتنى الأم المقدسة أن أؤسس عبادتها فى البلاد ، ولكنى — ويا للأسف فقير .

وكانت بيمالا لا تزال متضرجة الوجه ، غائمة العينين غليظة النبرات ، حين أجابت : أنت فقير ! أليس كل ما يمتلكه كل واحد هو لك ؟ لماذا تمتلىء صناديقى بالحلى ؟ خذ منى كل ذهبى وجواهرى لعبادتك . فليس لها فائدة عندى !

لقد عرضت بيمالا على حليها من قبل ، ومع انى لم أتعود وضع الحدود فقد وجدت من الضرورى أن أضع حدا فاصلا هنا (٢) وانى لأعلم لماذا أشعر بهذا التردد ، فالرجل هو الذى يجب أن يقدم

---

(١) اقتباس من الاوبانيشاد .

(٢) هناك عالم من العواطف يرتبط بالحلى التى تلبسها المرأة فى البنغال . فهى لا تشير الى حب المعطى واحترامه فحسب ، بل ان لبسها يرمز لكل معنى عزيز فى الزوجية : لعناية الزوجة الدائمة بخبر زوجها ، لقيامها بواجبات المنزل المادية والروحية الموكولة الى رعايتها . وعندما يموت الزوج وتنتقل المسئولية عن المنزل الى امرأة أخرى تهجر الحلى كلها علامة على ابتعاد الارملة عن مشاغل الدنيا .. والتخلى عن الحلى فى غير هذه الحالة هو دائما علامة شقاء بالغ . ولذا يثير شهامة أى بنغالى يتفق أن يراه (المترجم) .

الحلى للمرأة ، وأن يأخذها منها جرح لرجولته .

ولكننى يجب أن أنسى ذاتى . هل «أنا» الذى آخذها ؟ انها للأم المقدسة ! كي تصب عند قدميها عبادة لها . ولكن يجب أن يكون حفلا للعبادة لم تر البلاد مثيلا له من قبل . يجب أن يكون يوما مذكورا فى تاريخنا . ليكونن تراثى الاكبر الذى أتركه للأمة . ان الجهلاء يعبدون الآلهة ، وأنا ــ سنديب ــ سأخلقها .

ولكن هذا كله شأو بعيد . فماذا عن الأمر العاجل ؟ اننا بحاجة ماسة الى ثلاثة آلاف على الاقل ، ولو كانت خمسة لوفت بما نريد. ولكن كيف لى أن أذكر النقود بعد أن حلقنا هذا التحليق ؟ ومع ذلك فان الوقت ثمين !

دست كل تردد تحت قدمى حين هببت واقتحمت الموقف :

ــ يا ملكة ، ان كيسنا فارغ ، وعملنا يوشك أن يتوقف !

وأجفلت بيمالا . واستطعت أن أرى انها لاتزال تفكر فى تلك الخمسين ألفا المتعذرة . أى حمل ــ ولاشك ــ كان يثقل صدرها ، ولعلها كانت تكابده خلال ليال مسهدة ! وأى شيء آخر لديها لتعبر عن عبادتها التى ملؤها الحب ؟

لقد حيل بينها وبين أن تقدم قلبها عند قدمى ، فهى تتوق الى أن تحمل هذا القدر من المال الذى تئودها ضخامته رسالة مشاعرها الحبيسة . أن التفكير فيما لابد قد عانته يبعث فى وخزة ألم . فانها اليوم كلها لى . لقد ذهبت شدة اقتلاع النبات من الجذور ، وكل ما بقى الآن هو تعهده بالرعاية والغذاء .

قلت : يامليكتى ! هذه الخمسون ألفا غير لازمة الآن . خمسة آلاف بل ثلاثة ــ على ما أقدر ــ يمكن أن تكفى فى الوقت الحاضر .

وثب قلبها من فرحة الخلاص . قالت : سأحضر لك خمسة آلاف ــ فى نبرات كأنها انطلاق أغرودة ، الاغرودة التى أنشدتها راديكا فى أغانى الفياشنافا :

« لحبيبى سأعقد فى شعرى
زهرة لا نظير لها فى العوالم الثلاثة ! »

نفس النغمة ونفس الاغنية : خمسة آلاف سأحضر لك ! تلك الزهرة سأعقد فى شعرى !

ضيق الناى يحلب هذه الغنائية . يجب الا أسمح لضغط الطمع أن يفرطح القصبة والا فانى أخشى أن تحل محل الموسيقى هذه الاسئلة : لماذا ؟ فيم يلزم هذا كله ؟ من أين أحصل عليه ؟ ــ ولا

كلمة واحدة من هذا تتفق قافيتها مع أغنية راديكا ! لهذا أقول : ان الوهم وحده هو الواقع ــ انه النــاى نفســه ، أما الحقيقة فليست الا جوفه الفارغ . لقد بدأ نيكهيل أخيرا يشعر بهذا الفراغ المطلق ــ انه ظاهر فى وجهه وهذا شيء مؤلم ، حتى لى أنا . ولكن نيكهيل كان يفخر بأنه يطلب الحقيقة ، بينما كان فخرى بأنى لن أدع الوهم يفلت من قبضتى أبدا. وكل نال مايهواه ، فلم الشكوى ؟

ولـكى أستبقى قلب بيمالا فى هواء المثالية المنقى قطعت كل حديث آخر فى الخمسة آلاف روبية . وعدت الى الالهة ماحقة الشياطين وما ينبغى لها من العبادة . متى يقام الحفل وأين ؟ ان ســوقا سنوية كبيرة تعقد فى « رويمارى » داخل امارة نيكهيل ، ويجتمع فيها مئات الالوف من الحجاج . سيكون هذا مكانا رائعا لادخال عبادة الهتنا !

واشتعلت حماسة بيمالا . لم يكن هذا احراقا للأقمشة الاجنبية أو لبيادر النــاس فلن يكون لنيكهيل نفسه اعتراض ما . هكذا فكرت ، ولـكنى ابتسمت بينى وبين نفسى . ما أقل ما يعرف هذان الشخصان عن أحدهما الآخر ، هذان الشخصان اللذان عاشا معا ليل نهار ، تسع سنوات كاملة ! لعلهما يعرفان شيئا عن حياتهما البيتية ، ولـكنهما اذا جاءا الى المشاغل الخارجية ضـلا ضـلالا مبينا . لقد كانا مطمئنين الى الاعتقــاد بتمام الانسجام بين البيت والخارج ، وهما اليوم يعلمان ــ لخسارتهما ــ ان الوقت قد فات بحيث لايستطاع اصلاح اهمال السنين ، وايجاد الانسجام بينهما الآن .

وما قيمة ذلك؟ فليعرف المخطئون خطأهم حين يصطدمون بالعالم. ماذا يعنينى أنا من ارتباكهم ؟ اننى الآن أجد من الممل ترك بيمالا تحلق طويلا « كنفاخة » أسيرة فى أجواء أثيرية . الافضل أن أفرغ تماما من الأمر الذى فى يدى .

حين نهضت بيمالا منصرفة وكادت تبلغ الباب قلت أشد ما أكون عدم اكتراث : اذن فالنقود ..

فتوقفت بيمالا وواجهتنى مرتدة وهى تقول : عند نهاية الشهر، حين تستحق رواتبنا ..

ــ أخشى أن يكون الوقت قد فات .

ــ متى تريدها اذن ؟

ــ غدا .

ــ غدا تأخذها .

الفصل الثامن

حكاية نيكهيل

— ١٠ —

بدأت الصحف المحلية تنشر فقرات ورسائل ضدى ، وقد سمعت أن الصور الكاريكاتورية والمقطوعات الهجائية آتية على الاثر . والنكات والفكاهات تتناثر هنا وهناك ، والبلاد كلها ثائرة للأكاذيب التى تنشر على هذا النحو : هم يعلمون أن لديهم احتكار القذف بالوحل ، ولا يمكن أن ينجو العابر البرىء دون أن يلوث .

هم يقولون ان سكان امارتى بقضهم وقضيضهم مؤيدون « للسواديشى » ، ولكنهم لايجرؤون على الظهور خوفا منى ، والقليلون الذين وجدوا الشجاعة الكافية ليتحدونى قد شعروا بوطأة اضطهادى . وثمة اتفاق سرى بينى وبين الشرطة ، واتصال شخصي بينى وبين قاضى التحقيق . ويعتقد أن جهودى الجنونية لاضافة لقب أجنبى من كسبى الى اللقب الذى ورثته لن تذهب سدى .

ولكن الصحف مملوءة بالمديح لأولئك الأبناء البررة للوطن ، ملاك الاراضى من آل « كوندو » و « تشاكرافارتى » ولو كان فى البلاد ــ كما يقولون ــ عدد قليل آخر من مثل هؤلاء الوطنيين المخلصين لندبت مصانع منشستر نفسها على نغمة «باندى ماترم».

ثم تأتى رسالة بالحبر الاحمر الدموى تسرد أسماء ملاك الاراضى الخونة الذين أحرقت خزائنهم لأنهم امتنعوا عن تأييد القضية . وتمضى الرسالة لتقول : ان النار المقدسة قد بعثت لتؤدى وظيفتها السامية فى تطهير البلاد ، وان ثمة هيئات أخرى تعمل أيضا لمنع أولئك الذين ليسوا بأبناء أوفياء للوطن من الاثقال على حجره .

والتوقيع ظاهر انه اسم مستعار .

ولم يخف على أن هــذا من فعل طلاب الاقاليم . فبعثت الى بعضهم وأريتهم الرسالة .

فأنبأنى طالب البكالوريوس عابسا أنهم قد سمعوا أيضــا بأن عصبة من الوطنيين المستقلين قد تكونت وأنهم لن يحجموا عن شيء فى سبيل ازالة كل العقبات التى تعترض نجاح « السواديشى » .

قلت : لو خضع واحــد من مواطنينا لهؤلاء المغامرين الادعيــاء لتكونن هذه هزيمة للبلاد !

فقال طالب التاريخ : اننا لا نفهم ماذا تعنى يامهراجا .

فحاولت أن أشرح : لقد أشرفت بلادنا على الموت بسبب الخوف وحده — من خوف الآلهة الى خوف الشرطة . واذا أسستم باسم الحرية خوف غول جديد مهما يكن اسمه ، واذا أردتم أن ترفعوا علمكم الظافر على جبين البلاد بوسيلة القهر الصريح ، فلن يستطيع محب صادق للوطن أن يخضع لقراركم .

فاستمر طالب التاريخ يقول : هل ثم بلد من البــلاد ياسيدى يكون فيه الخضوع للحكومة غير ناشيء عن الخوف ؟

فأجبت : ان الحرية التى توجد فى بلد ما يمكن أن تقاس بمدى سلطان الخوف هذا . فحيث يكون تهديده مقصورا على أولئك الذين يميلون الى الاضرار أو السلب تستطيع الحكومة أن تدعى أنها حررت الانسان من عدوان الانسان . ولكن اذا كان الخوف هو الذى يقرر ماذا يلبس الناس أو أين يتاجرون أو ماذا يأكلون فهنا تكون حرية ارادة الانسان غير معترف بها على الاطلاق ، ومعنى الانسانية قد أتاف من الجذور .

وعاد طالب التاريخ يقول : ألسنا نرى مثل هذا القهر للارادة الفردية فى البلاد الاخرى أيضا ؟

فقلت : ومن ينكر ذلك ؟ ولكن الانســان فى كل بلد قد أهلك نفسه بقدر سماحه للعبودية أن تزدهر .

وتدخل ماجستير فى الآداب قائلا : أليس هذا أدعى الى اثبــات ان النخاسة فطرة فى الانسان — حقيقة أساسية فى طبيعته ؟

وقال أحد الخريجين : لقد أوضح ســنديب بابو الأمر كله . فضرب لنا مثلا بهاريش كوندو ، المالك المجاور لكم . انك لاتستطيع أن تخرج أوقية واحدة من الملح الاجنبى من ولايتــه . لماذا ؟ لأنه ظل يحكم دائما بيد من حديد . ان أكبر المصائب لمن هم بطبعهم

عبيد هى ألا يكون لهم سيد قوى .

وجاراه فى نغمته طالب لم يتخرج بعد : ألم تسمع ياسيدى بذلك المؤاجر المزعج عند تشاكرا فارتى ، المالك الآخرالغريب ــ كيف سلط عليه القانون حتى انتهى الى الفقر المدقع ؟ ولما لم يجد ما يأكله آخر الأمر لجأ الى بيع حلى زوجته الفضيــة ، ولــكن أحدا لم يجرؤ على شرائها . ثم عرض عليه وكيل تشاكرا فارتى خمس روبيات فى الجميع ، وكانت تساوى ثلاثين ، ولــكنه كان مضطرا أن يقبل أو يموت جوعا . وبعد أن أخذ الوكيل منه الصرة قال له ببرود ان هذه الروبيات الخمس ستخصم من ايجاره ! وقد هممنا أن نقطع كل صلاتنا بتشاكرا فارتى ووكيله بعد هذا ، ولــكن سنديب بابو قال لنا اننا لو أقصينا كل الاحياء فلن نجد الا جثثا من المحارق لنواصل العمل معها !

وأوضح لنا أن هؤلاء الرجال الاحياء يعرفون ماذا يريدون وكيف يحصلون عليه ، فقد ولدوا سادة . أما أولئك الذين لايعرفون كيف تكون لهم رغائبهم فانهم يجب أن يعيشوا وفقا لرغبات أمثال هؤلاء أو يموتوا من أجلها . وقارن سنديب بابو بينهما ــ كوندو وتشاكرا فارتى ــ وبينكم يامهراجا . وقال انكم على نبل مقاصدكم لن تنجحوا فى غرس « السواديشى » فى ولايتكم .

قلت : ان رغبتى هى أن أغرس شيئا أعظم من «السواديشى» . اننى لا أريد أخشابا ميتة بل أشجارا حية ، وهذه تحتاج الى وقت لتنمو .

فقال طالب التاريخ مستهزئا : أخشى ياسيدى ألا تحصل على خشبة ولا شجرة . ان سنديب بابو يعلمنا ــ وتعليمه الحق ــ أن من أراد الحصول على شىء فعليه أن ينتزعه . وكلنا نحتاج الى وقت لنتعلم هذا ، فهو مناقض لما لقناه فى المدرسة . لقد رأيت بعينى أن جابيا من جباة هاريش كوندو حين لم يجد عند مؤاجر شيئا يباع ليفى بالايجارة عمد الى بيع زوجته الشابة ! ولم يعوزه المشترون ، ونال المالك ما طلب . الحق أقول لك ياسيــدى : ان منظر مصيبة هــذا الرجل قد منع منى النوم ليالى ! ولكننى على الرغم من تأثرى أدركت أن من يعرف كيف يحصل على النقود التى يطلبها ولو ببيع زوجة مدينه هو رجل أفضل منى . وانى لأعترف ان ذلك فوق طاقتى ، فانى ضعيف ، تمتلىء عيناى بالدموع . لئن كان فى مقدور أحد أن ينقذ بلادنا ليكونن أمثــال كوندو وتشاكرا

فارتى وموظفيهما هم منقذيها !

لقد جزعت لما سمعته جزعا تقصر عنه الكلمات ، وصحت : ان كان ما تقوله حقا فانى أرى جليا أن جهد حياتى يجب ألا ينصرف لشيء غير انقاذ البلاد من أمثال كوندو وتشاكرا فارتى وموظفيهما هؤلاء . ان العبودية التى نفذت الى عظامنا تنطق فى هذه الفرصة استبدادا فظيعا . لقد تعودتم الخضوع للسلطة من طريق الخوف حتى آمنتم ان اخضاع الآخرين دين . ليكونن صراعى ضد هذا الضعف ، ضد هذه القسوة .

هذه الاشياء التى تبدو بسيطة للناس العاديين تلتوى فى عقول أصحاب البكالوريوسات والماجستيرات عندنا ، وكأن الفرض الوحيد من مناقشاتهم التاريخية هو ازهاق الحق .

— ١١ —

اننى حائر فى أمر زوجة عم بانشو المزيفة . فمن العسير اثبات كذب أدعائها ، لأن الحادثة الحقيقية قد يكون شهودها قليلين أو معدومين ، ولكن من الممكن دائما أن تحشد براهين لا تحصى على شيء لم يحدث . وظاهر أن الفرض من هذه الخطوة هو جعل بيع منزل بانشو الى كأن لم يكن .

ولما لم أجد مخرجا آخر فكرت أن أقطع بانشو مكانا فى أرضى وأسمح له باقامة كوخ عليه . ولكن أستاذى أبى على ذلك ، وقال اننى يجب ألا أنهزم أمام تلك الاساليب الوضيعة بهذه السهولة ، وتطوع أن يتولى الأمر بنفسه . فصحت بدهشة شديدة : أنت ياسيدى !

فأجاب : نعم أنا .

ولم أستطع أن أرى بشيء من الوضوح ماذا عسى أن يفعل أستاذى ليفسد هذه الحيل القضائية . وفى ذلك المساء لم يظهر فى الوقت الذى تعود أن يجيئنى فيه . وحين سألت عنه قال خادمه انه غادر المنزل ومعه أشياء قليلة فى حقيبة صغيرة ، وفراش خفيف ، قائلا : انه سيعود بعد أيام ، فحسبته خرج ليبحث عن شهود فى قرية عم بانشو . ولكننى كنت موقنا انه ان كان هذا مطلبه فلن يظفر بطائل . .

فى أثناء النهار نسيت نفسى فى عملى . حين يكتهل نهار الخريف تربد ألوان السماء ، وكذلك مشاعر نفسى . كثيرون فى هذه الدنيا

تقيم نفوسهم فى منازل مبنية بالآجر ، فهم يستطيعون أن يتجاهلوا ما يسمى بالخارج . ولـكن نفسى تعيش فى الخلاء تحت الاشجار، وتستقبل الرسائل التى تحملها الرياح الطليقـة دون وسـاطة ، وتستجيب من أعماق قلبها لـكل ترانيم النور والظلام .

فى اشراق النهـار حين تتزاحم الدنيا سعيا وراء أعمالها التى لا تحصى ، يبدو لى أن حياتى لا تريد شيئا آخر . لـكن حين تذوى ألوان السماء وتقفل العرش على نوافذها يقول لى قلبى : ان المساء لا ينزل الا ليحجب الدنيا ، ليحدد الوقت الذى يجب أن يمتلىء فيه الظلام « بالواحد » . هـذه هى الغاية التى تتآمر من أجلها الارض والسماء والمياه ، ولست بقادر على أن أقسى احساسى بحيث لا أتقبل معناها . لذلك حين يعمق الغسق فوق الدنيا كرنوة عيون المحبوبة السود يقول لى وجودى كله ان العمل لايمكن أن يكون هو وحده حقيقة الحياة ، وان العمل ليس كل ما فى الانسان ولا كل ما ينتهى اليه الانسان ، فالانسان ليس عبـدا فحسب ، ولو كانت عبودية للحق والخير .

وا حسرتاه يا نيكهيل ! هل فارقت الى الابد ذاتك تلك التىكانت تنطلق تحت ضوء النجوم ، لتغوص فى أعماق ظلمة الليل اللانهائية بعد أن ينتهى النهار ؟ ما أشد وحشة الذى يفتقد الرفيق فى زحمة الحياة .

منذ أياموقد بلغ الاصيل نقطة التقاء النهار بالليل لم يكن لدى عمل ولا ميل اليه ، ولم يكن أسـتاذى معى ليؤنسنى . وبقلب خاو تائه يتوق ألى أن يرسو على شىء ما قادتنى خطاى الىالحدائق الداخلية . وكنت مولعا بالاقاحى ، لدى صفوف منها على اختلاف أنواعها مرصوصة فى أصص بحذاء حائط من سور الحديقة ، وكانت حين تزهر تبدو كموجة من الخضرة تتكسر زبدا قزحيا . لقد مضى وقت لم أذهب فيه الى ذلك الجانب من الارض ، ومنيت نفسى بلقاء أقاحى بعد فراقنا الطويل .

وحين دخلت كان البدر قد أطل ــ ولما يكد ــ من فوق السور ، وأشعته المائلة تترك أسفل السور فى ظل عميق . وبدا كأنه جاء من الخلف على أطراف أصابعه ، ووضع كفيه على عينى الظـلام وهو يبتسم بخبث . ولما اقتربت من صفوف الأقاحى رأيت أمامها شبحا ممددا على العشب . ودق قلبى دقة عنيفة مفاجئة ، كما أن الشبح قعد مستوفزا لوقع خطاى .

كيف العمل بعد ذلك ؟ كنت أسأل نفسى : هل يحسن أن أسرع بالانسحاب ؟ وكذلك كانت بيمالا ولاشك تتلمس سبيلا للهرب . ولكن الذهاب لم يكن أقل احراجا من البقاء ! وقبل أن أعزم على أمر نهضت بيمالا وجذبت طرف ساريها على رأسها ومضت الى الحجرات الداخلية .

كانت هذه الوقفة القصيرة كافية لاشعارى بفداحة ما تتحمله بيمالا من شقاء . فزال منى الرثاء لحياتى أنا فى لحظة ، وناديت : بيمالا !

فانتبهت وتوقفت ، ولكنها لم تلتفت . ودرت حتى واجهتها . كان وجهها فى الظل ، ونور القمر على وجهى ، وكانت عيناها منكستين ويداها مطبقتين .

قلت : بيمالا ! ما الذى يدعونى الى أن أسجنك فى قفصى هذا المغلق ؟ ألست أعلم ان هذا لن يكون الا سببا لذبولك وانكسارك ؟

فظلت ساكنة لا ترفع عينيها ولا تنطق بكلمة .

فمضت أقول : أنا أعلم انى لو صممت على ابقائك أسيرة فلن تكون حياتى كلها الا قيدا من حديد . فأى مسرة لى فى ذلك ؟

فلم تخرج عن صمتها . وأنهيت مقالى : لهذا أقول لك حقا يا بيمالا : أنت حرة .

وعلى ذلك ذهبت الى الحجرات الخارجية .

لا ، لا . لم يكن أريحية منى ولا عدم اكتراث . ولكنى كنت قد فهمت أخيرا انى لن أكون حرا حتى أعطى الحرية . فلو حاولت أن أبقى بيمالا عقدا حول عنقى لكان معنى ذلك أن أبقى على قلبى ثقلا . ألم أكن أضرع بكل قولى : ان لم تكن السعادة لى فلتذهب، ان كان الشقاء نصيبى فليأت ، لكن لا أبقين فى الاغلال . فلا معنى لأن يمسك المرء بالباطل كما لو كان حقا الا أن يخنق نفسه. ليتنى أقى اهلاك نفسى هذا الهلاك !

عندما دخلت حجرتى وجدت أستاذى ينتظرنى هناك . وكانت مشاعرى المضطربة لا تزال تموج فى باطنى ، فبدأت أقول بغير احتفال بلا تحية ، ولا بسؤال : الحرية ياسيدى هى أعظم ما للانسان ، فلا شىء يمكن أن يوزن بها ، لا شىء على الاطلاق !

وتطلع الى أستاذى صامتا وقد أدهشه انطلاقى المفاجىء .

ومضيت أقول : ان المرء لايستطيع أن يفهم شيئا من الكتب . اننا نقرأ فى الكتب المقدسة أن رغباتنا قيود تغللنا نحن كما تغلل

الآخرين ، ولـكن هذه الـكلمات وحدها لا تعنى شيئا . ولابد لنا أن نصل الى حد اطلاق الطائر من قفصه حتى ندرك كيف جعلنـا الطائر أحرارا . فكل شيء نحبسه يقيدنا برغبة أغلالهـا أقوى من سلاسل الحديد . أقول لك ياسيدى ان هذا هو ما عجز العالم عن أن يفهمه . كلهم يحاولون اصـــلاح شيء خارج أنفسهم ؛ والاصلاح انما يطلب فى رغبات المرء ، لا فى أى مكان آخر، لا فى أى مكان آخر !

قال : نحن نحسب أننا سادة أنفسنا حين تقبض أيدينـا على الشيء الذى نرغبه ــ ولـكننا لا نكون سادة أنفسنا حقا الا حين نستطيع أن نطرح رغباتنا من نفوسنا .

فمضيت أقول : سيدى ، اننا حين نضع هذا كله فى كلمات يبدو أشبه بموعظة سخيفة ، ولـكننا اذا أدركنا ولو بعضا منه وجدناه هو تلك « الأمريتا » التى شربت منها الآلهة وأصبحت خالدة . اننا لا نقدر أن نرى الجمال حتى نرسله من قبضتنا . لقد كان بوذا هو الذى غزا العالم لا الاسكندر . ان هذا يبدو باطلا حين نعبر عنه بكلام منثور جاف . أوه ، متى نستطيع أن نغنيـه ؟ متى تفيض هذه الحقائق الـكونية العميقة من صفحات الكتب المطبوعة وتقفز الى نهر مقدس كنهر الـكنج اذ ينطلق من عليائه المقدسة .

وتذكرت فجأة غياب أستاذى هذه الايام الاخيرة وجهلى بسببه . وشعرت انى أشبه بالاحمق حين سألته : وأين كنت طوال هذه المدة ياسيدى ؟

فأجاب : كنت مقيما مع بانشو .

فصحت : حقا ! أكنت هناك كل هذه الايام ؟

ــ أجـل . أردت أن أنتهى الى اتفـاق مع المرأة التى تسمى نفسها زوجة عمه . كادت لا تصدق انه يمكن أن يوجد بين السادة شخص غريب كذلك الذى تضيفهم . قلت لها : لن تتخلصى منى يا أماه ولو شتمتنى ! وما دمت مقيما فسيقيم بانشو أيضا . ألا ترين انى لا أستطيع أن أقف وأنظر الى أطفاله الذين لا أم لهم يطردون الى الشوارع ؟

ظلت تستمع لمثل هذا الـكلام منى يومين دون أن تقول نعم أو لا . وفى هذا الصـباح وجدتها تربط صررها . قالت : « اننـا عائدتان الى برندابان ، أعطنا مصروفات السفر » . وعلمت أنها غير

ذاهبة الى برندابان وأن أجر رحلتها سيكون كبيرا ، ولهذا جئت أليك .

فقلت : سيدفع الأجر المطلوب .

ومضى أستاذي يقول متأملا : ليست هذه العجوز امرأة شريرة . ان بانشو لم يكن واثقا الى أى طائفة تنتمى ، فأبى أن يسمح لها بلمس جرته أو شيء من أدواته ، ولهذا كانا دائمى الشجار، ولكنها حين وجدتنى لا آبى ذلك عليها خدمتنى باخلاص . انها طباخة ماهرة .

ولكن ما بقي من احترام بانشو قد زال . لقد كان يظننى حتى ذلك الوقت رجلا عاديا على الاقل ، فاذا بى أخاطر بعزة طائفتى دون تحرج لأستميل العجوز الى غرضى . ليس هذا كأن أحاول التغلب عليها باحضار شاهد زور الى المحكمة ، فالمكر يجب أن يقابل بالمكر . أما الحيلة على حساب التقوى فشيء لا يمكن احتماله !

قلت : قد نستطيع انقاذه وقد لا نستطيع ذلك ، ولكننا ان متنا فى سبيل انقاذ بلادنا من الحبائل الكثيرة التى لا يألو هؤلاء القوم جهدا فى نشرها ، حبائل الدين والتقاليد والانانية ، فاننا على الاقل سنموت سعداء .

حكاية بيمالا

- ١٤ -

من كان يظن ان ذلك كله يمكن أن يحدث فى هذه الحياة الواحدة ؟ لكأنى مررت بسلسلة من الولادات ، كان الزمن يمر سريعا سريعا حتى لم أشعر بحركة ، الى أن جاءت الصدمة منذ أيام .

حين عزمت على أن أطلب الى زوجى منع البضائع الاجنبية من سوقنا كنت أعلم ان سيكون بيننا كلام . ولكننى كنت موقنة انى لن أحتاج الى مقابلة الحجة بالحجة ، فقد كان الهواء الذى يحيط بى نفسه مشبعا بالسحر ، ألم يسقط جبار مثل سنديب عاجزا عند قدمى كموجة من البحر العظيم تتكسر على الشاطىء ؟ هل ناديته ؟ لا ، بل ناداه ذلك السحر المحيط بى . وأموليا — ذلك الصبى العزيز المسكين — كيف احمر تيار حياته كالنهر عند الفجر حين جاءنى لأول مرة ! لقد عرفت حقا كيف تشعر الالهة حين تنظر الى وجه عابدها المشرق .

للثقة التى اكتسبتها من هذه الدلائل على قدرتى كنت مستعدة للقاء زوجى كسحابة مشحونة بالكهرباء . ولكن ماذا حدث ؟ لم أر قط طوال هذه السنوات السبع مثل تلك النظرة البعيدة الشاردة فى عينيه — كسماء الصحراء — لا ندى رحيم فيها ولا لون منعكس مما تنظر اليه . ولو انفجر غضبه لشعرت براحة أى راحة ولكنى لم أستطع أن أجد فيه شيئا يمكننى أن ألمسه . شعرت انى كاذبة كحلم ، حلم لن يترك حين ينقضى الا سواد الليل .

فيما مضى كنت أغار من سلفتى لجمالها . ثم سكنت الى الشعور بأن السماء لم تمنحنى قوة خاصة بى ، وان كل قوتى هى فى الحب الذى يغدقه زوجى على . والآن وقد أفرغت كأس القوة حتى الثمالة — ولا غنى لى عن نشوتها — أجدها فجأة محطمة عند قدمى ، لم تترك لى شيئا أعيش من أجله .

كم كنت محمومة حين جلست لأعقص شعرى ذلك اليوم ! أوه ، يا للعار ، ياخجلتى ، يا ما أشد خزيى ! لقد صاحت سلفتى حين مرت بى : « آه تشوتا رانى ، شعرك يكاد ينط . لا تتركيه يحمل رأسك معه » .

ومنذ أيام ، فى الحديقة .. ما أسهل ما قال لى زوجى ، انه يمنحنى حريتى ! ولكن هل الحرية ـ الحرية الفارغة ـ يمكن أن تعطى وتؤخذ بهذه السهولة ؟ ان هذا أشبه باطلاق الحرية لسمكة فى السماء ـ فكيف يمكننى أن أتحرك أو أعيش خارج جو الحب العطوف الذى كان يحيينى دائما ؟

عندما دخلت حجرتى اليوم لم أر غير الأثاث ـ الفراش ، المرآة ، المشجب ـ لا القلب الذى ينفذ الى كل شىء ، والذى كان يهيمن على كل ما هناك . بدلا منه كانت هناك الحرية ، لا شىء غير الحرية ، الفراغ المطلق ! مجرى جاف تعرت صخوره وحصباؤه . لا شعور ، بل أثاث فقط !

حين وصلت الى حالة من الحيرة الشاملة وسألت نفسى ان كان قد بقى فى حياتى شىء صادق وأين عساه يكون ، صادفت سنديب مرة أخرى . وهنا اصطدمت حياة بحياة ، وتطاير الشرر كدأبه فى القديم . هنا كانت الحقيقة ، الحقيقة الهوجاء التى تندفع وتتجاوز كل الحدود ، حقيقة أصدق ألف مرة من البارا رانى ووصيفتها ، وثاكو وأغانيها البلهاء ، وسائر من يتكلمون ويضحكون ويذهبون ويجيئون ..

لقد قال سنديب : خمسون ألفا !

وصاح قلبى المنتشى : وما خمسون ألفا ؟ ستكون بين يدك !

كيف الحصول عليها ، ومن أين ؟ مسائل فرعية لا تستحق الاهتمام . انظر الى . ألم أرتفع ، فى لحظة واحدة ، من العدم الذى كنت فيه الى قمة فوق كل شىء ؟ كذلك ستأتى الاشياء كلها حين أشير اليها بأصبعى . سأحصل عليها ، هذا ما لاريب فيه .

هكذا تركت سنديب منذ أيام. ثم حين تلفت حولى.. أين كانت ، تلك الشجرة الدائم أكلها ؟ أوه ، لماذا يهين هذا العالم الخارجى القلب ؟

ولكننى يجب أن أحصل عليها . كيف لايعنينى كيف . فلا يمكن أن يكون ثمة أثم . ان الاثم لا يلوث غير الضعفاء ، وأنا «بروحى» فوق متناوله . لا يكون اللص الا رجلا من العامة ، أما الملك فانه

يغزو ويغنم .. يجب أن أعرف مكان الخزانة ، ومن يضع فيها المال ، ومن يحرسها .

أمضيت نصف الليل واقفة فى الشرفة الخارجية أتطلع الى صف أبنية الادارة . ولكن كيف الحصول على تلك الروبيات الخمسين ألفا من قبضة هذه القضبان الحديدية ؟ لو استطعت برقية ما أن أجعل كل أولئك الحراس يسقطون موتى فى أمكنتهم لما ترددت — الى هذا الحد كنت أشعر أنى قاسية !

ولكن منزل الراجات الكبير كان ينام فى سلام بينما ترقص عصبة كاملة من اللصوص رقصة الحرب فى رأس ملكته الدائر . وكانت الساعة تدق ساعة بعد ساعة ، والسماء من فوق تطل فى هدوء .

وأخيرا بعثت الى أموليا . قلت له : ان القضية الوطنية محتاجة الى مال . فهل تستطيع أن تحصل عليه من الخزانة ؟

فقال ، ونفخ صدره : لم لا ؟

وا أسفاه ، أترانى قلت « لم لا » لسنديب بهذه الطريقة نفسها؟ ان ثقة الصبى المسكين لم تستطع أن تثير فى نفسى أملا ما .

سألت : كيف ستفعل ذلك ؟

ان الخطط العجيبة التى بسطها لى لا تحتمل الا على صفحات رواية رخيصة مليئة بالرعب .

قلت بقسوة : لا يا أموليا . يجب ألا تكون طفلا .

فقال : حسنا اذن دعينى أرشو أولئك الحراس .

— ومن أين لك بالنقود ؟

فانفجر قائلا دون اجفال : يمكننى أن أنهب السوق .

— دع هذا كله . ان عندى حليى ، وهى تكفينا .

قال أموليا : ولكنى دهش لأن الصراف لا تمكن رشوته . لا بأس . هناك سبيل آخر أيسر .

— وما ذاك ؟

— ما حاجتك الى سماعه ؟ انه جد يسير .

— أحب أن أعلمه مع ذلك .

فبحث أموليا فى جيب سترته وأخرج أولا نسخة صغيرة من الجيتا (١) وضعها على المنضدة ، ثم مسدسا أرانى اياه ، ولكنه لم يزد قولا .

(١) البهاجافاد جيتا : أهم الكتب المقدسة عند الهنود (المترجم) .

يا للفظاعة ! انه لم يحتج الى لحظة واحدة ليقرر قتل صرافنا العجوز الطيب (١) ولو نظرت الى وجهه الصريح الطلق لما ظننته قادرا على أن يؤذى ذبابة ، ولكن الكلمات التى انبعثت من فمه كانت جد مختلفة . لقد كان واضحا أن مكان الصراف فى العالم لايعنى شيئا بالنسبة له . انه مجرد فراغ لا حياة فيه ولاشعور، ليس فيه الا عبارات محفوظة من الجيتا . « من يقتل الجسم يقتل عدما ! » .

صحت أخيرا : ما الذى تعنيه يا أموليا ؟ الا تعلم أن لهذا الشيخ العزيز زوجة وأطفالا وأنه . . .

فقاطعنى قائلا : وأين نجد رجالا ليس لهم زوجات وأطفال ؟ انظرى يامهرانى ، ان الشيء الذى نسميه شفقة ليس فى صميمه الا اشفاقا على أنفسنا . اننا لا نستطيع أن نحتمل جرح غرائزنا الرقيقة ، ولهذا لا نضرب أبدا . الشفقة حقا ! انها غاية الجبن !

أذهلنى سماع عبارات سنديب من فم ذلك الصبى . كم كانت سذاجته جميلة محببة — كان فى تلك السن التى لا تزال تستطيع أن تؤمن بالخير على انه خير ، فى تلك السن التى يحيا فيها المرء حقا وينمو ، واستيقظت فى الأم .

لى أنا لم يبق خير ولا شر . لم يبق الا الموت ، الموت الجميل المغرى . ولكن جسمى كله ارتجف لسماع هذا الغلام يتحدث بهدوء عن قتل شيخ مسالم على أنه ما ينبغى عمله . وبدا لى الاثم فظيعا فى كلماته بقدر ما وضح لى أن قلبه خلو من كل اثم . وكأنما رأيت آثام الآباء يحملها طفل برىء .

مس أوتار قلبى منظر عينيه الكبيرتين تلمعان ايمانا وحماسة. لقد كان منطلقا كالمسحور الى أنياب البيثون (٢) ، حيث لا رجوع لداخل . كيف يمكن انقاذه ، لماذا لا تصبح بلادى مرة أما حقيقية ، تحضنه وتصيح : « أوه يا ولدى ، يا ولدى ، أى ربح فى أن تنقذنى ان لم أستطع انقاذك ؟ » .

أنا أعلم ، أنا أعلم ان كل قوة فى الارض تتعاظم حين تلتحم بالشيطان ، ولكن هناك الأم تدين هذا التقدم الشيطانى وتقف

(١) الصراف هو أكثر الموظفين اتصالا بالسيدات فى بيت ملاك الاراضى ، فهو يتلقى منهن مباشرة ما يطلبنه لحاجات البيت ، ويتسوق لهن ، ولهذا يصبح أقرب من غيره الى أن يعد فردا من الاسرة (المترجم) .

(٢) فى الاساطير اليونانية : أفعى خرافية قتلها أبولو (المترجم) .

فى سبيله ولو كانت وحيدة . ان الأم لا تبالى بالنجاح وحده مهما يكن عظيما ، انها تريد أن تمنح الحياة وأن تنقذ الحياة . وان روحى اليوم لتمد يديها مشتاقة الى انقاذ هذا الصبى .

منذ لحظة أوحيت اليه بالسرقة ، ومهما أقل الآن منفرة منها فسيفسره بضعف المرأة . انهم لا يحبون ضعفنا الا حين يجر العالم فى شباكه !

قلت له أخيرا . لاحاجة بك أن تفعل شيئا ما يا أموليا . سأدبر أمر النقود .

وحين كاد يبلغ الباب ناديته ليرجع . قلت : أموليا . اننى أختك الكبيرة ليس هذا يوم الأخ (١) فى التاريخ ، لكن كل أيام السنة هى فى الواقع أيام الأخ . فلتكن بركتى معك ، وليحرسك الله أبدا .

فوجىء أموليا بهذه الكلمات غير المتوقعة من شفتى ، فوقف برهة لايتحرك ، ثم عاد اليه ادراكه فركع عند قدمى قبولا منه لهذه الصلة ، وأحنى رأسه اجلالا . وعندما نهض كانت عيناه مغرورقتين بالدموع .. أوه يا أخى الصغير ! أننى مسرعة الى موتى، فدعني أحمل كل ذنبك معى ، ولا تلوثن براءتك أبدا وصمة واحدة منى !

قلت له : فلتكن هدية اجلالك هى ذلك المسدس !

ــ ما حاجتك اليه يا أختى ؟

ــ سأتدرب على الموت .

ــ ان نساءنا أيضا يجب أن يعرفن كيف يمتن ، وكيف يصنعن الموت !

قال ذلك وناولنى المسدس .

وكأنما لون اشراق وجه الصبى حياتى بلمسة فجر جديد . فوضعت المسدس بين ملابسى . فلتكن هدية الاجلال هذه هى الملجأ الاخير فى ضائقتى ..

(١) للابنة معزة خاصة فى البيت البنغالى (ولعل ذلك صحيح بالنسبة الى البيوت الهندوسية عامة فى جميع أنحاء الهند) لان التقاليد تقضى بزواجها المبكر . ولهذا تحمل معها ذكريات المحبة والحنان الى بيت زوجها ، حيث يتحتم عليها أن تبدأ غريبة قبل أن تحتل مكانتها . وقد اتخذ الشعور الناشىء عن ذلك عند ربة البيت الجديد بالنسبة الى البيت الذى تركته صورة عرفية فى « يوم الاخ » ، الذى يدعى فيه الاخوة الى منازل أخواتهم المتزوجات . واذا كانت الاخت أكبر سنا فانها تعطى بركتها وتتلقى اجلال أخيها ، والعكس بالعكس . ويتبادلان الهدايا ، وتسمى هدايا الاجلال أو البركة . (المترجم) .

حين فتح الباب الى غرفة الأم فى قلبى الانثوى حسبت أنه سيظل مفتوحا أبدا . ولكن هذا المعبر الى الخير الاسمى أغلق حين حلت الحبيبة محل الأم وأغلق ثانية. فى اليوم التالى نفسه رأيت سنديب. ورقص الجنون على قلبى عريان معربدا .

ما كان هذا ؟ أهذه اذن هى نفسى الأصدق؟ كلا ! اننى لم أعرف قط هذه النفس المستهترة القاسية فى . لقد جاء الساحر زاعما انه سيخرج هذا الثعبان من بين طيات ملابسى ، ولكنه لم يكن هناك قط ، بل كان ثعبانه ولم يزل . لقد استولى على شيطان ، وما أفعله اليوم هو من أفاعيله ، ولا شأن لى به .

لقد جاءنى هذا الشيطان فى ثوب اله ، جاءنى ذلك اليوم بمشعله الساطع قائلا : « أنا بلادك . أنا رجالك سنديب . أنا أقرب اليك من كل ما لديك . « باندى ماترم ! » وأجبته وقد أطبقت يدى : « أنت دينى . أنت جنتى . كل مالى سواك سيجرفه حبى لك . باندى ماترم ! » .

أهى خمسة آلاف ؟ فلتكن خمسة آلاف ! تريدها غدا ! غدا تأخذها ! فى هذه السكرة القاتلة ستكون هدية الخمسة آلاف أشبه بحبات الخمر - وبعدها هيا الى الصخب المعربد ! العالم المستقر سيتزلزل تحت أقدامنا ، والنار ستندلع من عيوننا ، وستزأر فى آذاننا عاصفة ، ويقيم الذى أمامنا كالذى ليس أمامنا . ثم بخطا مترنحة نغوص فى موتنا ، وفى لحظة تطفأ كل النار ، وينثر الرماد، ولا يبقى شىء بعدنا .

الفصل التاسع

حكاية بيمالا

– ١٥ –

حرت مدة فى سبيل الحصول على هـذه النقود . ثم مثلت أمامى الصورة كلها فى وضوح تحت ضوء القلق الشـديد . كان ذلك منذ أيام .

فى كل عام يقدم زوجى هدية اجلال الى سلفتى مقدارها ستة آلاف روبية فى موسم درجا بوجا . وفى كل عام تودع باسمها فى المصرف فى كلكتا . وقد قدمت الهدية هذا العام كالعادة ولـكنها لم ترسل بعد الى المصرف ، ولم تزل محفوظة فى خزانة حديدية فى ركن من حجرة الملابس المتصلة بمخدعنا .

وكان زوجى نفسه يأخذ النقود الى المصرف كل عام . ولـكنه لم يتح له الذهاب الى المدينة هذا العام . كيف كان يمكننى الا أرى يد القدر فى هذا ؟ لقد أبقيت النقود لأن البلاد فى حاجة اليها.

من كان يستطيع أن يأخذها منهـا ليضعها فى المصرف ؟ وكيف أستطيع أنا الامتناع عن أخذ النقود ؟ أن الالهة التى تطرب للتدمير تمد كأسها الملطخ بالدم صائحة : « أعطينى أشرب . اننى ظمأى». سأعطيها دم قلبى مع هذه الخمسة آلاف . أماه ، ان التى تفقد هذه النقود لن يؤذيها فقدها كثيرا ، ولـكننى أنا التى ستدمريننى تدميرا !

كثيرا ما كنت – قديما – أسمى الرانى الـكبرى بينى وبين نفسى لصة ، لأنى كنت أتهمها بخداع زوجى الطيب ، وكثيرا ما كانت بعد موت زوجها تستخلص لنفسها أشياء من ملك الولاية ، وكنت أنبه زوجى الى ذلك ، ولـكنه يلزم الصمت ، فأغضب وأقول : « ان كنت أريحيا فلك أن تهب كما تشاء ، ولـكن لماذا تسمح بأن

تسرق ؟ » ولابد أن القدر كان يضحك وقتئذ لشكاواى هذه ، فاننى الليلة فى طريقى الى سرقة نقود سلفتى من خزانة زوجى .

وكانت عادة زوجى أن يبقى مفاتيحه فى جيوبه حين يخلع ملابسه قبل النوم ويتركها فى حجرة الملابس . فأخذت مفتاح الخزانة وفتحتها . وخيل الى أن الصوت الصفير الذى أحدثته سيوقظ العالم كله . وعرتنى قشعريرة مفاجئة جعلت يدى وقدمى باردة كالثلج ،وارتجف جسمى كله .

كان فى داخل الخزانة درج ، وحين فتحته وجدت النقود . لم تكن أوراقا بل قطعا ذهبية ملفوفة فى قراطيس . ولم أجد وقتا لأعد ما أحتاج اليه . كان هناك عشرون لفافة أخذتها جميعا وربطتها فى حاشية سارى .

كم كانت ثقيلة ! ان عبء السرقة رزح على قلبى حتى ألصقه بالتراب . ولعلها لو كانت أوراقا لبدا الأمر أقل شبها بالسرقة ، ولكنها كانت كلها ذهبا .

بعد أن تسللت الى حجرتى كاللصة بدت كأنها لم تعد حجرتى . لقد اختفت كل حقوقى الغالية عليها حين لمست المال المسروق ، ورحت أتمتم لنفسى وكأننى أردد بعض الرقى : «باندى ماترم . باندى ماترم ، يا بلادى ، يا بلادى الذهبية ، لك كل هذا الذهب لا لأحد غيرك ! »

ولكن العقل يضعف فى الليل . لقد عدت الى المخدع حيث كان زوجى نائما ، وأغمضت عينى وأنا أعبره خارجة الى الشرفة المكشوفة وراءه ، حيث انبطحت على وجهى وأنا أضم الى صدرى حاشية السارى التى صرت على الذهب ، وبعثت فى كل لفافة هزة ألم .

ووقف الليل الصامت هناك رافعا سبابته . ولم أستطع أن أفكر فى منزلى على انه منفصل عن بلادى : لقد سرقت منزلى ، لقد سرقت بلادى . وبسبب هذه الخطيئة لم يعد منزلى منزلى ، وكذلك بلادى أصبحت غريبة عنى . لو اننى مت وأنا أشحذ من اجل بلادى — ولو دون جدوى — لكانت تلك الشحاذة عبادة تتقبلها الآلهة . ولكن السرقة لا تكون عبادة أبدا ، فكيف يمكننى اذن أن أهب هذا الذهب ؟ تعسا لى ! اننى مقضى على بالموت ، فهل يجب أن أدنس بلادى بلمستى الشريرة ؟

لا سبيل لى الى النقود . ليست لدى القوة لأعود الى الحجرة ،

وأخرج ذلك المفتاح ثانية ، وافتح الخزانة من جديد ـ لأموتن على عتبة باب زوجي . ان السبيل الوحيد الباقي هو سبيل التقدم. ليست لدى القوة أيضا لأجلس هادئة وأعد النقود . فلتبق خلف أغطيتها ، انني غير قادرة على الحساب .

كانت سماء الشتاء خلوا من الضباب ، والنجوم تلمع ، فقلت لنفسي وأنا راقدة هناك : لو كان على أن أسرق هـــذه النجوم كالقطع الذهبية واحدة واحدة من أجل بلادى ـ هـــذه النجوم المحفوظة بعناية فى حضن الظلام ـ اذن لعميت السماء ، وترمل الليل أبدا ، ورزأت سرقتى العالم كله . لكن هذا الذى فعلته .. أليس هذا أيضا سرقة للعالم كله ، لا سرقة للمال فحسب ، بل للثقة والأمانة ؟

قضيت الليل راقدة فى الشرفة ، حتى اذا أصبح الصباح وأيقنت ان زوجي قد استيقظ وغادر الحجرة ، هنالك فقط استطعت ان أعود أدراجى الى الحجرة بعد أن أرخيت ملفحتى على رأسى .

وكانت سلفتى تجول بقدرها النحاسية تسقى نباتاتها . فلمـا بصرت بى مارة على بعد صـاحت : هل سمعت الخبر ياتشوتا رانى ؟

فوقفت صامتة أرتعد . وخيل الى أن لفافات الذهب تبرز من الملفحة وخفت أن تتمزق وترن متساقطة لتفضح أمام خدم المنزل جميعا تلك اللصة التى أفقرت نفسها حين سرقت ثروتها .

ومضت سلفتى قائلة : ان عصابة اللصوص الذين معك قد بعثوا رسالة مجهولة ينذرون فيها بنهب الخزانة .

فظللت صامتة صمت اللصوص . وأردفت ممازحة .

ـ كنت أنصح لأخى نيكهيل أن يلجأ الى حمايتـك . أبعـدى صبيانك عنا أيتها الملـكة السارقة ! سنقدم القرابين لالهك «باندى ماترم » ان أنت أنقذتنا . ما أعجب ما يجرى فى هذه الايام ! لكن بحق الله اعفى منزلنا من السرقة على الاقل ..

وأسرعت الى حجرتى دون أن أجيب . لقد وضعت قدمى على رمل موار ولم يعد فى استطاعتى أن أسحبها الآن ، فلن يزيدنى التملص الا غوصا .

متى أسلم النقود الى سنديب ! لم أعد أستطيع احتمالا ، لقد كان ثقلها يحطم أضلاعى .

كان الوقت لايزال مبكرا حين تلقيت كلمة أن ســـنديب فى

انتظارى. لم أبال اليوم بزينتى ، بل ذهبت الى الحجرات الخارجية مشتملة بملفحتى كما كنت .

وحين دخلت حجرة الجلوس رأيت سنديب وأموليا هناك معا . فخيل الى أن كل كرامتى وشرفى يجريان مشتعلين فى جسمى من الرأس الى القدم ويغيبان فى الارض . أفحتم على أن أكشف أقصى عار امرأة أمام عينى هذا الصبى ! أتراهما كانا يتحدثان عن فعلتى فى اجتماعهما ؟ وهل بقيت لى بقية من قناع لعزة أو وقار ؟

نحن النساء لن نفهم الرجال أبدا . انهم حين يصممون على شق طريق للوصول الى هدف ما لايبالون أن يحطموا قلب العالم قطعا كى يمهدوه لسير مركبتهم . وحين تذهب بعقولهم نشـوة الخلق يفرحون بتدمير ما صنعه الخالق . ان عارى هذا الذى يمزق القلب لم يكن ليسترعى من أعينهما نظرة . انهما لايشعران بالحيـاة نفسها — كل حماستهما منصبة على غرضـهما . وهل أنا لهما الا زهرة من زهور المروج فى طريق سيل دفاق ؟

وما نفع دمارى هذا لسنديب ؟ خمسة آلاف روبية فقط ؟ أما كنت أصلح لشىء أكثر من خمسة آلاف روبية فقط ؟ أجل، أجل ! ألم أتعلم هذا من سنديب نفسه ، أو لم أكن قادرة بفضل هذه المعرفة على أن أحتقر كل شىء آخر فى عالمى ؟ لقد كنت واهبة النور والحياة و « الروح » والخلود ، وبذلك الاعتقـاد ، وبذلك الفرح كسرت حدودى كلها وبرزت . ولو أن أحدا حقق لى ذلك الفرح عندئذ لحييت فى موتى ، ولما فقدت شيئا اذ أفقد كل شىء .

هل يريدان أن يقولا لى الآن : ان ذلك كله كان باطلا ؟ ونشيد ثنائى الذى غنى بذلك الولاء ، هل أنزلنى من سمائى ليجعل السماء نفسها كالتراب ، لا ليجعل الارض كالسماء ؟

— ١٦ —

قال سنديب ونظرته الحادة منصبة كلها على وجهى : النقود يا ملكة ؟

وكذلك ثبت أموليا نظرته على . ان هذا الصبى العزيز ليس ابن أمى ولكنه أخ لى ، فان الأم أم فى كل مكان على الارض . نظر الى بوجهه الصافى ، وعينيه الحنونتين ، وشبابه البرىء . وأنا .. كيف استطعت أن أقدم اليه السم وأنا امرأة كأمه — ألأنه طلبه؟

« النقود يامليكة ! » رن سؤال سنديب الوقح فى أذنى ، ووددت لخجلي وغيظى وحدهما أن أقذف بذلك الذهب على رأس سنديب. بمشقة استطعت أن أحل عقدة الساری، فقدكانت أصابعى ترتجف أى ارتجاف . وأخيرا سقطت اللفافات على المنضدة .

واسود وجه سنديب... لابد انه حسب اللفافات من فضة... أى احتقار كان فى نظراته ! أى اشمئزاز من ذلك العجز ! كأنما كان يهم بضربى ! لابد أنه خالنى جئت لأفاوضه ، لأنزل بالخمسة آلاف التى طلبها الى بضع مئات . ومرت لحظة ظننت أنه سيخطف اللفافات ويرميها من النافذة معلنا أنه ليس شحاذا ، بل ملك يطلب الجزية .

وسأل أموليا وفى صوته نبض شفقة جعلتنى أود لو أجهش بالبكاء : أهذا كل شيء ؟

وأحكمت كبح قلبى ، واكتفيت بأن أومأت برأسى .

وظل سنديب واجما ، لم يلمس اللفافات ، ولا نطق بحرف .

ومست مذلتى قلب الصبى ، فصاح بحماسة مفاجئة مصطنعة : هذا كثير . انه يكفى كل حاجتنا . لقد أنقذتنا .

وبهذه الكلمات مزق غطاء احدى اللفافات .

وبرقت الجنيهات الذهبية . وفى لحظة بدا كأن الغطاء الاسود قد رفع عن وجه سنديب أيضا ، فأضاءت قسماته سرورا ، ولم يستطع التحكم فى انقلاب شعوره ، فوثب عن كرسيه نحوى . ولست أدرى ماذا كان يهم أن يفعل ، فقد رميت نظرة كالبرق نحو أموليا ، فاذا بوجه الصبى يشحب كأنما لسعه سوط . ثم دفعت سنديب عنى بكل قوتى ، ففقد توازنه واصطدم رأسه بحافة المنضدة الرخامية ، وسقط على الارض . وبقى هناك برهة لايتحرك، أما أنا فهبطت على مقعدى وقد أنهك المجهود قواى .

وأشرق وجه أموليا اشراق الفرح ، حتى انه لم يلتفت الى سنديب ، بل أقبل على ومسح التراب عن قدمى ، وبقى هناك جالسا ازائى على الارض . آه يا أخى الصغير ، ياطفلى ! ان تحية اجلالك هذه هى آخر لمسة من السماء بقيت فى عالمى المقفر ! لم أعد أستطيع أن أتمالك نفسى . وفاضت دموعى انسكابا ، فغطيت عينى بطرف سارى وضغطت على وجهى بكلتا يدى ورحت أنتحب وأنتحب ، وكلما شعرت بلمسته الرقيقة على قدمى تحاول تهدئتى تجدد بكائى .

ولما أفقت بعد قليل ورفعت يدى عن وجهى رأيت سنديب عند المنضدة يجمع الجنيهات فى منديله كأن شيئا لم يحدث . ونهض أموليا من مكانه عند قدمى الى كرسيه وعيناه المخضلتان تبرقان .

ونظر سنديب الى وجهى ببرود وهو يقول : انها ستة آلاف .

فصاح أموليا : ما حاجتنا الى هذا القدر ياسنديب بابو ، ان كل ما يلزمنا لعملنا ثلاثة آلاف وخمسمائة .

فأجاب سنديب : ان حاجتنا ليست لهذا المكان وحده . سوف نحتاج الى كل ما نستطيع الحصول عليه .

قال أموليا : قد يكون هذا . ولكنى أتعهد بأن آتيك بكل ما نحتاج اليه فى المستقبل . أما هذا فأرجوك أن ترد ألفين وخمسمائة منه الى المهرانى .

فنظر سنديب الى مستفهما . فابتدرته : لا ، لا ، لن أمس هذه النقود ثانية ، افعل بها ما تريد .

قال سنديب ناظرا نحو أموليا : هل يستطيع الرجل يوما أن يعطى كما تعطى المرأة ؟

فوافقه أموليا بحماسة : أنهن الهات !

ومضى سنديب يقول : نحن الرجال نستطيع على الاكثر أن نعطى من قدرتنا ، ولكن النساء يعطين أنفسهن . من حياتهن يلدن ، ومن حياتهن يغذون . مثل هذه العطايا هى العطايا الحقة . ثم التفت الى قائلا : يا ملكة ! لو كان ما أعطيتنا اياه هو المال وحده لما لمسته ، ولكنك أعطيت ما هو أكبر عندك من الحياة نفسها !

لابد أن فى الانسان شخصين مختلفين . فأحد هذين الشخصين فى قادر على أن يفهم أن سنديب يحاول خداعى ، والشخص الآخر راض بأن يخدع . ان لسنديب قدرة ، ولكن ليست له قوة العدالة . وسلاحه الذى يبعث الحياة يضربها ثانية حتى الموت . ان لديه جعبة الآلهة التى لا تنفد ، ولكن السهام التى فيها من الشياطين .

لم يتسع منديل سنديب للنقود كلها فسأل : يا ملكة ، هل يمكنك أن تعطينى منديلا آخر ؟

ولما أعطيته منديلى لمس جبينه به فى خشوع ثم ركع على الارض فجأة وأحنى رأسه قائلا : يا الهة ! انما اقتربت منك لأقدم تحية اجلالى ، ولكنك رفضتنى ورميتنى فى التراب . فان كان هذا

فانى أقبل رفضك نعمة منك على ، وأرفعه الى رأسى تحية لك .

قال ذلك وأشار الى موضع الصدمة من رأسه .

هل أسأت فهمه اذن ؟ هل كانت يداه الممدودتان موجهتين الى قدمى حقا ؟ ان أموليا نفسه قد رأى الانفعال الذى اشتعل فى عينيه ووجهه . ولكن سنديب بارع فى وضع الموسيقى لأغنية ثنائه بحيث لا أستطيع جدالا . اننى لأفقد قدرتى على رواية الحقيقة ويغيم بصرى كعينى مخدور . وهكذا رد لى الضربة التى أنزلتها به ضعفين ، وكانت عاقبة الجرح فى رأسه أن جعل قلبى يدمى . وحين تلقيت تحية سنديب بدا كأن سرقتى تكتسب كرامة ، والذهب على المائدة يبتسم فينسى كل خوف العار ، وكل وخز الضمير .

وكما رجعت رجع أموليا . واشتعل ولاؤه لسنديب ثانية بعد أن أصيب بصدمة قصيرة ، وامتلأت زهريته من جديد بهدايا العبادة لسنديب ولى ، وأضاء ايمانه فى عينيه بنور صاف كنور نجمة الصباح عند الفجر .

بعد أن أهديت العبادة وتلقيتها بدا اثمى مشرقا . وحين نظر أموليا الى وجهى رفع يديه المطبقتين محييا وصاح : « باندى ماترم ! » لم أكن لأتوقع أن تظل هذه العبادة محيطة بى أبدا ومع ذلك فقد أصبحت هى السبيل الوحيد لابقاء احترامى لنفسى .

لم أعد أستطيع أن أدخل مخدعى . الفراش كأنه يمد يدا ليمنعنى ، والخزانة الحديدية تعبس لى . أريد أن أهرب من هذه الاهانة المستمرة لنفسى ، هذه الاهانة التى تعتمل فى باطنى . أريد أن أهرع الى سنديب كل حين ليغنى بمديحى . لم يبق الا هذا المحراب الوحيد للعبادة يبقى رأسى مرفوعا فوق أعماق خزيى التى شملت كل شىء ، ولهذا أريد أن أتعلق به ليل نهار ، فاننى حيثما أبتعد عنه لا أجد الا فراغا .

الثناء ، الثناء ، أريد ثناء متصلا . لا أستطيع أن أحيا ان ترك كأسى فارغا لحظة واحدة . لهذا أريد سنديب اليوم دون الخلق أجمعين ، لأنه هو ثمن حياتى .

— ١٧ —

عندما يأتى زوجى فى هذه الايام ليتناول طعامه اشعر انى لا أستطيع الجلوس أمامه ، ولكن الابتعاد عنه أمر مخجل حتى انى

لا أقدر أن أفعل ذلك أيضا . لهذا أجلس بحيث لا يستطيع أحدنا أن ينظر الى وجه الآخر . وعلى هذه الصـورة كنت أجلس منذ أيام حين جاءت البارا رانى وانضمت الينا . قالت : لك أن تضحك يا أخى من خطابات التهديد هذه ، ولـكنها تخيفنى أيما خوف . هل أرسلت تلك النقود التى أعطيتنى اياها الى مصرف كـلكتا ؟

فأجاب زوجى : لا ، لم أجد وقتا بعد لارسالها .

— انت مهمل يا أخى العزيز . يجب أن تحترس ..

فقال زوجى بابتسـامة مطمئنة : انها فى الخزينة الحديدية فى قلب حجرة الملابس الداخلية .

— وان وصلوا الى هناك ؟ من يضمن !

— اذا بلغوا الى هذا الحد فانهم قد يسرقونك أيضا !

— لا تتم ، لن يأتى أحد للمسـكينة التى هى أنا ، ان الاغراء الحقيقى هو فى حجرتك ! ولـكن دعنا من المزاح الآن ، يجب ألا تخاطر بترك النقود فى الحجرة هكذا .

— انهم سيحملون حصيلة الحكومة الى كلكتا بعد بضعة أيام ، وسأرسل هذه النقود الى المصرف مع الحراس .

— هذا حسن . لـكن حـذار أن تنسى الأمر كله ، فأنت كثير النسيان .

— حتى لو فقدت هذه النقود وهى فى حجرتى فلن يكون فقدها عليك ، يا أختى الرانى .

— لا ، لا يا أخى . ان هذا الـكلام يغضبنى جدا . هل جعلت فرقا بين مالك ومالى ؟ لنفرض أن نقودك ضـاعت ، ألا يسوءنى ذلك ؟ اذا كان القدر قد شاء أن يستأثر بحظى من الدنيا فانه لم يتركنى جاحدة لفضل أخاص أخ منذ أيام لاكشمان (١) .

حسنا ياتشوتا رانى ! هل انقلبت دمية من الخشب ؟ انك لم تقولى كلمة واحـدة حتى الآن . هل تعلم يا أخى أن تشوتا رانى تظننى أتملقك ؟ لو اضطررت الى ذلك فلن أتردد ، ولكنى أعلم أن أخى العجوز العزيز لا يحتاج الى الملق !

وهكذا مضت البارا رانى تثرثر ! غير ناسية أن تنبه أخاها بين الحين والحين الى هذه الطرفة أو تلك فيما يقدم من ألوان الطعام. كل ذلك ورأسى يدور . ان الازمة تقترب مسرعة . لابد من عمل

(١) من أبطال الراماياتا . وقصة وفائه لاخيه الاكبر راما وزوجة أخيه سيتا أصبحت مضرب الامثال . (المترجم)

شيء لاعادة النقود .. وبينما أسائل نفسي عما يمكن عمله ، وكيف يجب عمله ، كانت دمدمة سلفتي تبدو أشق احتمالا كل حين .

والذى زاد الأمر سوءا أن عينى سلفتي الحادتين لم يكن ليفوتهما شيء ، وكانت ترمقني عن عرض بين لحظة وأخرى . ولست أدرى ماذا استطاعت أن تقرأ فى وجهي ، ولكننى كان يخيل الى أن كل شيء مكتوب عليه بوضوح .

ثم أقدمت على أمر شديد الحماقة . تصنعت ضحكة لاهية ناعمة وقلت : أرى ان شكوك البارا رانى كلها منصبة على ، وليس خوفها من اللصوص الا ادعاء . وابتسمت البارا رانى بخبث وقالت : أنت على حق يا أختى . ان سرقة المرأة هى أفدح السرقات ، ولكن كيف تروغين من رقابتى ؟ أرجل أنا حتى تخدعيني ؟ ..

فأجبت : ان كنت تخافيننى كل هذا الخوف فدعينى أستودعك جميع ما أملكه ليكون ضمانا ، فان سببت لك خسارة رددتها الى نفسك .

فأجابت على ضحكتى بمثلها ، وقالت ملتفتة الى زوجى : اسمع لها ، صغيرتنا الساذجة التشوتا رانى ! أليست تعلم أن من الخسائر ما لا يعوضه ضمان ، لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر؟

لم يدخل زوجى فى نقاشنا ، وعندما فرغ من طعامه ذهب الى الحجرات الخارجية ، فانه لا يقيل فى حجرتنا هذه الايام .

كانت كل جواهرى الثمينة مودعة فى الخزانة فى عهدة الصراف . ومع ذلك فان ما أحتفظ به لابد كان يساوى ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا من الروبيات .

فأخذت صندوق حليى وذهبت الى حجرة البارا رانى وفتحته أمامها قائلة : اننى أترك هذه عندك يا أختى . ستجعلك فى مأمن من كل خوف .

فأشارت البارا رانى اشارة جزع مصطنعة ، وقالت : انك تدهشينني حقا ياتشوتا رانى ! أتحسبينني حقا لا أنام الليل خوفا من أن تسرقينني ؟

— وأى بأس فى أن تخافى منى خوفا ينفعك ؟ هل يعرف أحد أحدا فى هذه الدنيا ؟

— أتريدين أن تلقنيني درسا بائتمانك اياى ؟ لا ، لا ، تكفيني حيرتى فيما أفعل بحليي عن حراسة حليك . خذيها ياعزيزتى .

هناك كثير من الخدم يتجسسون .

خرجت توا من حجرة سلفتى الى حجرة الجلوس الخارجية ، واستدعيت أموليا . فجاء معه سنـديب أيضا . وكنت فى عجلة شديدة ، فقلت لسنديب : معذرة . أريد أن أقول لأموليا كلمة أو كلمتين . هل تسمح ..

فابتسم سنديب ابتسامة شوهاء : اذن فأنا وأموليا شخصـان منفصلان فى نظرك ؟ اذا كنت قد بدأت تفطمينـه عنى فيجب أن أعترف بعجزى عن الاحتفاظ به .

فلم أجب ، بل وقفت منتظرة .

وأردف سنديب قوله : ليكن ما تريدين . أتمى حديثك الخاص مع أموليا ، ولـكنك يجب أن تمنحينى حديثا خاصا لى وحـدى أنا أيضا ، والا كان معنى ذلك هزيمة لى . ان نصيبى يجب أن يكون دائما نصيب الأسد . لم يزل هذا عراكى الدائم مع القدر . انى أريد أن أهزم حظى ولا أتلقى الهزيمة من يديه .

وخرج من الحجرة بعد أن حدج أموليا بنظرة ساحقة .

قلت : أموليا ، يا أخى الصغير العزيز ، يجب أن تصنع شيئا من أجلى .

ــ اننى أخاطر بحياتى فى أى واجب تلقينه على عاتقى يا أختاه.

فأخرجت صندوق حليى من بين ثنايا شـالى ووضعته أمامه وقلت : بع هذه أو ارهنها ، وهات لى ستة آلاف روبية بأسرع ما تستطيع .

قال أموليـا مسـتنكرا : لا ، لا يا أختى الرانى . دعى هذه الحلى كما هى . ولـكنى سآتيك بستة آلاف .

قلت نافدة الصبر : أوه ، لا تكن أبله لا وقت لشىء من العبث ، خذ هـذا الصندوق ، واذهب الى كلكتا بقطار الليـل ، وأحضر النقود الى بعد غد على التحديد .

فتناول أموليا عقدا ماسيا من الصندوق ورفعه الى الضوء ثم رده مكتئبا . قلت :

ــ أعلم انك لن تحصل على الثمن المناسب لهذه الماسات ، ولهذا أعطيك حليا تساوى ثلاثين ألفا . اننى لا أبالى أن تذهب جميعهـا ولـكن يجب أن أحصل على هذه الستة آلاف بدون ابطاء .

قال أموليا : أتعلمين يا أختى الرانى اننى أختلف مع سنديب بابو بشأن هذه الستة آلاف التى أخذها منك ؟ اننى لا أستطيع أن

أصف لك مقدار خجلي . ولـكن سنديب بابو يرى أننا يجب أن نتخلى حتى عن الخجل من أجل بلادنا . قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن هذا الأمر مختلف بعض الاختلاف . انني لا أخاف الموت فى سبيل الوطن ، لقد منحت هـذا القـدر من « الروح » ولـكنى لا أستطيع أن أنسى خجلي لأخذ النقود منك . انني لا أبلغ شأو سنديب فى هذا . فهو لايعرف الندم ولا تأنيب الضـمير . هو يقول اننا يجب أن نتخلص من فكرة ان النقود ملك لمن يتفق أن توجد فى خزانته ، وان لم نستطع فأين سحر « باندى ماترم » ؟

وازدادت حماسة أموليـا وهو يتكلم ، فحديثه يكتسب حرارة دائما حين أستمع اليه . وأردف : تقول لنا الجيتا : لا أحـد يمكنه أن يقتل الروح . فالقتل مجرد كلمة . وكذلك أخذ المال . مال من هو ؟ ان أحدا لم يخلقه ، ولا أحد يأخذه معه حين يفارق هذه الدنيا ، فانه ليس جزءا من روحه . اليوم هو لى ، وغدا لابنى ، وبعد غد لدائنه . وبما أن النقود ليست ملـكا لأحد فى الواقع فأى لوم يمكن أن يقع على رجالنا الوطنيين اذا هم أخـذوها لينتفعوا بها بدلا من تركها لولد فاسد ؟

ان جسمى كله يرتجف حين أسمع كلمات سنديب ينطقها هذا الفتى . ليلعب السحرة بالثعابين ما شاءوا ، فان أصـابهم أذى فانهم مستعدون له . ولـكن هؤلاء الصبية فيهم من البـراءة ما يستنفر العالم كله ليحميهم ببركته . انهم يلاعبون الثعبان جاهلين بطبعه ، وحين نراهم يبتسـمون فى ثقة وهم يضعون أيديهم حيث تبلغ ناباه ، عند ذلك ندرك ما فى الثعبان من خطر فظيـع . ان سنـديب على حق حين يشك أنى وان رضيت لنفسى الموت على يديه فسوف أفطم منه هذا الصبى وأنقذه .

سألت مبتسمة : اذن فالمال مطلوب لينتفع به رجالكم الوطنيون؟

فقال أموليا بفخر : أجل ! أليسوا ملوكنا ؟ ان الفقر ينتقص من قدرتهم الملـكية . أتعلمين أننا نصر دائما على أن يسافرسنديب بابو فى الدرجة الاولى ؟ وهو لا ينفر قط من علائم التكريم الملـكى — انه يتقبلها لا من أجل نفسه بل لعزتنا جميعا . لقـد أنبـأنا سنديب بابو أن أعظم سلاح عند أولئك الذين يحكمون العالم هو مغناطيسية مظهرهم . فليس التزام الفقر بالنسبة اليهم قمعا للنفس فحسب ، بل انه انتحار .

وهنا دخل سنديب الحجرة بلا صوت ، فطرحت شـالى على

صندوق الحلى بحركة سريعة . وسأل بنبرة ساخرة : لم ينتــه الحديث الخاص بعد ؟

فقال أموليا معتذرا : بلى . قد انتهينا . لم يكن أمرا ذا بال.

قلت : لا يا أموليا . اننا لم ننته بعد .

فقال سنديب : اذن فليخرج سنديب للمرة الثانية ؟

ـ اذا سمحت .

ـ وماذا عن عودة سنديب ...

ـ اليوم لا . ان وقتى لا يتسع .

فقال سنديب وعيناه تبرقان : هكذا ..! الوقت لا يسمح الا بالاحاديث الخاصة !

انها الغيرة ! عندما يبدى الرجل القوى ضعفا ، هنالك لايملك الجنس الاضعف الا أن يدق طبول النصر . وهكذا كررت فى حزم : حقا ان وقتى لايتسع .

فخرج سنديب وقد اربد لونه . وانزعج أموليا انزعاجا شديدا.

قال مجادلا : يا أختى الرانى ، ان سنديب غاضب .

فقلت بشىء من الحدة : لا شىء يدعوه الى الغضب ، ولا حق له فى أن يغضب . دعنى أحذرك من شىء واحد يا أموليا : لا تخبر سنديب بابو بشىء عن بيع حليى ـ بحياتك لا تفعل !

ـ لن أفعل .

اذن يحسن ألا ننتظر . اذهب بقطار الليل .

وغادرنا الحجرة أنا وأموليا معا . وحين خرجنا الى الشرفة كان سنديب واقفا هناك ، ولم يخف على أنه كان منتظرا ليتصــيد أموليا . ولأمنع ذلك كان لابد أن أشغله . فسألته : ماذا أردت أن تقول لى يا سنديب بابو ؟

ـ ليس لدى شىء بعينه أريد قوله ـ لـكن بعض الحديث ، ومادام وقتك لايتسع ...

ـ أستطيع أن أمنحك قليلا منه .

وكان أموليا قد ذهب . فسألنى سنديب ونحن ندخل الحجرة : ما ذلك الصندوق الذى حمله أموليا ؟

ان الصندوق لم يخف عن عينيه . بيد انى ظللت راســخة .

قلت : لو كان لى أن أخبرك لأعطيته اياه فى حضورك !

ـ أتظنين اذن أن أموليا لن يخبرنى ؟

ـ لن يفعل .

ولم يعد سنديب قادرا على اخفاء غضبه . فانفجر صائحا :
أتحسبين أنك سوف تعلين على ؟ ان ذلك لن يكون أبدا . أموليا هذا لو رضيت أن أدوسه تحت قدمي لمات سعيدا . اننى لن أسمح لك ما حييت بأن تجعليه يركع عند قدميك !

أوه ، الضعيف ، الضعيف ! أخيرا أدرك سنديب أنه ضعيف أمامى ! هذا سبب غضبته المفاجئة . لقد فهم أنه لايستطيع أن يقابل سلطانى بالقوة وحدها . فأنا أستطيع بنظرة أن أجعل أقوى حصونه يتداعى . اذن فلابد له أن يلجأ الى التهديد . واكتفيت بأن ابتسمت فى احتقار صامت . أخيرا استطعت أن أعلو عليه . يجب ألا أتخلى عن موقعى هذا أبدا . يجب الا أهبط ثانية . وسط كل انحدارى يجب أن تبقى لى هذه القطعة من الكرامة !

قال سنديب بعد هنيهة : أنا أعلم أنه كان صندوق حليك .

قلت : لك أن تخمن ما تشاء ! ولكنك لن تظفر بشيء منى .

— اذن فأنت تثقين بأموليا أكثر مما تثقين بى ؟ أتعلمين أن هذا الصبى هو ظل ظلى ، صدى صداى ، انه لا شيء أن لم أكن بجانبه ؟

— حيث لايكون صداك يكون هو نفسه ، أى أموليا ، وهناك أثق به أكثر مما أستطيع أن أثق بصداك !

— لا تنسى انك أخذت على نفسك عهدا بأن تهبى كل حليك لعبادة الأم المقدسة . بل انك قدمت هذه الهبة فعلا .

— مهما تبق لى الآلهة من حلى توهب للآلهة . ولكن كيف أهب ما سرق منى ؟

— انظرى ! عبثا تحاولين الرواغ منى هكذا . لقد حان وقت العمل العبوس ، فلينته هذا العمل ولك بعد ذلك أن تبدى من كيدك النسوى ما يبهج فؤادك ، وسوف أساعدك فى لعبتك .

منذ سرقت نقود زوجى ودفعتها الى سنديب توقفت الموسيقى التى كانت فى علاقاتنا . لم أضيع كل قيمتى بارخاص نفسى فحسب ، بل ان قدرات سنديب فقدت مجال نشاطها الكامل أيضا . انك لا تستطيع أن تبدى مهارتك فى الرماية اذا كانت الرمية فى قبضتك . وكذلك فقد سنديب منظر البطل ، ودخلت فى كلماته نبرة شجار سوقى .

ظل سنديب مثبتا عينيه اللامعتين على وجهى حتى بدتا وكأنهما تتلهبان بكل ظمأ سماء الظهيرة . وحرك قدميه مستوفزا مرة أو

مرتين ، وكأنه يهم بالانقضاض على . وكان جسمى كله كأنه يسبح، وعروقى تنبض ، والدم الحار يصعد الى أذنى ، وشعرت أنى ان بقيت هناك فلن أقوم أبدا . فانتزعت نفسى عن الكرسى بجهد بالغ ، وأسرعت نحو الباب .

وجاءت من حلق سنديب الجاف صرخة مكتومة : أين تهربين يا ملكة ؟ وفى لحظة نهض عن كرسيه وثبا ليمسكنى . غير أنه تراجع مسرعا لوقع خطا خارج الباب ، وانحط فى كرسيه ثانية. وقيدت خطاى قرب رف الكتب حيث وقفت أحملق فى العناوين.

وصاح سنديب حين دخل زوجى الحجرة : ترى هل تحتفظ ببرونتج بين كتبك هذه يا نيكهيل ؟ لقد كنت أحدث الملكة الساعة عن نادينا فى الكلية . أتذكر مسابقتنا فى ترجمة هذه الابيات لبرونتج ؟ ألا تذكر ؟

« ما كان لها أن تنظر الى
لو كانت تقصد ألا أحبها .
كثيرون هم ... من يدعون رجالا ،
الذين تكشف لهم روحها ،
ولكنها تترك معظمهم كما وجدتهم ،
أما أنا فلست مثلهم ،
ولقد علمت ذاك ،
حين أثبتتنى ، وعيناها تجولان حولهم . »

لقد استطعت أن أجمع الكلمات لأؤديها فى البنغالية ، ولكن النتيجة لم تكن « متعة خالدة » لأبناء البنغال ، بل لقد حسبت مرة أنى على وشك أن أصبح شاعرا ، ولكن القدر أنقذنى من هذا البلاء . أتذكر داكشينا العجوز ؟ لو لم يصبح مفتش ضرائب لكان شاعرا . اننى أذكر ترجمته الى اليوم ..

لا ياملكة ، لافائدة من النبش فى هذه الارفف . لقد كف نيكهيل عن قراءة الشعر منذ زواجه ــ ولعله لم يعد بحاجة اليه ، ولكنى أظن « حمى الشعر » ، كما تسمى بالسنسكريتية ، توشك أن تنتابنى مرة أخرى .

قال زوجى : لقد جئت لأحذرك ياسنديب .

ــ من نوبة حمى الشعر !

فلم يبال زوجى بهذه المحاولة للهزل . واستمر يقول : انالوعاظ المسلمين يطوفون منذ مدة محرضين السكان المسلمين . وكلهم

حانقون عليك ، وقد يهاجمونك فى أية لحظة .

— هل جئت تنصح بالهجرة ؟

— لقد جئت لأنبئك لا لأنصحك .

— لو كانت هذه الضياع ملكى لكان الوعاظ هم المحتاجين للتحذير لا أنا ، ولو خشنت لهم بدلا من أن تحاول تخويفى لكان أجدر بك وبى . هل تعلم أن ضعفك يضعف ملاك الاراضى جيرانك أيضا ؟

— اننى لم أقدم اليك نصحى ياسنديب ، وأود أن تمتنع أنت أيضا عن تقديم نصحك الى . ثم انه غير مجد . هناك شىء آخر أريد أن أخبرك به ، انك وأتباعك قد لبثتم ترهقون سكان أرضى وتؤذونهم فى الخفاء ، ولا يمكننى أن أسمح باستمرار ذلك ، لهذا يجب على أن أسألك مغادرة أرضى .

— خوفا من المسلمين ، أم أن هناك خوفا آخر تهددنى به ؟

— هناك أنواع من الخوف يكون انعدامها جبنا . باسم تلك المخاوف آمرك يا سنديب أن ترحل . سأكون فى طريقى الى كلكتا بعد خمسة أيام ، وأريد أن ترافقنى . ولك بالطبع أن تقيم فى منزلى هناك ، فلا اعتراض لى على ذلك .

— حسنا ، اذن فلا يزال لدى خمسة أيام . والآن ياملكة دعينى أغنى لك أغنية فراقى لخليتك . آه يا شاعر البنفال الحديثة ! افتح أبوابك ودعنى أنهب كلماتك . انك أنت السارق حقا لأن الاغنية التى جعلتها ملكك هى أغنيتى . فليكن الاسم لك كما تشاء ولكن الاغنية لى .

قال سنديب ذلك وانطلق يغنى بصوت عميق أجش . يوشك أن يخرج عن النغمة . أغنية من مقام البهايرافى :

« فى ربيع مملكتك يا مليكتى .

« تتعاقب اللقيا والفراق فى طراد لاينتهى ،

« وتورق الزهور على آثار اللواتى ذبلن ومتن فى الظلال .

« فى ربيع مملكتك يا مليكتى .

« لقياى واياك كانت لها أغانيها .

« أما لرحيلى هدية يقدمها اليك ؟

« بلى ، هى الامل الخفى خبأته فى ظلال جنة أزهارك

« أن تندى أمطار تموز نيران حزيرانك . »

كان جسورا أيما جسارة ، جسارة سافرة عارية كالنار ، لايلحقها

المرء ليوقفها الا كما يقاوم صاعقة : البرق يخطف ، يضحك من كل مقاومة .

غادرت الحجــرة . وبينما كنت أعبــر الشرفة نحو الحجرات الداخلية ظهر أموليــا فجأة وجاء ووقف أمامى . قال : لا تخشى بأسا يا أختى الرانى . انى ذاهب الليلة ولن أعود خائبا .

قلت وأنا أحد النظر الى وجه الفتى الجاد : أنا لا أخاف على نفسى شيئا ، ولــكننى أدعو ألا ينقضى خوفى عليك أبدا .

والتفت أموليا ليذهب ، ولــكنى ناديته قبــل أن يغيب عن عينى وسألته : ألك أم يا أموليا ؟

ـ أجل .

ـ وأخت !

ـ لا . اننى وحيد أمى . أبى مات وأنا طفل صغير .

ـ اذن عد الى أمك يا أموليا .

ـ لــكن يا أختى الرانى ، ان لى الآن أما وأختا .

ـ اذن تعال يا أموليا قبل أن تسافر الليلة ، وتناول عشاءك هنا .

ـ لن يتسع الوقت لذلك . زودينى بطعام للرحلة مبارك من يديك .

ـ ما أحب طعام اليك يا أموليا ؟

ـ لو كنت مع أمى لأخذت كثيرا من كعك « البوش » . اصنعى لى بعضا منه بيديك يا أختى الرانى !

الفصل العاشر

حكاية نيكهيل

- ١٢ -

علمت من أستاذى أن سنديب قد تحالف مع هاريش كوندو ، وأن احتفالا كبيرا سيقام لعبادة الالهة مهلكة الشياطين . وراح هاريش كوندو يبتز النفقات من سكان أرضه ، وطلب من البانديت كافيراتنا والبانديت فيديا جافيش أن ينظما نشيدا مزدوج المعنى .

وكان أستاذى قد جادل سنديب فى هذا الأمر . وسنديب يقول : ان التطور يعمل عمله فى الآلهة أيضا ، فلابد للحفيد أن يعيد تشكيل الآلهة التى خلقها جده لتصبح موافقة له ، والا فانه يصير ملحدا . ورسالتى هى أن أجدد الآلهة القديمة . لقد ولدت لأنقذ الآلهة وأحررهم من عبودية الماضى .

لقد عرفت منذ صباى كيف يلعب سنديب بالمعانى لعب الحواة. انه لا يهتم باكتشاف الحقيقة ولكنه يطرب للالغاز فيها . ولو ولد فى أحراش أفريقية لقضى وقتا ممتعا فى اختراع حجة بعد حجة لاثبات أن أكل لحوم البشر هو أمثل السبل لتنمية الاتصال الصحيح بين الانسان والانسان . ولكن الذين يتاجرون بالضلالة ينتهون باضلال انفسهم ، ويقينى الثابت أن سنديب يقنع نفسه بأنه قد وجد الحقيقة كلما اختلق مغالطة جديدة ، مهما يكن بين مختلقاته من تناقض .

ولكننى لن أكون عونا على انشاء مصنع للخمور فى بلادى . ان الشبان الراغبين فى خدمة قضية بلادهم يجب الا يتعودوا السكر ، وهؤلاء الذين يريدون أن يحصلوا على عمل بأساليب التخدير يهتمون بالاثارة أكثر مما يهتمون بالعقول التى يثيرونها .

كان لابد أن أبلغ سنديب ، فى حضرة بيمالا ، بضرورة رحيله . ولعل كليهما سيفسران الدافع لى على ذلك تفسيرا خاطئا . ولكننى يجب أن أتحرر أيضا من كل خوف أن يسىء أحد فهمى ، ولو كان بيمالا ...

يتوافد من « دكا » عدد من الوعاظ المسلمين . كان المسلمون فى أرضى قد اكتسبوا كراهة لذبح البقر تكاد تساوى كراهة الهندوس لذلك ، ولكن حوادث ذبح الابقار بدأت تظهر هنا وهناك. وقد سمعت الخبر أول الأمر من بعض السكان المسلمين الذين أبدوا استنكارهم له . كان موقفا يصعب علاجه . ففى قرارته حمية دينية مصطنعة ، لن تبقى مصطنعة اذا كبحت . وفى هذا كانت عبقرية الحركة !

بعثت الى بعض السكان الهندوس وحاولت أن أبصرهم بالأمر على حقيقته . فقلت لهم : ان لنا أن نتمسك بعقائدنا ، ولكن لا سلطة لنا على عقائد غيرنا . فمع أن فينا كثيرا من الفياشنافا ، فان الشاكتا من بيننا لايزالون يقربون ذبائحهم ، هذا أمر لا مفر منه . وكذلك يجب علينا أن نترك المسلمين يفعلون ما يرونه صوابا. لهذا أرجو أن تمتنعوا عن كل شغب .

فأجابوا : يا مهراجا ، لقد هجرت هذه الاساءات زمنا طويلا .

قلت : أجل ، كان ذلك لأنهم شاءوه هم أنفسهم . فليكن مسلكنا بحيث يساعد على تحقيق ذلك مرة أخرى . ولكن نقض السلام لا يساعد على تحقيقه .

فأصروا : لا يا مهراجا . لقد ذهبت تلك الايام . ولن يقف هذا الأمر الا أن تقمعه قمعا .

قلت : ان الاضطهاد لن يمنع قتل الابقار ، وقد يؤدى الى قتل الناس أيضا .

وكان أحدهم قد تلقى تعليما انجليزيا ، وتعلم ترديد العبارات الجارية ، فاحتج بقوله : ليست المسألة مسألة عقيدة فقط . ان بلادنا تعتمد على الزراعة ، والابقار ..

فقاطعته قائلا : ان الجاموس فى هذه البلاد أيضا يؤخذ لبنه ويستخدم فى الحرث . وما دمنا نرقص رقصات جنونية على أفاريز معابدنا وقد تلطخنا بدمائها وحملنا رءوسها المقطوعة على أكتافنا فان الدين سيسخر منا لو تنازعنا نحن والمسلمون فيها ، والحقيقة الوحيدة التى ستبقى هى النزاع . واذا كانت البقرة وحدها دون

الجاموسة هى المقدسة التى لاتذبح فان هذا لايكون دينا بل تعصبا.

وواصل الساكن الذى يعرف الانجليزية قوله : لعلك لا تعلم ياسيدى ما وراء هذا كله ؟ ان هذا لم يصبح ممكنا الا لأن المسلم آمن ولو خرق القانون . ألم تسمع بقضية باتشور ؟

فسألت : وكيف أمكن استخدام المسلمين ضدنا ؟ ألسنا نحن الذين دفعناهم الى ذلك بتعصبنا ؟ هكذا يعاقبنا القدر . ان ذنوبنا المتراكمة تقع على رءوسنا .

ــ حسنا ، فلتقع . ولكننا سننتقم . لقد قضينا على أعظم قوة للسلطات وهى ولاؤها لقوانينها . انهم كانوا مرة ملوكا حقا يقيمون العدالة ، والآن أصبحوا هم أنفسهم خارجين على القانون، فليسوا اذن أفضل من اللصوص . قد لايسجل التاريخ هذا ولكننا سنحمله فى قاوبنا على مدى الزمن .

أقاويل السوء التى تتناقلها الصحف عنى تجعل لى شهرة ذميمة. وثمة خبر يقول : ان صورتى أحرقت فى محرقة آل تشاكرا فارتى المجاورة للنهر بما ينبغى من احتفال وحماسة . وهناك اهانات أخرى تعد . وكان سبب هذه المتاعب أنهم جاءوا يطلبون منى المساهمة فى مصنع لنسج القطن أرادوا انشاءه ، فاضطررت ان أقول لهم : انى لا أبالى بضياع نقودى ولكنى لا أحب أن أشترك فى انزال الخسارة بكثير من المساهمين الفقراء . فقال زائرى : هل نفهم من هذا يا مهراجا أنك غير معنى بتقدم البلاد ؟

فقلت موضحا : ان الصناعة قد تؤدى الى تقدم البلاد ، ولكن مجرد الرغبة فى تقدمها لا يؤدى الى نجاح الصناعة . ان صناعاتنا لم تزدهر عندما كانت رءوسنا أهدأ ، فلماذا تقدر أنها ستزدهر لغير سبب الا أننا أصبحنا مجانين ؟

ــ هلا قلت بصراحة : انك لا ترغب فى المخاطرة بنقودك ؟

سأقدم نقودى عندما أرى انكم مهتمون بالصناعة حقا . لكن اذا كنتم قد أشعلتم نارا فلا يستنتج من ذلك أن لديكم طعاما تطهونه عليها .

ــ ١٣ ــ

ما هذا ؟ خزانتنا الفرعية فى « تشاكنا » نهبت ! كان من المقرر أن تصل ٧٥٠٠ روبية من هناك الى المركز الرئيسى ، وكان صراف الاقليم قد بدل العملة المعدنية من خزانة الحكومة بأوراق نقدية

حتى يسهل عليه حملها ، وتركها مجهزة فى حزم . وفى جوف الليل أغارت عصابة مسلحة على الحجرة ، وجرحوا الحارس «قاسما» والغريب فى الأمر أنهم لم يأخذوا الا ستة آلاف روبية ، وتركوا الباقى مبعثرا على الارض ، مع انه كان من السهل عليهم أن يأخذوه أيضا . على كل حال أنتهت غارة اللصوص لتبدأ غارة الشرطة . ولم يعد السلام فى الامكان .

عندما دخلت البيت وجدت الخبر قد سبقنى اليه . صاحت البارا رانى : ما أفظع الأمر يا أخى ، ماذا نستطيع أن نعمل ؟

فهونت الأمر عليها . قلت مبتسما : لايزال لدينا بعض النقود ، ونستطيع أن ندبر حالنا .

— لا تجعلها ضحكة يا أخى العزيز . لماذا كلهم غاضبون عليك ؟ ألا تستطيع ارضاءهم ؟ لماذا تجعل الجميع ضدك ؟

— لا يمكننى أن أترك البلاد تسير الى الخراب ولو كان فى ذلك رضا الجميع .

— كان شيئا فظيعا هذا الذى فعلوه فى المحرقة . عار أن يعاملوك هكذا . لقد تخلصت تشوتا رانى من جميع مخاوفها بفضل تعليم المرأة الانجليزية ، أما أنا فلم أجد بدا من أن أبعث الى الكاهن ليطرد النحس حتى أجد شيئا من الراحة . أرجوك ياعزيزى ، من أجل خاطرى ، ترحل الى كلكتا . انى أرتجف من التفكير فيما يمكن أن يفعلوه ان بقيت هنا .

تأثرت تأثرا عميقا لاشفاقها الصادق ومضت زوجة أخى تقول :

— ويا أخى ، ألم أحذرك من الاحتفاظ بهذه النقود الكثيرة فى حجرتك ؟ انهم لا يبعد أن يشموا خبرها يوما . لا تهمنى النقود — لكن من يدرى ..

ولكى أطمئنها وعدت بنقل النقود الى الخزانة على الفور ثم ارسالها الى كلكتا مع أول حرس ذاهب . وذهبنا معا الى حجرة نومى . كان باب حجرة الملابس مغلقا . وحين طرقته صاحت بيمالا : انى ألبس ..

فقالت زوجة أخى فى دهشة : عجبا لتشوتا رانى ، تلبس فى هذا الوقت المبكر ! لعله أحد اجتماعات « باندى ماترم » .

ونادت بيمالا ممازحة : أيتها الملكة السارقة ! هل تعدين غنائمك عندك ؟

وقلت خارجا الى حجرة مكتبى : سأعنى بأمر النقود بعد قليل .

وجدت مفتش الشرطة فى انتظارى ، فسألته : هل من أثر للصوص ؟؟

– انى أظن ذلك .

– من . . . ؟

– قاسم ، الحارس .

– قاسم ، ألم يجرح ؟

– شيئا غير ذى بال . جرحا سطحيا فى الساق ، لعله هو الذى أحدثه .

– ولكنى لا أستطيع أن أصدق . انه خادم جد أمين .

– لعلك كنت تأتمنه ، ولكن ذلك لا يمنع أنه لص . لقد رأيت رجالا يؤتممنون عشرين سنة ثم يتحولون فجأة . . .

– حتى ان صح هذا فانى لا أستطيع أرساله الى السجن . ولكن لماذا يترك بقية النقود وهى أمامه ؟

– ليضللنا . مهما تقل يا مهراجا فلابد أنه لص أزرق الناب . انه يقوم بالحراسة فى نوبته ، هذا صحيح ، ولكنى واثق أن له اصبعا فى جميع السرقات التى تحدث فى هذه المنطقة .

وبدأ المفتش يسرد الطرق المختلفة التى يمكنه بها أن يشترك فى سرقة على بعد عشرين ميلا أو ثلاثين ثم يعود قبل موعد نوبته . فسألته : هل أحضرت قاسما الى هنا ؟

وكان الجواب : لا ، انه فى الحجز ، وسيحضر المحقق لاستجوابه .

فقلت : أريد أن أراه .

وحين ذهبت الى زنزانته ركع عند قدمى باكيا وقال : أقسم بالله انى لم أفعل هذا الشىء !

فطمأنته قائلا : أنا لا أشك فيك يا قاسم . لا تخش شيئا . انهم لن يفعلوا بك شيئا اذا كنت بريئا .

ولكن قاسما عجز عن أن يقدم وصفا مترابطا للحادث . وكان من الواضح انه يبالغ ، فقد كان فى قصته أربعمائة رجل أو خمسمائة ، ومدافع كبيرة ، وسيوف لا تحصى . ولابد أن ذلك كان راجعا اما الى هوشة عقله أو الى رغبته فى تفسير انهزامه السريع . وكان رأيه أن هذا تدبير هاريش كوندو ، بل لقد زعم أنه سمع صوت « اكرام » كبير خدم آل كوندو .

واضطررت أن أحذره بقولى : اسمع يا قاسم ! لا تجر اناسا

آخرين بحكاياتك . انك غير مطالب بتوجيه اتهام الى هاريش كوندو أو الى غيره .

- ١٤ -

حين عدت الى المنزل دعوت أستاذى . فهز رأسه بحزن وقال : أنا لا أرى فى هذا خيرا . هذا الاطراح للضمير واحلال الوطن محله. الآن ستنطلق كل آثام البلاد مروعة لا تستحى .

- من تظنه ...

- لا تسألنى . ولكن الاثم يستشرى . اطردهم جميعا . اطردهم فورا من هنا .

- لقد أعطيتهم يوما آخر ، وسوف يرحلون بعد غد .

- وشيء آخر .. خذ بيمالا الى كلكتا . انها تنظر الى العالم الخارجى من هنا نظرة جد ضيقة ، فهى لا تستطيع أن ترى الناس والاشياء فى نسبها الحقيقية . دعها تر الدنيا - الناس وعملهم - أتح لها نظرة أوسع .

- هذا بعينه ما كنت أفكر فيه .

- اذن فلا تتوان عن تنفيذه . واعلم يا نيكهيل أن تاريخ الانسان يجب أن يبنى بتضافر جهود جميع الاجناس فى العالم ، ولذا فلن ينفع بيع الضمير هكذا من أجل أسباب سياسية ، وجعل وطن المرء معبودا خاصا له . أنا أعلم أن أوربا لا تسلم بذلك فى صميم قلبها . ولكنها لا تستطيع أن تدعى لنفسها الحق فى الوقوف منا فى هذا الأمر موقف المعلم . ان الرجال الذين يموتون فى سبيل الحق يخلدون ، واذا استطاع شعب بأسره أن يموت فى سبيل الحق فانه سيخلد أيضا فى تاريخ البشرية . فليصبح هذا الشعور نحو الحق واقعا هنا فى أرض الهند ، بين ضحك الشيطان الذى يخترق السماء ! أى وباء من الاثم مروع حمل الى بلادنا من أراض أجنبية.

مر اليوم كله فى دوامة من التحقيق . وكنت منهكا حين أويت الى فراشى مؤجلا ارسال نقود زوجة أخى الى الخزانة حتى الصباح التالى .

وصحوت من نومى فى سكون الليل . كانت الحجرة مظلمة . وخلت انى سمعت أنينا فى مكان ما . لابد أن أحدا كان يبكى . جاءت أصوات النحيب مثقلة بالدموع كنفثات الريح فى ليل مطير . وخيل الى أن الصراخ ينبعث من قلب حجرتى . كنت وحيدا ، فقد نقلت بيمالا سريرها منذ بضعة أيام الى حجرة مجاورة لحجرتى،

فقمت وحين خرجت وجدتها فى الشرفة منبطحة على وجهها فوق الارض العارية .

هــذا شيء لايمكن أن يكتب بكلمات . انما يعلمه من هو مستو فى صدر العالم يتلقى نبضات الألم منه فى قلبه هو . السماء بكماء ، النجوم خرساء ، الليل هامد ، وفى وسط هذا كله صرخة واحدة لا تنام !

اننا نعطى هــذه العذابات أسماء ، رديئة أو حسنة ، حسبما تصنفها الـكتب . لـكن هل ثمة اسم لهذا الوله النابع من قلب ممزق ، يصب فى الظلام الذى لا قرار له ؟ عندما نظرت الى ذلك الشبح ، فى قلب ذلك الليل ، وانا واقف تحت النجوم الصامتة ، عرتنى رهبة وقلت لنفسى : « من أنا حتى أدينها ؟ » يا حيــاة ، ياموت ، يا الله ، يا من تقصر عن وجودك الحدود ، اننى أحنى رأسى صامتا أمام سرك .

فكرت مرة أن أرجع ، ولـكننى لم أستطع فجلست علىالارض قرب بيمالأ ووضعت يدى على رأســها . عند أول لمسة بدا كأن جسمها كله تصلب ، ولـكن الصلابة استرخت فى اللحظة التالية ، وانفجرت الدموع . وأمررت أصابعى برفق على جبينها ، وفجأة أمسكت يداها المتلمستان بقدمى واحتضنتهما بقوة حتى ظننت أن قلبها ينشق .

حكاية بيمالا

— ١٨ —

موعد أموليا أن يعود من كلكتا هذا الصباح . أمرت الخدم أن ينبئونى ساعة وصوله ولكنى لم أستطع أن أقر فى مكانى. وأخيرا خرجت لأنتظره فى حجرة الجلوس .

اخالنى لم أكن أفكر فى غير نفسى عندما أرسلته ليبيع الحلى . فلم يخطر ببالى أن مثل هذا الصبى الصغير يتعرض للشبهة على الفور اذا حاول أن يبيع حليا ثمينة كهذه . نحن النساء ضعيفات الحيلة حتى اننا لنحمل غيرنا عبء الخطر المحدق بنا ، وعندما ننساق الى موتنا نجر من حولنا اليه .

لقد قلت فى فخر اننى سأنقذ أموليا . كأنما تستطيع الغريقة أن تنقذ غيرها . ولكننى بدلا من أن أنقذه أرسلته الى هلاكه . يا أخى الصغير ، اى أخت كنت لك ! لاشك أن الموت ابتسم فى يوم الاخ ذاك حين منحتك بركتى — أنا التى أهيم شاردة اللب تحت عبء خطاياى .

أشعر اليوم أن الانسان يهاجمه الشر أحيانا كما يهاجمه الوباء. جرثومة تجد طريقها من مكان ما ، وفى مدى ليلة يدخل الموت بخطاه الخشبية . لماذا لا يبعد المصاب عن سائر الناس ؟ أنا على الاقل عرفت فظاعة العدوى ، كمشعل نارى يحترق ليضرم النار فىالعالم.

دقت التاسعة . ولم أستطع أن اتخلص من فكرة أن أموليا فى مأزق ، وانه قد وقع فى أيدى الشرطة . لابد أن هناك هياجا شديدا فى مركز الشرطة — من صاحبة الحلى ؟ — من اين حصل عليها ؟ وعلى أخيرا أن أقدم الجواب علنا ، على رءوس الاشهاد .

ماذا يكون ذلك الجواب ؟ هذا يومك يا بارا رانى ، أنت التىطالما احتقرتك . ستنالين قصاصك وأنت فى صورة الجمهور ، فى صورة الدنيا . رباه ! جنبنى هذه الساعة ، فأطرح كل كبريائى عند قدمى سلفتى .

لم أعد أطيق صبرا . فذهبت توا الى البارا رانى . كانت فى الشرفة تقطع أوراق «التنبول» كعادتها وثاكو بجانبها . وأجفلت لحظة حين رأيت ثاكو ، ولكنى تغلبت على كل تردد ، وانحنيت انحناءة عميقة ومسحت التراب عن قدمى سلفتى . فصاحت : عجبا لك ياتشوتا رانى ! ماذا أصابك ؟ لم هذه التحية المفاجئة؟

قلت : انه يوم ميلادى يا أختى . لقد سببت لك آلاما كثيرة. فامنحينى بركتك اليوم حتى لا أعود الى ذلك . انعقلى صغير.

وكررت انحناءتى وتركتها مسرعة ، ولكنها نادتنى :

ـ لم تخبرينى قط ان هذا يوم ميلادك ياحبيبتى «تشونى» ! يجب أن تتغدى عندى اليوم . يجب ، يجب .

رباه ، اجعله حقا يوم ميلادى ! ألا يمكن أن أولد من جديد؟ امسح أوضارى ياربى ، طهرنى واختبرنى مرة أخرى !

ذهبت ثانية الى حجرة الجلوس لأجد سنديب هناك . فخيل الى أن شعورا بالتقزز يسمم دمى نفسه . لم يكن فى وجهه الذى رأيته فى ضوء الصباح شىء من ألق العبقرية . صحت : اخرج من الحجرة !

فابتسم سنديب قائلا : مادام أموليا غير موجود فأظن أن دورى قد جاء لحديث خاص .

كان قدرى ينصب على من جديد . كيف أنزع حقا أنا منحته. كررت : أحب أن أبقى وحيدة .

قال : يا ملكة ، ان وجود شخص آخر لايمنع أن تكونى وحيدة . لا تحسبينى واحدا من الدهماء . أنا ــ سنديب ــ وحيد أبدا ، ولو كان حولى ألوف .

ـ أرجوك أن تأتى فى يوم آخر . اننى فى هذا الصباح ..

ـ تنتظرين أموليا ؟

وتحولت من غيظى لأترك الحجرة ، واذا بسنديب يخرج من بين ثنايا عباءته صندوق حليى ويضعه بقوة على المنضدة الرخامية. وتملكتنى الدهشة ، فصحت : ألم يذهب أموليا اذن ؟

ـ الى أين ؟

ـ الى كلكتا .

فتهاتف سنديب : لا .

اذن فقد صحت بركتى على الرغم من كل شىء . لقد انقذ . فليقع عقاب الله على ، فأنا الاصل ، وليبق أموليا فى مأمن !

أثار تغير طلعتي احتقار سنديب ، فقال ساخرا : كل هذا السرور يا ملكة ! أهذه الحلى ثمينة جدا الى هذا الحد ؟ كيف استطعت اذن أن تتغلبي على نفسك حتى تهبيها للالهة ؟ لقد أعطيت هبتك فعلا ، أتحبين أن ترجعى فيها الآن ؟

ان الكبرياء تدافع عن نفسها حتى الموت ، وترفع مخالبها الى اللحظة الاخيرة . لقد وضح لى أننى يجب أن أبدى لسنديب استهانتى بهذه الحلى ، فقلت : خذها ان كانت تثير طمعك .

فأجاب سنديب : ان طمعى اليوم يحيط بكل ثروة البنغال . هل هناك قوة أعظم من الطمع ؟ انه ركوبة عظماء الارض ، كما أن الفيل ايراوات ركوبة اندرا . هذه الحلى هى اذن لى ؟

وبينما كان سنديب يتناول الصندوق ويعيده تحت عباءته اندفع أموليا داخلا . كانت تحت عينيه حلقات سوداء ، وكانت شفتاه جافتين ، وشعره مشعثا ، وكأنما ذبلت نضرة شبابه فى يوم واحد. واعتصر الألم قلبى حين نظرت اليه . صاح وهو يمضي الىسنديب دون أن ينظر نحوى : صندوقى ! هل أخذت صندوق الحلى هذا من حقيبتى ؟

فقال سنديب ساخرا : صندوق حليك ؟

ـ انها حقيبتى !

فانفجر سنديب ضاحكا : لقد أصبحت ضعيف التمييز بينمالك ومالى يا أموليا . وما أحسبك الا ستموت واعظا دينيا .

غاص أموليا فى كرسى وقد أخذ وجهه بين يديه . فذهبت اليه ووضعت يدى على رأسه وسألته : ما يحزنك يا أموليا ؟

فأجاب وهو يقف معتدلا : لقد منيت نفسى يا أختى الرانى أن أرد هذه الحلى اليك بيدى . وكان سنديب بابو يعلم ذلك ولكنه سبقنى .

قلت : وما قيمة الحلى لى ؟ فلتذهب . اننى لن أضار .

فسأل الفتى مذهولا : تذهب ؟ أين ؟

قال سنديب : ان الحلى لى . هبة من ملكتى !

فصاح أموليا ثائرا : لا ، لا ، لا ! لن يكون ذلك يا أختى الرانى . لقد أحضرتها لك ، فلن تعطيها لانسان آخر .

قلت : اننى أقبل هديتك يا أخى الصغير . ولكن دع من يحلم بها يرضى طمعه .

فحملق أموليا فى سنديب كوحش ضار ، وزمجر : اسمع

يا سنديب بابو ، أنت تعلم انى لا أخاف الشـــنق نفســـه ، لو جرؤت على ان تأخذ هذا الصندوق ..

فقال سنديب وهو يحاول أن يصطنع ضحكة سخرية : ينبغيأن تكون قد علمت أيضا يا أموليا انى لست بالرجل الذى يخافك .

ومضى يقول ملتفتا الى : يا ملـكة ، اننى لم آت الى هنا اليوم لآخذ هذه الحلى ، بل لأقدمها اليك . فلو أخذت هديتى من يدى أموليا لـكنت مخطئة . لقد كان على أن أجعلها ملـكا خالصا لى أولا حتى أمنع ذلك . والآن أهدى اليك جواهرى هذه . اليك ! تفاهمى مع هذا الفتى كما تشائين ، فانى ذاهب . لقد شـغلتما بأحاديثكما الخاصة كل هذه الايام ، وجعلتمانى بمعزل . فانحدثت أمور خاصة الآن فلا تلومانى .

وأردف : أموليا ! لقد أرسلت حقائبك وأمتعتك الى مسكنك . فلا تبق شيئا مما تملـكه فى حجرتى بعد الآن .

أطلقسنديب هذه الرصاصة الاخيرة ، واندفعخارجا منالحجرة.

— ١٩ —

قلت لأموليا : لم أعرف راحة القلب منذ بعثتك لتبيع حليى .

ــ لمـاذا يا أختى الرانى ؟

ــ خفت أن تقع فى المتاعب بسببها ، فيشكوا أنك لص . وكان أهون على أن أستغنى عن هذه الستة آلاف من الروبيات . الآن يجب عليك أن تفعل شيئا آخر من أجلى . عد الى بيتك حالا . عد الى أمك .

فأخرج أموليا ربطة صغيرة وقال : ولـكننى أحضرت السـتة آلاف يا أختى .

ــ من أين ؟

فمضى يقول دون أن يجيب عن سؤالى : لقد اجتهـدت فى أن أحصـل على ذهب ولـكنى لم أستطع ، فاضطررت أن أحضرها أوراقا .

ــ قل لى الحق يا أموليا . احلف بحياتى . من أين حصلت على هذه النقود ؟

ــ هذا ما لن أخبرك به .

ورأيت كل شىء يظلم أمام عينى . صحت : ما هذا الأمرالفظيع الذى أتيته يا أموليا ؟ أهو اذن ...

ـ أعلمك ستقولين انى حصلت على هذه النقود من طريق سيىء. حسن جدا . انى أعترف بذلك . ولكنى دفعت ثمن اساءتى كاملا. واذن فالنقود الآن لى .

لم تعد بى رغبة الى معرفة المزيد ، تقلصت عروقى نفسها ، حتى جعلت جسمى كله ينكمش . وتضرعت : خذها يا أموليا . ردها كما أخذتها .

ـ ان هذا جد عسير !

ـ ليس بعسير يا أخى العزيز . لقد كانت لحظة منحوسة تلك التى جئتنى فيها أول مرة . حتى سنديب لم يستطع أن يؤذيك كما آذيتك .

وكأنما كان اسم سنديب طعنة له . صاح : سنديب ! انك أنت وحدك التى جعلتنى أعرف هذا الرجل على حقيقته . أتعلمين يا أختى انه لم ينفق دانقا من تلك الجنيهات الذهبية التى أخذها منك ؟ لقد أغلق على نفسه باب حجرته بعد أن خرج من عندك وراح يتأمل الذهب بعينين مشدوهتين ، وقد صبه فى كومة على الارض . وكان يصيح : « ليست هذه نقودا . انها أوراق الزهر فى لوتس القدرة ، أنغام متبلورة من موسيقى النايات التى تعزف فى جنة الثراء ! ان قلبى لايطاوعنى على تبديلها ، فانى أراها مشتاقة الى استيفاء حظها بتزيين جيد الجمال . أموليا يا ولدى ، لا تنظر الى هذه بعين جسمك ، انها ابتسامة لاكشمى ، ضياء ملكة اندرا الساطع . لا ، لا ، انى لا أستطيع تسليمها لذلك الوكيل الجلف . أنا واثق يا أموليا انه كان يكذب علينا. ان الشرطة لم تهتد الى الرجل الذى اغرق ذلك القارب . ان الوكيل هو الذى يريد أن يخرج بشىء من الصفقة . يجب أن نسترد تلك الخطابات منه » .

وسألته كيف نفعل ذلك ، فأمرنى أن أستخدم العنف أو التهديد . وقبلت أن أنفذ قوله ان هو رد الذهب . فقال انه سيفكر بعد فى هذا الأمر . ولن اثقل عليك يا أختى بالحديث عن كل ما فعلته لأخيف الرجل حتى سلم هذه الخطابات وأحرقتها ، فهذه قصة طويلة . وفى تلك الليلة نفسها جئت الى سنديب وقلت : نحن الآن آمنون . أعطنى الجنيهات الذهبية لأردها غدا الى أختى المهرانى . ولكنه صاح : ما هذه الفتنة منك ؟ ان ثوب أختك العزيزة يوشك أن يحجب البلاد كلها عن عينيك . قل « باندى

ماترم » وأبعد عنك الروح الشريرة .

انك تعلمين يا أختى الرانى قوة سحر سنديب . لقد بقى الذهب معه ، وأمضيت الليــل الطويل المظلم على درج البحيرة أتمتم : « باندى ماترم » .

ثم لما أعطيتنى الحلى لأبيعها ذهبت ثانية الى سنديب . فلم يخف على انه غاضب منى . وان حاول ألا يظهر ذلك . قال وهو يلقى الى بمفاتيحه : « ان كنت لا أزال أكنزها فى صندوق من صناديقى فلك أن تأخذها » . ولم أعثر لها على أثر ، فقلت : أخبرنى أين هى . قال : « سأخبرك حين تذهب عنك هذه الفتنة » .

ولما رأيت انى لن أستطيع زحزحته اضطررت أن ألجأ الى طرق أخرى. فحاولت أن أحصل منه علىالجنيهات الذهبية ازاء أوراقى المــالية وهى ستة آلاف روبية . فقال : « سآتيك بها » . ثم غاب فى حجرة نومه وتركنى أنتظر خارجها . وهناك فض حقيبتى وجاء اليك بصندوقك من طريق آخر . لقد أبى على أن أحضرها والآن يجرؤ على أن يسميها هديته . كيف أصف لك مقدار ماحرمنى منه ؟ اننى لن أغفر له أبدا .

ولــكن سلطانه علىقد انمحى تماما يا أختى . وأنت التىمحوته.

قلت : يا أخى العزيز ان صح ما تقوله فان حيــاتى لم تذهب عبثا . لــكن لاتزال هناك أعمال أخرى يا أموليا . فلن يكفى تدمير السحر حتى يغسل دنسه . لا تؤجل الأمر أكثر من هذا . اذهب من فورك ورد النقود حيث أخذتها . ألا يمكنك أن تفعل ذلك أيها العزيز ؟

ــ ببركتك كل شيء ممكن يا أختى الرانى .

ــ تذكر ان ذلك لن يــكون تكفيرا عنك وحدك بل عنى أيضا . فأنا امرأة ، والعــالم الخارجى مغلق أمامى ، ولولا ذلك لذهبت بنفسى . ان أشد عقاب أتحمله هو انى أحملك وزرى .

ــ لا تقولى هذا يا أختى . ان الطريق الذى سرت فيه لم يكن طريقك . لقد اجتــذبنى بأخطــاره ومصاعبه . والآن وقد نادانى طريقك فليكن أصعب ألف مرة وأشــــــد خطرا . فتراب قدميك سيساعدنى على الظفر . أتأمرين اذن برد هذه النقود ؟

ــ انا لا آمر يا أخى العزيز ، ولــكنه أمر السماء .

ــ عن هذا لا أعلم شيئا . يكفينى أن هذا الأمر السماوى يصدر

من شفتيك ، ثم انني يا أختي كنت أحسب لي دعوة ههنا . لست بمضيعها . أعطيني « البراساد » (١) قبل ذهابي . وان استطعت فسوف أتم واجبي في المساء .

واغرورقت عيناي بالدموع حين حاولت أن أبتسم وانا اقول : فليكن ماتريد .

(١) طعام باركته لمسه شخص مبجل (المترجم) .

الفصل الحادى عشر

حكاية بيمالا

– ٢٠ –

لما رحل أموليا غاص قلبى بين جنبى . الى أى مهلكة بعثت هذا الابن الوحيد ؟ رباه ! لماذا يكون لتفكيرى كل هذه الفخامة والاحتفال ؟ ألا يسمح لى بأن أتعذب وحدى دون أن أدعو كل هذا الجمع الى مشاركتى فى عقابى ؟ رباه ! لا تدع هذا الطفل البرىء يسقط ضحية لغضبك .

لقد ناديته ثانية : أموليا !

وكان صوتى ضعيفا فلم يبلغه ، فسرت الى الباب وناديت ثانية : أموليا !

كان قد ذهب .

– من هناك ؟

– أمنا الرانى !

– اذهب وقل لأموليا اننى أريده .

ولست أدرى ماذا حدث بالضبط . لعل الرجل لم يكن يعرف اسم أموليا ، ولكنه عاد من فوره يتبعه سنديب . قال وهو يدخل : لحظة طردتنى كنت أشعر أنك ستنادينني ثانية . ان جاذبية القمر نفسه تحدث الجزر والمد جميعا . لقد كنت واثقا من استدعائى حتى انى انتظرت فى الدهليز ، وما كدت ألمح خادمك خارجا من حجرتك حتى قلت : « نعم ، نعم ، أنا آت ، أنا آت على الفور ! » – قبل أن يستطيع النطق بكلمة واحدة . لقد دهش هذا الغبى وحملق فى فاغر الفم ، وكأنه يحسبنى عالما بالسحر .

واستطرد سنديب : كل المعارك فى العالم يا ملكة هى فى واقع الأمر معارك بين قوى مغناطيسية . سحر يقذف بسحر – أسلحة

لا صوت لها . تصل الى أهداف قد لا تبصرها العين . وأخيرا لقيت فيك كفؤا لي . اننى أعلم أن جعبتك ملأى ، أيتها الملكة المحاربة الماكرة ! أنت وحدك فى العالم التى استطعت ان تطردى سنديب وتستدعيه على هواك . حسنا ، ان صيدك عند قدميك . فماذا أنت فاعلة به الآن ؟ هل تجهزين عليه أم تبقينه فى قفصك ؟ دعينى أحذرك مقدما يا ملكة ، ستجدين التعجيل بقتل الوحش صعبا كاستبقائه فى الأسر . على كل حال ، لماذا ضياع الوقت فى تجربة أسلحتك السحرية ؟

لابد أن سنديب شعر بظل الهزيمة المقتربة ، فراح يحاول كسب الوقت بالثرثرة دون أن ينتظر جوابا . وأحسبه كان يعلم انى بعثت الرسول فى طلب أموليا ، ولابد أن الرجل ذكر اسمه ، ومع ذلك فقد تعمد أن يلعب لعبته ، وهو الآن يحاول ألا يدع لى ثغرة لأخبره ان أموليا هو من أردت لا اياه . ولكن هذه الحيلة لم تنتج . فقد استشففت منها ضعفه . يجب ألا أتزحزح قيد شعرة عن الارض التى كسبتها .

قلت : سنديب بابو ! يدهشنى كيف تستطيع أن تمضى بلا توقف فى هذه الخطب التى لا تنتهى . هل تحفظها مقدما عن ظهر قلب ؟

فاحمر وجه سنديب فى الحال ، ومضيت أقول : لقد سمعت ان خطباءنا المحترفين لديهم كتاب ملىء بجميع أنواع الخطب الجاهزة التى يمكن ادخالها فى أى موضوع . أأنت أيضا عندك كتاب ؟

فطحن سنديب جوابه بين أسنانه : لقد أعطاكن الله معشر النساء نصيبا وافيا من الدل ابتداء ، ثم وجدتن فوق ذلك عونا من الحائك والجوهرى ، ولكن لا تحسبن اننا نحن الرجال ضعاف الحيلة حتى ..

ــ خير لك أن ترجع وتذاكر كتابك ياسنديب بابو ، لقد أسمعت كلماتك كلها خطأ ، وهذا عيب الترديد دون فهم .

فصاح سنديب وقد فقد كل سلطان على نفسه : أنت ! أنت تهيننينى هذه الاهانة ! ماذا بقى منك لا أعرفه حتى القرار ؟ ماذا ...

وارتج عليه .

ان سنديب صاحب الرقى السحرية يصاب بالعجز المطلق حين تأبى رقيته أن تحدث أثرا . لقد هوى من ملك الى سوقة . أوه ،

ما أحلى رؤية ضعفه ! وكلما ازداد غلظة تدفقت الفرحة فى نفسى . ان حلقاته الثعبانية التى كان يأسرنى بها قد ذهبت قوتها — اننى حرة . لقد نجوت ، نجوت . اعنف بى ، أهنى ، فذلك يظهرك على حقيقتك ، لكن أعفنى من أغنيات مديحك الكاذبة .

دخل زوجى ونحن على هذه الحال . ولم يجد سنديب من المرونة ما يمكنه أن يملك نفسه فى لحظة كعادته فيما مضى . فنظر زوجى اليه دهشا . ولو حدث هذا منذ أيام لشعرت بالخجل ، ولكننى اليوم مسرورة — مهما يظن زوجى . لقد أردت أن أفرغ من أمر خصمى المتهالك .

تردد زوجى قليلا حين وجدنا كلينا صامتين متحفزين ، ثم جلس على حافة كرسى . قال : سنديب ، لقد كنت أبحث عنك ، وقيل لى انك هنا .

فقال سنديب بشىء من التأكيد : اننى هنا . الملكة أرسلت الى فى الصباح الباكر ، وأنا العامل المسكين فى الخلية تركت كل شىء لأتلقى أوامرها .

— أنا ذاهب الى كلكتا غدا . وأنت آت معى .

— ولماذا بربك ؟ أتحسبنى واحدا من حاشيتك ؟

— أوه ، حسنا . هب أنك ذاهب الى كلكتا ، وانى تابعك .

— ليس لى عمل هناك .

— هذا أدعى لذهابك . فان أعمالك هنا أكثر مما ينبغى .

— لست أنوى الانتقال .

— اذن فأنا أنوى نقلك .

— بالقوة ؟ !

— بالقوة .

— حسنا . سأتحرك اذن . ولكن العالم ليس مقسما بين كلكتا وضياعك . هناك أماكن أخرى على الخريطة .

— لم يكن يبدو من مسلكك أن فى العالم مكانا آخر غير ضياعى .

فنهض سنديب وقال : يحدث أحيانا أن ينحصر عالم المرء فى بقعة واحدة . وقد وجدت عالمى فى حجرة جلوسك هذه ، ولذلك أطلت البقاء .

ثم التفت الى قائلا : ان يفهم كلماتى غيرك يا ملكة . ولعلك انت أيضا لن تفهميها . انى أحييك . أتركك وفى قلبى عبادة . لقد تغير شعارى منذ وقعت عليك عيناى . لم يعد «باندى ماترم» . حييت

يا أم . بل حييت ياحبيبــة ، حييت يا ساحرة . ان الأم ترأم ، والحبيبة تقود الى الهلاك ــ ولــكنه هلاك حلو . لقد جعلت أصوات الخلاخيل فى رقصة الموت ترن بقلبى . لقد غيرت امامى ، أنا عابدك، صورة هذه البنفال بلادنا ، البلاد الرقيقة ، بلاد الماء النمير والجنى الحلو التى لطفتها أنفاس النسيم (١) انك لا تعرفين الرحمــــة ياحبيبتى . لقد جئت الى بكأسك المسموم وسأشربه الى آخرقطرة ، فاما أن أموت معذبا واما أن أعيش منتصرا على الموت .

ومضى يقول : أجــل . لقــد ذهب يوم الأم . آه ياحبيبتى ، ياحبيبتى ، لقد جعلت الحقيقة والعدل والسماء نفسها هباء عندى. كل الواجبــات أصبحت كالظلال ، كل القواعد والحدود انــكسرت قيودها . ياحبيبتى ، ياحبيبتى ، اننى أستطيع أن أشعل النار فى العالم كله غير هذه الارض التى تضعين عليها قدميك الجميلتين ، وأرقص فى فرح مجنون فوق الرماد .. هؤلاء رجــال هادئون . هؤلاء رجال طيبون ، يريدون أن يفعلوا الخير للجميع ــ كأن هــذا الجميع له واقع ! لا ، لا ! ليس فى العالم واقع واحد الا حبى هذا . انى أحبك . ان ولائى لك جعلنى قاسيا ، وعبادتى أضرمت شعلة التدمير الهائجة فى نفسى . أنا لست فاضــلا . أنا لا أومن بشىء ، أنا لا أومن الا بمن استطعت أن أجــدها فوق كل شىء فى العالم .

عجيب ! ان هذا عجيب ! منذ لحظة كنت أحتقر هــذا الرجل من كل قلبى . ولــكن ما كنت أظنه رمادا خابيا ومض الآن بنار حية . ان النار فيه صادقة ولاريب . أوه ، لم جعل الله الانسان كائنا فيه كل هذه الاخلاط ؟ أليظهر قدرته المعجزة ؟ منذ دقائق ظننت أن سنديب الذى حسبته مرة بطلا لم يكن الا بطلا مسرحيا فى فاجعة ، ولــكن هذا غير صحيح ، انه غير صحيح . حتى خلف بهارج المسرح قد يختفى بطل حق ..

ان فى سنديب كثيرا من الغلظ والحسية والزيف ، غشاوات من الجسدية بعضها فوق بعض . ولــكن ــ ولــكن من الخير أن نعترف بأن فى أعمــاقه الــكثير مما لا نفهمه ولا نستطيع أن نفهمه ــ وان كان موجودا فى أنفسنا أيضا . عجيب هو الانسان ، لايعلم الغرض العظيم الخفى من خلقه ألا « الرهيب » (٢) . ولــكننا نئن تحت

---

(١) اقتباس من النشيد الوطنى (باندى ماترم) .

(٢) (رودرا) أو (الرهيب) اسم من أسماء شيفا .

صدمة هـــــذه المعرفة . شيفا اله الفوضى . انه فرح كله . انه سيحطم قبودنا .

لا أستطيع الا أن أشعر مرة بعد مرة ان فى شخصيتين . احداهما تنفر من سنديب فى صورته الفوضوية المرعبة ، والاخرى تجد هذه الصورة نفسها حلوة الاغراء . ان السفينة الفارقة تجر الى القاع كل من يسبحون حولها ، وما أشبه سنديب بهذه القوة المدمرة .

فجاذبيته العظيمة تستولى على المرء قبـل أن يستطيع الخوف انقاذه ، وفى طرفة عين يسحب بقوة لا تقـاوم ، بعيـدا عن كل نور ، كل خير ، كل حرية فى السماء ، كل هواء يستطيـــــع أن يتنفسه ــ بعيدا عن مقتنيات العمر ، ومشاغل اليوم ، الى قرار الفناء .

من عالم من النكبات جاء سنديب رسولا . وبينما يقطع الارض بخطاه الخشبية الواسعة متمتما برقى خبيثة يلتف حوله الصبيـة والشباب جميعا . الأم الجالسة فى زهرة اللوتس حيث قلب البلاد تندب حتى يكاد قلبها يذهب فى العويل ، فقـد اقتحموا مخزنها وعربدوا فيه . خمرتها ، شراب الخالدين ، هراقوها فى التراب ، آنيتها العتيقة جعلوها جذاذاً . حقا اننى أعطف عليها ، غير انى لا أملك مع ذلك ألا تعدينى ثورتهم .

لقد بعث الينا الحق نفسه هذا الاغراء ليختبر أمانتنا فى حفظ وصاياه . السكر يتنكر فى لبوس الهى ويرقص أمام الحجيج صائحا: « حمقى أنتم يا من تسلـكون طريق الزهادة العقيم . ان شـقته بعيدة ، ووقته بطىء المرور . لهذا أرسلنى اليكم رب الصاعقة .

انظروا ، أنا الجميل الحديد سأقبلكم ، فى عناقى سوف تجدون كمالـكم » .

بعـد وقفة خاطبنى سنديب ثانية : ياربة . لقـد حان وقت رحيلى عنك . هـذا خير . ففعل قربك قد تم . وماكان التلكؤ بعد ذلك الا لينقضه قليلا قليلا . كل شىء يضيع اذا حاولنا بطمعنا أن نرخص ماهو أعظم شىء على الارض . ماهو أبدى فى اللحظـة يعود ضحلا اذا امتد على الزمان . لقد كدنا نفسد لحظتنا الاخيرة عندما أدركتنا صاعقتك المصلتة . أنت جئت لانقاذ طهارة عبادتك ، وحين أنقذتها أنقذت عابدك أيضا . اننى أستأذنك اليوم فى الرحيل اذ عبادتك أعظم شىء . ياربة ، أنا أيضا أسلمك حريتك اليوم . فمعبدى الصلصال لم يعد يسعك ، فى كل لحظة كان يوشك أن

يتداعى . اليوم أرحل لأعبد منك صورة أكبر فى معبد أكبر . فانى لا أستطيع أن أجدك حقا الا حين أبتعد عنك . هنا لقيت احسانك فحسب ، وهناك سأحظى بنعمتك .

كان صندوق حليى على المنضدة ، فرفعته قائلة : « اننى أعهد اليك أن تحمل حليى هـــذه الى معبودى . من وهبته اياها على يديك . »

ظل زوجى صامتا . وغادر سنديب الحجرة .

– ٢١ –

ما كدت أجلس لأصنع شيئا من الـكعك لأموليـا حتى ظهرت البارا رانى . فصاحت : يالله ! هل بلغ الحال أن تصنعى كعك عيد ميلادك بنفسك ؟

فسألت : أليس هناك أحد آخر يمكن أن أصنع الـكعك له ؟

– ولـكن ليس هذا هو اليوم الذى تفكرين فيه أن تولمى لغيرك. علينا نحن أن نولم لك . لقد كنت أفكر منذ لحظة فى صنع شيء لك (١) ، عندما سمعت النبأ المذهل الذى أطـار عقلى . يقولون ان عصابة من خمسمائة رجل أو ستمائة هجموا على احدى خزائننا وهربوا بستة آلاف روبية . وهم يتوقعون أن ينهب منزلنا على الأثر .

وشعرت براحة عظيمة . اذن فقد كانت نقودنا على كل حال . وأردت أن أبعث الى أموليا على الفور لأخبره انه ما عليه الا أن يسلم هذه النقود لزوجى ويترك لى تفسير الأمر .

وانفجرت سلفتى صـائحة وقـد رات التغير فى طلعتى : انك لمخلوق عجيب ! ألا تعرفين حقا شيئا اسمه الخوف ؟

قلت : أنا لا أستطيع تصديق ذلك . لماذا ينهبون منزلنا ؟

– لا تصدقينه ! ومن كان يصدق أنهم سيهجمون على خزائننا؟

فلم أجب ، بل انحنيت على كعكاتى أحشوها بجوز الهند .

قالت البارا رانى بعد أن حدقت فى طويلا : حسنا ، انى ذاهبة. يجب أن أرى أخى نيكهيل وأعمل على ارسال نقودى الى كلـكتا قبل أن يفوت الوقت .

ولم تـكد تذهب حتى تركت الـكعكات وشأنها وأسرعت الى

(١) كل طرفة من طعام تقدم في احتفال ينبغي أن تصنعها سيدة البيت بنفسها . المترجم)

حجرة الملابس وأغلقت على البـاب . كانت سترة زوجى لا تزال معلقة هناك والمفـاتيح فى جيبهـا ، فقـد كان شـديد النسيان . فأخذت مفتاح الخزانة الحديدية من الحلقة واحتفظت به مخبأ فى ثنايا ملابسى .

ثم سمعت دقة على الباب . فناديت : «انى ألبس» . وسمعت البارا رانى تقول : عجبا ! منذ دقيقة واحدة رأيتها تصنع كعكا ، والآن هى مشغولة باللبس . وماذا بعد ؟ لست أدرى ! لعله أحد اجتماعات « باندى ماترم » . ثم نادتنى قائلة : اسـمعى أيتهـا الملكة السارقة ! هل تعدين غنائمك ؟

ولست أدرى ما الذى جعلنى أفتح الخزانة بعد أن ذهبا . لعلها بقية أمل فى أن يـكون الأمر كله حلمـا . ماذا لو فتحت الدرج الداخلى ووجدت لفافات الذهب هناك كما كانت من قبـل ؟.. وا أسفاه ! لقد كان كل شىء خاويا كالامانة التى اغتيلت .

واضـطررت أن أمثـل مهزلة اللبس ، واضـطررت أن أعقص شعرى من جديد دون ضرورة . وعندما خرجت سخرت سـلفتى منى : « كم مرة ستلبسين اليوم ؟ » .

قلت : انه عيد ميلادى !

فمضت تقول : أوه ، أى عذر يصلح . ما أكثر من رأيت من النساء المعجبات بأنفسهن ، ولـكنك تبذين الجميع .

وكنت على وشك أن أبعث خادما فى طلب أموليا عندما جاء أحد الرجال برسالة صغيرة سلمها الى . كانت من أموليا ، وقد كتب يقول : « أختى ، لقـد دعوتنى عصر اليوم ، ولـكننى رأيت الا أتأخر ، نأذنى لى أن أنفذ أمرك أولا ثم آتى لآخذ (البراساد) . قد أتأخر . »

لمن تراه سيرد تلك النقود ؟والى أى مأزق جديد يندفع الصبى المسكين ؟ أوه أيتها المرأة الشقيـة ، انك تستطيعين أن ترسليه كالسهم ، ولـكنك لا تستطيعين أن تسترديه اذا أخطأت هدفك .

كان يجب أن أعلن على الفور انى وراء هـذه السرقة . ولـكن النساء يعشن على ثقة محيطهن ، فهذه الثقة هى كل عالمهن ، واذا ظهر مرة أن هذه الثقة قد ديست فى الخفاء فانهن يفقدن مكانتهن فى عالمهن ، ويلزمهن الوقوف على شـظايا ما حطمنه ، فتجرحهن حروفه المسننة فى كل خطوة . الاثم سهل ، ولـكن التكفير عنه هو على المرأة جد عسير .

لقد مضى زمن منذ أغلق أمامى كل سبيل للاتصال بزوجى . فكيف أفاجئه بهذا الخبر الفظيع ؟ اليوم تأخر كثيرا فى المجىء للغداء ، كانت الساعة الثانية تقريبا ، وكان شارد الذهن ، ولم يكد يقرب الطعام . لقد فقدت حتى الحق فى حضه على الأكل . واضطررت أن أحول وجهى لأمسح دموعى .

كم كنت مشتاقة أن أقول له : « تعال الى حجرتنا واسترح قليلا . انك تبدو متعبا » . ولم أكد أطلق حلقى بسعلة صغيرة حتى جاء أحد الخدم مسرعا ليقول ان مفتش الشرطة قد أحضر بانشو الى القصر ، فترك زوجى طعامه وخرج وقد ازداد وجهه اظلاما .

وبعد قليل أقبلت البارا رانى وقالت شاكية : « لماذا لم تبعثى الى حين جاء أخى نيكهيل ؟ لقد فكرت أن أنتهى من حمامى حتى يجىء . وكيف فرغ من غدائه بهذه السرعة ؟

— لماذا ؟ هل كنت تريدينه فى شىء ؟

— ما هذا الذى يقال عن ذهابكما معا الى كلكتا غدا ؟ كل ما يمكننى قوله هو انى لن أبق هنا وحدى . سأموت من الخوف كلما سمعت صوتا وهؤلاء اللصوص كلهم حولنا . هل عزمتما حقا على السفر غدا ؟

— نعم .

قلتها مع أنى لم أسمع بالخبر قبل الآن ، بل لم أكن واثقة أن قصتنا لن تتحول قبل الغد الى اتجاه يجعل الرحيل والبقاء بمنزله سواء . لم أكن لأتصور كيف يصبح بيتنا وحياتنا بعد ذلك ، فقد بدا لى المستقبل مغلفا بالضباب ، أشبه بالاشباح .

بعد بضع ساعات سيصبح مصيرى المجهول ظاهرا . ألا أحد يؤجل مرور هذه الساعات أبدا ، يوما بعد يوم ، حتى يمكننى اصلاح الأمور بقدر ما أستطيع ؟ ان الزمن الذى تقضيه البذرة كامنة فى الارض لطويل ، طويل حقا حتى لينسى المرء أن هناك خطرا من انبثاقها . ولكن شطأها لايكاد يظهر على السطح حتى ينمو وينمو مسرعا بحيث لا يمكن ستره ، لا بالثوب ، ولا بالجسم ، ولا بالحياة نفسها .

لن أحاول التفكير فى الأمر من جديد . بل سأجلس ساكنة ، فى سلبية وجمود ، وأدع الانهيار يأتى متى شاء ، بعد غد سيكون كل شىء قد انتهى . الفضيحة ، والضحك ، والانتحاب ،

والاسئلة ، والشروح ، وكل شيء .

ولـكنى لا أستطيع أن أنسى وجه أموليا ــ جميلا مشرقا بالولاء . انه لم ينتظر فى يأس أن تقع ضربة القدر ، بل أسرع الى زحمة الخطر . فى شقائى أحببه . انه الهى الصبى . بحجة لعبه حمل عنى اصرى . مراده انقاذى بأن يتلقى عقوبتى على رأسه ، ولـكن كيف أتحمل هذه الرحمة الرهيبة من الهى ؟

آه ياولدى ، ياولدى ، انى أحبيك . يا أخى الصغير ، انى أحبيك . نقى أنت ، جميل أنت . انى أحبيك . ليتك تأتى الى ذراعى فى المولد الثانى ابنا لى . هذا هو دعائى .

ــ ٢٢ ــ

نشطت الشائعات من كل جانب . وكان الشرطة دائمى الدخول والخروج ، وخدم المنزل فى اضطراب عظيم .

جاءتنى وصيفتى « خيما » وقالت : « أوه يا أمى الرانى ! بالله ضعى قلادتى الذهبية واسورتى فى خزانتك الحديدية. » لمن أقول ان الرانى نفسها قد نسجت كل هــذه الشــبكة من الاضطراب ، وانها واقعة فيها أيضا ؟ لم أجد بدا من تمثيل دور الحاميةالكريمة وقبول وديعة خيما من الحلى ووديعة ثاكو من النقود . وأحضرت اللبانة بدورها صندوقا لتحفظه فى حجرتى ، كان فيه « ســارى » من صنع بنارس وبعض مقتنياتها الاخرى . وقالت لى : « لقد حصلت على هذه الاشياء فى زفافك . »

عنــدما تفتح خزانتى الحديدية غدا أمام هؤلاء ــ خيما وثاكو واللبانة والجميع.. اننى لا أريد أن أفكر فى هذا ! خير لى أن أفكر كيف يكون الحال عندما يعود هذا اليوم الثالث من « ماغ » مرة أخرى بعد أن يمر عام . هل ستكون كل الجراح فىحياتى البيتية حية بعد كالعهد بها ؟

كتب أموليا أنه سيعود فى المساء . لا أستطيع أن أبقى وحيدة مع أفـكارى ، لا أعمل شيئا . لهذا أجلس ثانية لأصنع كعكا له . لقد صــنعت منه الشيء الـكثير ولـكنى يجب أن أستمر . من سيأكله ؟ سأوزعه على الخدم . يجب أن أفعل هذا الليلة . الليلة موعدى ، والغد لن يكون فى يدى .

مضيت أعمل دون ملل ، أقلى كعكة بعد كعكة . وكان يخيل الى بين لحظة وأخرى ان ثمة ضوضاء من نحو حجراتى فى الطبقة العليا.

ترى هل افتقد زوجى مفتاح الخزانة ، وجمعت البارا رانى الخدم لمساعدته فى البحث عنه ؟ لا ، يجب الا التفت الى هذه الاصوات ، ولأغلق الباب .

ونهضت لأفعل ذلك واذا بشاكو تقبل لاهثة : « أمى الرانى ! أوه ، أمى الرانى ! » .

فقاطعتها ثائرة : اذهبى ! لا تشغلينى !

ومضت تقول : أمنا البارا رانى تريد أن تراك . لقد أحضر ابن أختها آلة عجيبة من كلكتا . انها تتكلم كالانسان . بالله تعالى واسمعيها !

لم أدر هل أضحك أم أبكى . هكذا يجب أن يظهر على المسرح فى مثل هذا الوقت حاك يردد فى كل لغة أغانيه المسرحية ذات الرنين الاخنف ! ما أفظع ما يحدث عندما تقلد الآلة انسانا !

بدأت ظلال المساء تهبط . كنت أعلم أن أموليا لن يرجىء ظهوره ، ولكنى لم أستطع أن أنتظر . فدعوت خادما وقلت : « اذهب وقل لأموليا بابو يأتى الى هنا حالا » . فعاد الرجل بعد لحظة ليقول : ان أموليا لم يكن موجودا ، ولم يعد منذ ذهابه ! » وقعت الكلمة الاخيرة على أذنى كالعويل فى غبشة الظلام . أموليا ذهب ! هل كان اذن كشعاع من الشمس الغاربة ذهب الى الابد ؟ مرت بعقلى كل أنواع المخاطر الممكنة وغير الممكنة . انني أنا التى أرسلته الى حتفه . هبه كان غير هياب ، انما يدل هذا على عظمة قلبه ، ولكن كيف يمكننى أن أعيش وحدى بعد هذا ؟

لم يكن لدى تذكار من أموليا سوى ذلك المسدس ، هدية اجلاله . خيل الى انه كان آية من القدر . هذا الذنب الذى أفسد حياتى من جذورها جاءنى الهى فى صورة طفل وترك لى وسيلة ازالته ثم اختفى . أوه ، يا للهدية المحبة ، ويا للخلاص الذى يكمن فيها !

فتحت صندوقى وأخرجت المسدس ، ورفعته فى خشوع الى جبينى . وفى هذه اللحظة رنت الدقات من المعبد الملحق بمنزلنا ، فانبطحت على الارض للصلاة .

وفى المساء دعوت من فى البيت جميعا الى كعكاتى . فصاحت سلفتى : « لقد هيأت وليمة ميلاد رائعة ، وكل ذلك وحدك ! ولكنك يجب أن تتركى لنا شيئا نفعله . » قالت ذلك وأدارت حاكيها فأطلقت أصوات ممثلات كلكتا الندية الحارة تملأ المكان ،

فكأن اسطبلا يضج بصليل المهار .

تقدم الليل قبل أن ينتهى الحفل . وشعرت بشوق مفاجىء الى ان اختم عيد ميلادى بمسح التراب عن قدمى زوجى . فصعدت الى المخدع ووجدته مستغرقا فى النوم ، فقد كان يومه شاقا مرهقا ، فرفعت طرف الكلة بلطف شديد ووضعت رأسى عند قدميه ، ولابد أن شعرى لمسه فقد حرك رجليه فى نومه ودفع رأسى بعيدا .

ثم خرجت وجلست فى الشرفة الغربية . وكانت هناك شجرة قطن حريرى تقف بعيدا وقد نفضت كل أوراقها فكأنها هيكل عظمى ، ومن خلفها كان الهلال يغرب ، وفجأة شعرت بأن نجوم السماء نفسها خائفة منى ، وان عالم الليل كله ينظر الى شزرا . لماذا ؟ لأنى كنت وحيدة .

لا شىء فى الخليقة أغرب من انسان وحيد . حتى ذلك الذى مات أحباؤه جميعا واحدا بعد واحد ليس بوحيد ، فالصحبة تأتيه من خلف ستار الموت . أما الذى تكون عشيرته معه ولكنهم لم يعودوا قريبين اليه ، الذى انقطع عن كل ضروب الصحبة فى البيت الكامل ، فذلك يبدو عالم النجوم نفسه وكأنه يقشعر من النظر اليه فى ظلامه .

أنا لا أوجد حيث أوجد . أنا نائية عن أولئك الذين يحيطون بى ، أنا أعيش وأتحرك فوق هوة من الانفصال عرضها العالم كله ، قلقة كنقطة الندى على ورقة اللوتس .

لماذا يتغير الناس تغيرا تاما حين يتغيرون ؟ عندما أنظر فى قلبى أجد ان كل ما كان فيه لايزال فيه ، الا أنه انقلب رأسا على عقب . الاشياء التى كانت مرتبة أصبحت ملقاة بعضها فوق بعض . الجواهر التى كانت منظومة فى عقد أصبحت ترقد فى التراب . ولهذا قلبى يتصدع .

اشعر انى أريد الموت . لكن فى قلبى كل شىء ما زال يحيا — وحتى فى الموت لايمكننى أن أرى النهاية ، بل اخال أن فى الموت مزيدا من الاسى . ما يجب انهاؤه فلينه فى هذه الدنيا — فليس غير هذا سبيل .

اواه ، سامحنى هذه المرة ، هذه المرة وحدها يارباه ! كل ما وضعته فى يدى ذخرا لحياتى حولته اصرا لى . ولم أعد أستطيع احتماله ولا التفريط فيه . آه ياربى ، أطلق من جديد أنغام الناى

تلك التى عزفتها لى قديما على حاشية صباحى الوردية ، واجعل كل عقدى يسيرة سهلة . لا شىء غير موسيقى نايك يمكن أن يجبر ما انكسر ، ويطهر ما تدنس . اخلق بيتى من جديد بموسيقاك ، فانى لا أرى سبيلا آخر .

انبطحت بوجهى على الارض وأجهشت بالبكاء . للرحمة كان دعائى ... لرحمة قليلة من مكان ما ، لمأوى ألتجىء اليه ، لآية غفران ، لأمل قد يأتى بالنهاية . وقطعت على نفسى عهدا : « رباه ، سأرقد هنا ، أنتظر وأنتظر ، لا أمس طعاما ولا شرابا ، الا أن تبلغنى نعمتك . »

وسمعت وقع خطا . من يقول ان الآلهة لا تتجلى لبنى الموت ! لم أرفع وجهى ناظرة حتى لا تذهب الرؤية بالمعجزة . تعال ، تعال ، تعال ولتمس قدماك رأسى . تعال وضع قدمك على قلبى النابض، وعندها دعنى أموت .

جاء وجلس قرب رأسى . من ؟ زوجى ! شعرت انى موشكة أن أغيب عن الوعى عند أول لمسة من حضوره . ثم تفجر الألم فى قلبى فيضا قاهرا من الدموع ، يمزق فى طريقه كل عروقى وأعصابى . وضممت قدميه بشدة الى صدرى ـ أواه ، لماذا لم يبق أثرهما هناك الى الابد ؟

مسح على رأسى بلطف ، وتلقيت بركته ، الآن يمكننى أن أحمل وزر مذلتى غدا على رءوس الاشهاد ، وأقدمه ـ مخلصة ـ قربانا عند قدمى معبودى .

ولكن ما يطحن قلبى هو أن نايات الفرح التى عزفت فى زفافى منذ تسع سنوات ، مرحبة بقدومى الى هذا المنزل ، لن ينطلق صوتها لى مرة أخرى فى هذه الحياة . أى تفكير قاس يمكن أن يعيدنى مرة أخرى الى مكانى على تلك المنصة ، عروسا مجلوة لزوجها ؟ كم من السنين ، كم من الاجيال والعصور يجب أن تمر حتى أجد طريقى مرة أخرى الى ذلك اليوم قبل تسع سنين ؟

الفصل الثاني عشر

حكاية نيكهيل

- ١٥ -

اليوم نذهب الى كلكتا . اذا مضينا نكدس أفراحنا وأتراحنا فانها ترزح فوقنا . خطأ أن نحفظها وأن نكدسها . أنا فى موقف صناعى بوصفى رب المنزل ، فالواقع انى مسافر فى طريق الحياة . لهذا يجرح رب البيت الحقيقى فى كل خطوة ، وأخيرا يأتى جرح الموت الاكبر .

كان ارتباطى معك ياحبيبتى هو بعض الطريق . كان خيرا طالما سلكنا طريقا واحدا ، ولن يكون الا عائقا لنا ان حاولنا الابقاء عليه بعد ذلك . اننا الآن نترك قيوده خلفنا . اننا الآن نبدأ رحلتنا من بعده وبحسبنا لو استطعنا أن نرمى نظرة كل لصاحبه أو نحس تلامس أيدينا ونحن نمر . وبعد ذلك ؟ بعد ذلك طريق العالم الاكبر ، تيار الحياة الكونية الذى لا ينتهى .

ما أقل ما يمكنك حرمانى منه ياحبيبتى بعد كل شىء ! كلما أصغيت أسمع صوت الناى ، تتدفق ألحانه من وقفات الفراق . ان شراب الالهة الخالد لا ينفد أبدا . أحيانا تكسر الكأس الذى نشربه فيه وتضحك اذا ترانا جزعين للخسارة الهينة . لن أقف لألتقط كأسى المكسورة ، سأمضى فى سيرى وان كان قلبى ظمآنا.

جاءت البارا رانى وسألتنى : قل لى يا أخى ما معنى كل هذه الكتب التى تربط وترسل فى الصناديق ؟

فأجبت : لا معنى لها الا انى لم أستطع بعد أن أشفى من غرامى بها .

ـ ليتك تبقى مغرما بأشياء أخرى أيضا ! هل تعنى أنك لن تعود الى دارك أبدا ؟

ـ سأجيء وأذهب ، ولكنى لن أحبس نفسى هنا مرة أخرى.

ـ أوه ، صحيح ؟ اذن تعال الى حجرتى وانظر كم من الاشياء لم أستطع « أنا » التخلص من حبى لها .

قالت ذلك وأمسكت بيدى وسارت بى .

وجدت فى حجرة أرملة أخى عددا لا يحصى من الصناديق والصرر المربوطة المعدة . وفتحت أحد الصناديق وقالت : « انظر يا أخى الى كل هذه الادوات التى أصنع بها المضاغ (١) ! فى هذه الزجاجة مسحوق الفوفل المطيب بلقاح أزهار الكاذى ، وهذه العلب الصفيح الصغيرة كلها لشتى أنواع التوابل . ولم أنس ورق لعبى ولا لوحة عساكرى ، فاذا شغلتما عنى كلاكما ففى وسعى أن أجد هناك أصدقاء آخرين يشاطروننى اللعب . أتذكر هذا المشط؟ انه أحد الامشاط الوطنية التى اشتريتها لى ..

ـ ولكن لم كل هذا يا أختى الرانى ؟ لماذا تحزمين أنت كل هذه الاشياء ؟

ـ أتظن انى لا أذهب معكما ؟

ـ أى فكرة غريبة !

ـ لا تخف ! لست ذاهبة الى هناك لأغازلك ولا لأتشاجر مع التشوتا رانى ! لابد من الموت عاجلا أو آجلا ، فلأنتظر على شاطىء الكنج المقدس قبل أن يفوت الأوان . ما أفظع أن أحرق فى محرقتكم هذه الحقيرة ، تحت شجرة « البانيان » المقروضة ! لهذا أبيت أن أموت حتى الآن ، وأثقلت عليكم طول هذا الوقت .

أخيرا استطعت أن أسمع صوت البيت حقا . لقد جاءت البارا رانى الى منزلنا عروسا حين كانت سنى لا تتجاوز السادسة. وكنا نلعب معا طوال الاصائل النعسانة فى ركن من السطح وكنت أقذف اليها بثمار « الأمرا » الخضراء من أعلى الشجرة فتصنع منها مخللات لذيذة الطعم عسرة الهضم بأن تشققها وتعالجها بالخردل والملح والاعشاب العطرة . وكان على أن أجمع لها كل المحرمات من حجرة الخزين لتستخدم فى زفاف دميتها ، فقد كنت أنا وحدى المعفى من العقاب فى قانون جدتى الجنائى . وكنت أعين رسولا من قبلها الى أخى كلما ارادت أن تظفر منه بشىء ذى قيمة خاصة ،

(١) المضاغ ، ما يمضغ ، والمراد به هنا نوع خاص منه (المترجم) .

لأنه لم يكن يستطيع أن يقاوم الحاحى . وانى لاتذكر أيضا حين كنت أقاسى شدة نظام أطباء تلك الايام ، الذين ما كانوا ليسمحوا بشيء غير الماء الدافيء وبذور القاقلى المسكرة فى أثنـاء نوبات الحمى . فكانت زوجة أخى لا تتحمل حرمانى فتأتينى بأطيب الطعـام فى الخفاء . وما أقسى التوبيخ الذى نالها حين ضبطت ذات يوم !

ثم كانت أفراحنـا وأحزاننا المشتركة تكتسب نغمات من الالفة أكثر عمقا كلما كبرنا . وكم تشاجرنا ! فأحيـانا كان الصراع على المصالح الدنيوية يثير الشكوك والغيرة ، ويصيب حبنـا بصداع . وعندما دخلت تشوتا رانى بيننا بدا كأن هذه الصدوع لن تلتئم أبدا ، ولـكن كان يثبت دائما أن القوى الشافية الراقدة فى الاعماق أقوى من الجروح على السطح .

وهكذا نمت بيننا علاقة صحيحة منذ طفولتنا حتى الآن ، وامتدت دوحتها وتفرعت أغصانها فوق كل حجرة وكل شرفة فى ذلك البيت الـكبير . وعندما رأيت البارا رانى تستعد للرحيل عن منزلنا هذا بكل ما تملك ، هزت الصدمة كل الاواصر التى تربطنا حتى أطرافها الممتدة .

لم يخف على السبب فى عزمها على أن تسبح نحو المجهول ممزقة كل روابط العمر من عاداتها اليومية ، فى المنزل الذى لم تفارقه يوما منذ دخلته أول مرة وهى فى سن التاسعة . ومع ذلك فقد أبت أن تسمح لهذا السبب الصحيح بالخروج من بين شفتيها ، مؤثرة أن تعلل بعذر تافه أيا كان .

لم يبق لها فى الدنيا كلها سوى هذه العلاقة الوحيدة ، وكانت المرأة المسكينة الشقية الأرملة العاقر تحرص عليها بكل ما اختزنه قلبها من حنو ، ولم أدرك عمق احساسـها بفراقنا الرتقب كما أدركته وأنا واقف بين صناديقها وصررها المبعثرة .

وبذهنى أن الخلافات الصغيرة التى كانت تنشأ بينها وبين بيمالا حول النقود لم تكن عن حب وضيع للدنيا بل عن شعـورها بأن حقوقها نحو هذه العلاقة الوحيدة فى حياتها قد صودرت وأواصرها وهت بدخول هذه المراة الاخرى التى لايعلم الا الله من أين جاءت! لقد كانت تجرح فى كل خطوة ولم يكن لها الحق أن تشكو .

وبيمالا ؟ لقد شعرت هى أيضا بأن حق البارا رانى على لم يكن قائما على الرابطة الاجتماعية بيننا بل كان أعمق من ذلك جدا ، وكانت تغار من هذه العلائق بيننا ، الممتدة الى طفولتنا .

واليوم دق قلبى بعنف على أبواب صدرى . فتهاويت على أحد الصناديق وأنا أقول : شد ما أحب يا أختى الرانى لو أعود الى تلك الايام التى تقابلنا فيها لأول مرة فى منزلنا هذا القديم !

فأجابت وهى تتنهد : لا يا أخى العزيز . اننى لا أحب أن أعيد حياتى من جديد ـ لا أحب أن أعيدها امرأة ! فلينته ما كان على أن أقاسيه مع هذه الولادة الواحدة ، فانى لا أستطيع احتماله مرة أخرى .

قلت لها : ان الحرية التى نبلغها من خلال الحزن أعظم من الحزن .

ــ قد يكون هذا صحيحا بالنسبة لكم معشر الرجال . الحرية لكم . أما نحن النساء فنريد أن نبقى غيرنا مقيدين ، ونفضل أن نوضع نحن أنفسنا فى القيود . لا ، لا ، يا أخى ، لن تتحرر أبدا من حبائلنا . ان كان لابد لك أن تبسط جناحيك فعليك أن تأخذنا معك ، فنحن نأبى أن نترك وراء . لهذا جمعت كل هذه الاثقال ، اذ لا يصح أبدا أن يترك الرجال يجرون خفافا .

قلت ضاحكا : أستطيع أن أشعر بثقل كلماتك ، واذا كنا نحن الرجال لا نشكو من أحمالكن فلأن النساء يعوضننا أحسن العوض عما يكلفننا حمله .

ــ قالت : أنتم تحملونه لأنه مؤلف من أشياء كثيرة صغيرة . فكلما هممت بالقاء واحد احتج بخفة وزنه ، وهكذا نثقل عليكم بكثير من الخفة .. متى نرحل ؟

ــ القطار يقوم الليلة فى منتصف الحادية عشرة . فأمامنا وقت كثير .

ــ اسمع . كن طيبا مرة وخذ كلمة منى . نم جيدا بعد الظهر . فأنت تعلم أنك لا تنام فى القطار أبدا . انك تبدو مرهقا ، توشك أن تتداعى . هيا . اذهب أولا الى الحمام .

وبينما كنا نسير نحو حجرتى جاءت الوصيفة خيما وقالت لنا بنبرات خفيضة مستعيذة وهى تجذب برقعها بحياء مفرط : ان مفتش الشرطة قد جاء بسجين ، وانه يريد مقابلة المهراجا .

فصاحت البارا رانى غاضبة : هل المهراجا لص أو سارق حتى تزعجه الشرطة هكذا ؟ اذهبى وقولى للمفتش ان المهراجا فى الحمام .

فجادلتها قائلا : دعينى أذهب فأرى ما الخبر . قد يكون أمرا عاجلا .

فأصرت أرملة أخي : لا ، لا ، لقد صنعت تشوتا رانى كعكا كثيرا ليلة أمس ، فأرسل بعضا منه الى المفتش حتى يسكت الى أن تستعد — قالت ذلك ودفعتني الى حجرتي وأغلقت على الباب .

لم تكن لدى القوة لأقاوم مثل هذا الاستبداد ، فانه جد قليل في هذه الدنيا . فليمض المفتش الوقت فى أكل الكعك . ماذا ان أهمل العمل قليلا ؟

لقد كانت الشرطة نشيطة فى هذه الايام الاخيرة تقبض على هذا ثم هذا ، وكل يوم يجلب شخص برىء ليبعث حياة فى الجمعية المنعقدة فى مكتبى . فقلت لنفسى : واحد من هؤلاء المساكين جىء به اليوم . ولكن لماذا يستمتع المفتش وحده بالكعك ؟ هذا لا يليق أبدا .

فطرقت الباب بقوة .

نادت أرملة أخي من الدهليز : ان كان عقلك يجن فأسرع وصب بعض الماء على رأسك — انه يهدئك .

فصحت : ابعثى كعكا لاثنين . لعل الشخص الذى جىء به على انه اللص أحوج اليه . قولى للرجل يعطه نصيبا كبيرا .

واستحممت بسرعة . ولما خرجت وجدت بيمالا جالسة على الارض خارج الحجرة (١) . أهذه بيمالى القديمة ، بيمالى المتكبرة الحساسة ؟ أى معروف تريد أن تطلب وهى جالسة هكذا عند بابى ؟ حين وقفت قامت وقالت بلطف وعيناها منكستان : أريد أن أتكلم معك .

قلت : اذن فادخلى .

— لعلك خارج لأمر ؟

— كنت خارجا . ولكن لا بأس . أريد أن أسمع ...

— لا . انه عملك أولا . سنتحدث بعد أن تتناول غداءك .

فخرجت الى حجرة الجلوس لأجد طبق المفتش خاليا تماما ، الا أن الشخص الذى أحضره معه لايزال منهمكا فى الأكل .

وصحت دهشا : مرحى ! أهو أنت يا أموليا ؟

فقال أموليا وفمه مكتظ بالكعك : انه أنا ياسيدى .. لقد أكلت كثيرا ، واذا أذنت لى فآخذ الباقى معى .

قال ذلك وبدأ يصر الكعكات الباقية فى منديله .

---

(١) الجلوس على الارض علامة على الحداد ، ومن ثم يدل — يترابط الافكار — على حالة من ذلة النفس (المترجم) .

سألت وأنا أحملق فى المفتش : ما معنى هذا ؟

فضحك الرجل وقال : اننا لم نقترب ياسيدى من حل مشكلة اللص ، ومع ذلك فان سر السرقة يزداد غموضا . ثم أخرج شيئا مربوطا فى خرقة ، ظهر حين حله أنه رزمة من الاوراق النقدية .

قال المفتش :

ــ هذه يامهراجا هى الستة الآلاف من الروبيات .

ــ أين وجدت ؟

ــ فى يدى أموليا بابو . لقد ذهب مساء البارحة الى وكيل مكتبك فى تشاكنا ليخبره ان النقود وجدت . وبدأ الوكيل أشد هلعا لاسترداد النقود مما كان عند سرقتها . فقد خاف أن يشك فى أنه سرق النقود ثم جاء الآن يخترع قصة خرافية لئلا يكتشف أمره . فسأل أموليا أن ينتظر متعللا باحضار شراب له ثم جاء مسرعا الى مركز البوليس . فقمت على الفور ، وأبقيت أموليا معى ، وشغلت بأمره طول الصباح . فهو يرفض أن يخبرنا من أين جاء بالنقود ، وقد حذرته أنه سيظل محجوزا حتى يفعل ذلك ، فقال لى انه سيضطر الى الكذب فى هذه الحالة . قلت له فليكذب إن أراد . فقرر انه وجد النقود تحت شجرة . فأوضحت له ان الكذب ليس سهلا الى هذا الحد . فتحت أى شجرة وجدها ؟ وأين هذه الشجرة ؟ ولماذا كان هناك ؟ عليه أن يقرر كل ذلك أيضا . فقال : لا تقلق . هناك متسع من الوقت لاختراع هذا كله .

قلت : ولكن ياحضرة المفتش ، لماذا تضايق سيدا شابا محترما مثل أموليا بابو ؟

قال المفتش : أنا لا أرغب فى ازعاجه ، فهو ليس سيدا فحسب بل ابن نيبا ران بابو زميلى فى الدراسة . دعنى أقل لك يامهراجا ماحدث بالضبط كما أعتقد . ان أموليا يعرف اللص ، ولكنه يريد حمايته بتعريض نفسه للشبهة . فهو يحب هذا النوع من اظهار الشجاعة .

ثم التفت المفتش الى أموليا قائلا : اسمع أيها الشاب . أنا أيضا كنت فى الثامنة عشرة مرة ، وكنت طالبا فى كلية ريبون ، وكدت أدخل السجن لمحاولتى انقاذ سائق عربة من يد شرطى . بمشقة نجوت .

ثم التفت الى ثانية وقال : يامهراجا يظهر أن اللص الحقيقى

سينجو الآن ، ولـكنى أستطيع أن أخبرك من أصل هذا كله .

فسألت : من ؟

ــ ذلك الوكيل بالاتفاق مع الحارس قاسم .

ولمـا ذهب المفتش أخيرا بعد أن احتج لنظريته كما حلا له قلت لأموليا : اذا أخبرتنى من أخذ النقود فانى أعدك ألا يضار أحد.

فقال : أنا أخذتها .

ــ ولـكن كيف يمكن هذا ؟ وعصابة الرجال المسلحين ؟

ــ بل أنا وحدى !

وكان ما أخبرنى به أموليا بعد ذلك عجيبا . ان الوكيل كان قد فرغ لتوه من عشائه ، وكان فى الشرفة يغسـل فمه ، والمكان معتم ، وكان أموليا يحمل مسدسين فى كلا جيبيه ، أحدهما محشو بطلقات فارغة والآخر بالرصاص ، ويضع قناعا على وجهه ، فصوب ضوء مصباح كاشف الى عينيه ، وأطلق طلقة فارغة ، فأغمى على الرجل . وجاء بعض الحراس مسرعين ، ولم تكن نوبتهم ، ولـكن أموليا أطلق طلقة فارغة أخرى نحوهم فسارعوا بالاختفاء . ثم جاء قاسم ، صاحب النوبة ، يلوح بعصا ، وفى هذه المرة صوب أموليا رصاصة الى ساقيه ، فلما وجد قاسم أنه جرح تداعى الى الارض. عند ذلك أمر أموليا الوكيل المرتعد ، وكان قد أفاق ، أن يفتـح الخزانة ويسلم اليه ستة آلاف روبية . وأخيراً ركب أحد جيـاد الضـيعة وجرى به بضعة أميـال . ثم أطلق الحصان ومشى الى منزلنا مطمئنا .

سألته : وما جعلك تفعل هذا كله يا أموليا ؟

فأجاب : كان هناك سبب هام يامهراجا .

ــ اذن فلماذا تحاول رد النقود ؟

ــ دعها تحضر، تلك التى فعلت ذلك بأمرها. فى محضرها سأصرح بـكل شىء .

ــ ومن هى ؟

ــ أختى التشوتا رانى !

فأرسلت الى بيمالا . وجاءت تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، حافية القدمين ، على رأسها شال أبيض . لم أر بيمالا قط فى هـذه الصورة من قبل . بدت كما لو كانت متدثرة بنور الصباح .

ركع أموليـا محييا ومسح التراب عن قدميها . ثم قال وهو ينهض :

ـ نفذ أمرك يا أختى . ردت النقود .

قالت : لقد أنقذتنى يا أخى الصغير .

فاستمر أموليا يقول : كانت صورتك فى مخيلتى فلم أكذب مرة واحدة . ان شعارى « باندى ماترم » قد ألقى عند قدميك الى الابد . وقد تلقيت مكافأتى ، البراساد الذى صنعته لى ، لحظة جئت الى القصر .

فنظرت اليه بيمالا نظرة فارغة وقد غاب عنهـا معنى كلمـاته الاخيرة . فأخرج أموليا منديله وحله وأراها الـكعكات التى وضعها فيه . قال : لم آكلها كلها . استبقيت هذه حتى تقـدميها الى بيديك .

ورأيت ألا مكان لى . فخرجت من الحجرة ، وقلت لنفسى : أنا لا أستطيع الا أن أعظ وأعظ ، حتى أكافأ بحرق صـورتى . لم أستطع بعـد أن أستردروحا واحـدة من طريق الموت . الذين يملـكون القدرة على ذلك يفعلونه باشارة ، ولـكن كلماتى ليس لها هذا المعنى الذى لايوصف . لست شعلة بل فحمة سوداء منطفئة. لايمكننى أن أشعل مصباحا . هذا ماتدل عليه قصة حياتى. صف مصابيحى بقى غير مضاء .

ـ ١٦ ـ

عدت الى الحجرات الداخليـة وئيد الخطا . لابد أن حجـرة البارا رانى كانت تجتذبنى مرة أخرى . لقد كانت ضرورة محتمة على فى ذلك اليوم أن أشعر بأن حياتى هذه استطاعت أن تعزف لحنا ، أن تضرب على وتر حساس فى قيثارة حياة أخرى . ان الانسان لايستطيع تحقيق وجوده بالبقاء داخل نفسه ـ بل يجب أن يلتمسه خارجها .

ولما مررت أمام حجرة ارملة أخى خرجت قائلة : لقد خفت أن تتأخر اليوم أيضا . ولـكنى أمرت باعداد غدائك حالمـا سمعتك قادما . سيكون حاضرا بعد دقيقة .

قلت : فى أثناء ذلك أخرج نقودك استعدادا لآخـذها معنا . وبينما كنا سائرين نحو حجرتى سألتنى هل جاء مفتش الشرطة بخبر عن السرقة . ولم أشأ أن أخبرها بكل التفاصيـل عن رد تلك الستة الآلاف ، فقلت مراوغا : هذا سبب كل الضجة .

وعندما دخلت حجرة ملابسى وأخرجت سلسلة مفاتيحى لم أجد

مفتاح الخزانة الحديدية فى الحلقة . حقا اننى مبتلى بالنسيان ! ففى هذا الصباح نفسه كنت أفتح كثيرا من الصناديق وغيرها ولم الاحظ قط أن هذا المفتاح غير موجود .

سألتنى : ماذا حدث لمفتاحك ؟

ورحت أفتش فى هذا الجيب وذاك ولكنى لم أستطع أن أجيبها. وبحثت فى المكان الواحد مرات . ثم خطر لنا كلينا أن الأمر لايمكن أن يكون خطأ فى مكان المفتاح بل لابد أن أحدا أخذه من الحلقة . ترى من يكون ؟ من غيرنا يمكن أن يدخل هذه الحجرة ؟

قالت لى : لا تشغل بالك به . هلم الى طعامك أولا ، فلابد أن تشوتا رانى تحتفظ به لعلها أيقنت انك أصبحت كثير النسيان .

ولكننى كنت شديد الانزعاج . فلم يكن من عادة بيمالا أن تأخذ مفتاحا من مفاتيحى دون أن تخبرنى بذلك . ولم تحضر بيمالا الغداء معى فى ذلك اليوم ، فقد كانت مشغولة باطعام أموليا فى حجرتها. وأرادت أرملة أخى أن تبعث اليها لتأتى ولكنى سألتها ألا تفعل.

لم أكد أفرغ من غدائى حتى دخلت بيمالا ، وكنت أفضل ألا أتحدث معها فى أمر المفتاح بمحضر من البارا رانى ، ولكنها ما أن رأت بيمالا حتى سألتها : أتعلمين ياعزيزتى أين مفتاح الخزانة ؟

وكان الجواب : انه معى .

فصاحت أرملة أخى منتصرة : ألم أقل لك ؟ ان التشوتا رانى تتظاهر أنها لا تبالى بهذه السرقات ، ولكنها تحتاط منها فى الخفاء .

ورأيت على وجه بيمالا ما بعث فى نفسى الشك . فقلت : دعى أمر المفتاح الآن . سأخرج تلك النقود فى المساء .

فقالت البارا رانى : هأنت ذا تؤجل مرة أخرى . لماذا لاتخرجها وتبعثها الى الخزانة وأنت ذاكر ؟

قالت بيمالا : أنا أخرجتها .

فانتفضت . وسألت أرملة أخى : أين احتفظت بها اذن ؟

ـ لقد صرفتها .

ـ عجبا ! وفيم صرفت كل هذه النقود ؟

فلم تجب بيمالا. ولم أوجه اليها سؤالاآخر. وبدا أنالبارا رانى تهم بإبداء ملاحظة أخرى لبيمالا ، ولكنها ردت نفسها عن ذلك ، وأخيرا قالت وهى تنظر نحوى : حسن لابأس علىكل حال. تماما كما كنت أفعل بنقود زوجى السائبة . كنت أعلم أن لا فائدة

من تركها معه ، فسيأخذها المتطفلون وهم كثيرون . أنت مثله ياعزيزتى . ما أكثر الطرق التى تعرفونها معشر الرجال لصرف النقود . اننا لا نستطيع انقاذها من أيديكم الا بأن نسرقها نحن . هيا . قم لتنام .

وقادتنى البارا رانى الى حجرتى ، ولكننى كنت لا أكاد أعى أين أذهب . وجلست بجانب سريرى بعد أن تمددت عليه ، وابتسمت لبيمالا وهى تقول : أعطينى كعكة من كعكاتك ياحبيبتى تشوتى . ماذا ؟ ليس معك شىء ! لقد أصبحت أشد اسرافا من عقيلة الحاكم . اذن فاطلبى بعضا من حجرتى .

فسألت قلقا : لكن هل تناولت غداءك ؟

فأجابت : أوه ، منذ مدة ــ وكان واضحا أنها كذبة .

وظلت بجانب فراشى تثرثر حول أمور شتى . وجاءت الوصيفة وقالت لبيمالا ان غداءها حاضر وقد كاد يبرد ، ولكنها لم تبد أثرا لسماع ذلك . فقالت البارا رانى : « ألم تتناولى غداءك بعد !كيف هذا ؟ لقد تأخرت جدا . » . وخرجت مع بيمالا .

كان فى وسعى أن ألمح صلة ما بين أخذ هذه الستة الآلاف وسرقة الاخرى . ولكننى غير مشوق الى معرفة طبيعة هذه الصلة ، ولن أسأل عنها أبدا .

ان القدر يترك حياتنا مشكلة بصورة غير كاملة ، لأنه يريد أن نضع بأنفسنا اللمسات الاخيرة ، ونعطيها الشكل النهائى الذى نرغبه . ولقد كان فى نفسى دائما شوق الى التعبير عن فكرة عظيمة خلال تشكيل حياتى على ما رسم الخالق . فى هذا الجهد انفقت أيامى جميعا ، ولا يعلم الا المطلع على القلوب بأى قسوة كبحت رغباتى ، وقمعت نفسى فى كل خطوة .

ولكن العسير فى الأمر هو ان حياة المرء ليست حياته وحده . فمن أراد أن يصنعها فعليه أن يستعين بما حوله والا فشل . لهذا كان حلمى الدائم أن أجتذب بيمالا حتى تشاطرنى صنع نفسى . كنت أحبها بكل روحى ، اذن فلابد أن أنجح فى كسبها لغرضى ــ تلك كانت عقيدتى الراسخة .

ثم اكتشفت ان الذين يستطيعون فى يسر وبلا تكلف أن يجتذبوا ما يحيط بهم الى الاشتراك فى صنع أنفسهم أولئك ينتمون الى نوع من جنس الانسان ، وأنا الى نوع آخر . لقد تلقيت الشرارة الحيوية ، ولكننى لا أستطيع اعطاءها لغيرى ، والذين سلمت اليهم

كل ما عندى أخذوا كل ما عندى ، ولـكنهم لم يأخذونى معه .
ان اختبارى لعسير. فطالما اشتدت حاجتى الى معين لم أجد غير نفسى . ولـكننى آليت أن أنتصر حتى فى هذا الاختبار . لأخطون وحيدا فى طريقى الشائك الى حيث تنتهى رحلة هذه الحياة ..
بدأت أشك انى لم أخل قط من عرق استبداد . كنت مستبدا فى رغبتى أن أصب علاقتى ببيمالا فى شـكل صلب واضح كامل . ولـكن حياة الانسان لم تجعل لتصب فى قالب . واذا حاولنا أن نشكل الخير كما نشكل المادة فانه ينتقم انتقاما رهيبا بأن يفقد حياته.
لم أدرك طوال هذا الزمن أن استبدادى اللاشعورى ذاك هو الذى جعلنا نتباعد شيئا فشيئا. انحياة بيمالا لم تجد مستواها الحقيقى لأنى كنت أضغط من أعلى ، فاضطرت أن تلتمس مخرجا بهدم شواطئها من القاع . اضطرت أن تسرق هـــذه الستة آلاف من الروبيات لأنها لم تستطع أن تكون صريحة معى ، لأنها شعرت أنى أستبد بمخالفتها فى بعض الاشياء .
ان الرجال الذين تتملـكهم فـكرة واحـدة مثلى لا يفرقون بين أنفسهم وبين من يستطيعون موافقتهم ، أما من لايستطيعون ذلك فلا يمكنهم مسايرتنا الا بأن يفشونا . انه عنادنا الصلب الذى يدفع أكثر الناس صراحة الى الالتواء . فى محاولتنا أن نصنع رفيقـة نفسد زوجة .
هل يمكننى أن أعود الى البداية ؟ اذن لاتبعت سبيل البسطاء . اذن لما حاولت أن أقيـد رفيقة حياتى بأفكارى ، بل لعزفت على نايات حبى الطروب وقلت : «هل تحبيننى؟ اذن فلتكبرى صادقة مع نفسك فى ضوء حبك . فلتهمل مشورتى ، ولتنتصر حكمة الله فيك ، ولتتوار أفـكارى خجلى » .
ولـكن هل يستطيع طب الطبيعة نفسها أن يأسو الجرح المنهتك، الذى تفجرت فيه كل خلافاتنا المتجمعة ؟ لقد تمزق الحجاب الذى تستطيع قوى الطبيعة الصامتة وحـدها أن تعمـل تحت ستره ، ويجب أن تضمد الجروح ، فهل يمكننا أن نضمد جرحنـا بحبنا حتى يأتى اليوم الذى لا تظهر فيه ندبته ؟ ألم يفت الأوان ؟ ما أكثر الوقت الذى ضاع فى سوء الفهم ! لقد وصلنا بمشقة الى تفاهم ، فكم نحتاج لنصحح الخطأ ؟ وماذا ان التأم الجرح آخر الأمر ؟ هل يمكن اصلاح ما أفسده ؟
سمعت صوتا قرب الباب ، فلما التفت رأيت شبح بيمالا يتراجع

من الباب المفتوح . لابد انها كانت منتظرة عند الباب ، تتردد هل تدخل أو لا تدخل ، وأخيرا قررت أن ترجع . فهببت ووثبت الى الباب مناديا : « بيمالا » .

فتوقفت ، وكان ظهرها الى . فذهبت وأخذت بيدها وقدتها الى حجرتنا . وانطرحت بوجهها على وسادة وأجهشت بالبكاء . ولم أقل شيئا ، ولكنى ظللت ممسكا بيدها وجلست عند رأسها .

وعندما سكنت عاصفة حزنها استوت جالسة . وحاولت أن أضمها الى صدرى ولكنها رفعت ذراعى عنها وركعت عند قدمى، وراحت تلمسها برأسها فى خشوع . فسحبتهما مسرعا ولكنها اعتنقتهما قائلة بصوت مختنق : لا ، لا ، لا ، لا تبعد قدميك ، دعنى أتم عبادتى .

وبقيت ساكنا . من أكون لامنعها ؟ أأنا الهها المعبود حتى أجد من عبادتها حرجا ؟

حكاية بيمالا

- ٢٢ -

كفى ، كفى ! آن ان ننشر الشراع نحو ذلك المرج العظيم حيث يلتقي نهر الحب ببحر العبادة . فى تلك الزرقة الصافية يهبط ثقل أوحاله جميعا ويختفى .

أنا الآن لا أخاف أحدا ، لا نفسى ولا أحدا غيرى . لقد اقتحمت النار وعبرتها ، وما كان للحريق صار رمادا ، وما بقى لايموت . لقد نذرت نفسى لقدميه ، من تلقى كل خطيئتى فى أعماق أله .

الليلة نذهب الى كلكتا . لقد منعتنى متاعبى الباطنية طويلا من النظر فى حاجاتى ، فلأرتبها الآن ولأحزمها .

بعد لحظة وجدت زوجى قد دخل وأخذ يعاون فى اعداد الحقائب . فقلت : هذا لا يكون . ألم تعدنى أنك ستنام ؟

فأجاب : لعلى وعدت ، ولكن نومى لم يعد، ولم أجده فى مكان .

فرددت : لا ، لا ، هذا لايكون أبدا . ارقد ساعة على الاقل .

— ولكن كيف تستطيعين القيام بهذا كله وحدك ؟

— اننى أستطيع ولا شك .

— حسنا ، لك أن تفخرى بقدرتك على الاستغناء عنى . ولكنى أصارحك القول انى لا أستطيع الاستغناء عنك . حتى النوم أبى أن يوافينى وحدى فى تلك الحجرة .

ثم عاود العمل .

ولكن شاغلا جاء فى صورة خادم قال ان سنديب بابو قدم وطلب الاذن فى الدخول . ولم أجرؤ أن أسأل من كان يريد . وبدا لى نور السماء يغمض فجأة كأوراق نبات حساس .

قال زوجى : تعالى يا بيمالا . فلنذهب ولنسمع ما يريد سنديب ان يقول لنا . لابد أن لديه أمرا ذا بال ما دام قد عاد بعد استئذانه فى الرحيل .

فذهبت . لا لشيء الا أن البقاء كان أكثر حرجا . كان سنديب يحملق فى صورة على الحائط ، وقال ونحن ندخل : لابد انكما تتساءلان فيم عاد الرجل . ولكنكما تعلمان أن الشبح لايذهب حتى تتم جميع الطقوس .

قال ذلك وأخرج من جيبه شيئا مربوطا فى منديله . وبعد أن وضعه على المنضدة حل العقدة . كانت تلك الجنيهات الذهبية .

قال : لا تسيء الفهم يا نيكهيل . لا تحسبن أن عدوى صحبتك قد أحالتنى فجأة رجلا أمينا . لست بالذى يرجع تائبا متباكيا ليرد نقودا حصل عليها بغير حق . ولكن ...

ولم يتم كلامه . وبعد لحظة التفت الى نيكهيل ولكنه خاطبنى قائلا : بعد كل هذه الايام يا ملكة وجد شبح الندم طريقا الى ضميرى الذى لم يكن يزعجه شيء . وما دمت لا أجد بدا من مصارعته كل ليلة بعد أن تذهب أول سنة من النوم فانى لا أستطيع أن أسميه شبحا من صنع خيالى . حتى أنا لا نجاة لى أو أقضى دينه . دعينى اذن أرد الحق الى يدى ذلك الروح . يا الهة ! منك وحدك دون العالمين لن أستطيع أن أنتزع شيئا . لن أتخلص منك حتى أترب . استردى هذه !

وفيما كان يقول ذلك أخرج صندوق الحلى من تحت عباءته ، ووضعه وتركنا مسرع الخطا .

وناداه زوجى : اصغ الى يا سنديب !

فقال سنديب وهو يقف قرب الباب : ان وقتى ضيق يانيكهيل . لقد سمعت ان المسلمين يروننى جوهرة لا تقدر بثمن ، ويأتمرون بى ولكنى أشعر ان من الضرورى أن أعيش . ليس أمامى الا خمس وعشرون دقيقة لألحق بالقطار المسافر الى الشمال . وهكذا يجب أن أذهب الآن . سنتحدث فى أول فرصة مناسبة . واذا أردت نصيحتى فلا ترجىء سفرك أنت أيضا . أحييك يا ملكة ، يا ملكة القلوب الدامية ، يا ملكة الخراب !

ثم ذهب سنديب وهو يكاد يعدو . ووقفت سامدة . لم أدرك قط من قبل كما أدركت اليوم كم كان هذا الذهب وهذه الحلى تافهة حقيرة . منذ لحظة قصيرة كنت مشغولة بالتفكير فيما ينبغى أن آخذه معى ، وكيف أضعه فى الحقائب ، والآن شعرت ألا حاجة الى أخذ شيء ما . انما الأمر المهم هو الخروج والانطلاق .

قام زوجى من كرسيه وجاء الى وأخذ بيدى وقال : ان الوقت

يتقدم ، ولم يبق لدينا متسع لنتم معدات الرحلة .

وهنا دخل تشاندرانات بابو فجأة . فلما وجدنا مجتمعين تراجع لحظة ثم قال : سامحينى يا أمى الصغيرة ان تطفلت . نيكهيل ، ان المسلمين ثائرون فى مقاطعة هاريش كوندو !

فقال زوجى : أنا ذاهب .

وجادلته وأنا أمسك بيده : « ماذا تستطيع أن تصنع هناك ؟ » .

وتوسلت الى أستاذه : « ألا تأمره ألا يذهب ؟ » .

فأجاب : يا أمى الصغيرة . الوقت لا يسمح بغير ذلك .

وقال زوجى وهو يغادرنا : لا تخافى يا بيمالا .

وعندما ذهبت الى النافذة رأيت زوجى يركض جواده ولا سلاح بيديه .

وبعد دقيقة أقبلت البارا رانى مسرعة وصاحت : ماذا فعلت ياتشوتى ياحبيبتى ؟ كيف تركته يذهب ؟

وقالت ملتفتة الى أحد الخدم : ناد رئيس الديوان حالا !

ولم تكن الملكات يظهرن أمام رئيس الديوان ، ولكن البارا رانى كانت فى شغل عن مراعاة التقاليد . قالت حالما جاء رئيس الديوان : أرسل فارسا ليعيد المهراجا على الفور !

فقال رئيس الديوان : لقد توسلنا اليه جميعا أن يبقى يا أمنا الرانى . ولكنه أبى أن يلتفت .

فصاحت سلفتى بجنون : ابعثوا اليه ان البارا رانى مريضة ، وانها على فراش الموت !

وعندما خرج رئيس الديوان التفتت الى ثائرة : أنت يا ساحرة ، يا شيطانة ، لم تستطيعى أن تموتى أنت ، ولكنك أبيت الا أن ترسليه الى حتفه !..

وبدأ ضوء النهار يذبل ، وغابت الشمس خلف شجرة « الساجنا » المزهرة بأوراقها التى تشبه الريش . ما زلت الى اليوم أرى كل لون من الوان ذلك الغروب . كان على كلا جانبى القرص الغارب ركام من سحاب فبدا كطائر عظيم نشر جناحين لهما ريش نارى . وخيل الى أن ذلك اليوم الرهيب يطير ليعبر محيط الليل .

واحلولك الظلام . وكانت ضجة بعيدة تنبثق فى موجات تتردد تحت جنح الليل ، كألسنة النار فى قرية بعيدة أصابها الحريق ، تثب كل حين فوق الافق .

ورنت دقات صلاة المساء من معبدنا . وكنت أعلم أن البارا راني جالسة هناك وقد ضمت راحتيها فى صـــــلاةصامتة ، ولكنى لم أستطع أن أبتعد عن النافذة خطوة .

وابهمت الطرق ، والقرية من ورائها ، وستار الاشجار البعيد وراء القرية. وكانت البركة فى أراضينا شاخصة الى السماء بلمعان كاب كعين ضرير ، وعلى اليسار كان البرج يبــدو مشرئبا ليلمح شيئا يحدث .

ان أصوات الليل تتنكر فى شتى الصور . ينكسر غصن فتحسب أن أحدا يجرى هاربا من الموت . ويصطفق باب فتخالها دقة مفاجئة من قلب عالم مذعور .

أنوار تضوىء تحت ظل الاشجار البعيدة ثم تختفى. حوافر جياد تدق من حين الى حين ، ثم يتبين انها لفرسان يخرجون من أبواب القصر .

ولازمنى الاحساس بأنى لو استطعت فقط أن أموت لانتهى كل هذا الاضطراب . فطالما بقيت حية ستظل آثامى فى عنفوانها تنشر الخراب فى كل جانب . وتذكرت المسدس فى صندوقى . ولــكن قدمى أبتا أن تزايلا النافذة للبحث عنه . ألم أكن أنتظر قدرى؟

دق جرس الساعة عشرا فى مهابة وجلال . وبعد قليل لاحت على البعد مجموعات من الانوار ، وزحف حشد من الناس على الطرقات فى الظلام نحو أبواب القصر كثعبان عظيم .

وأسرع رئيس الديوان الى البوابة لدى سماع الصــوت . فاذا بفارس يركض جواده . فسأله : ماذا وراءك يا جاتا ؟

فكان الجواب : شر .

استطعت أن أسمع هذه الـكلمات بجلاء من نافذتى . ولــكنها أردفت بهمس لم تستطع أذناى التقاطه .

ثم أقبلت محفة يتبعها سرير. وكان الطبيب يسير بجانب المحفة.

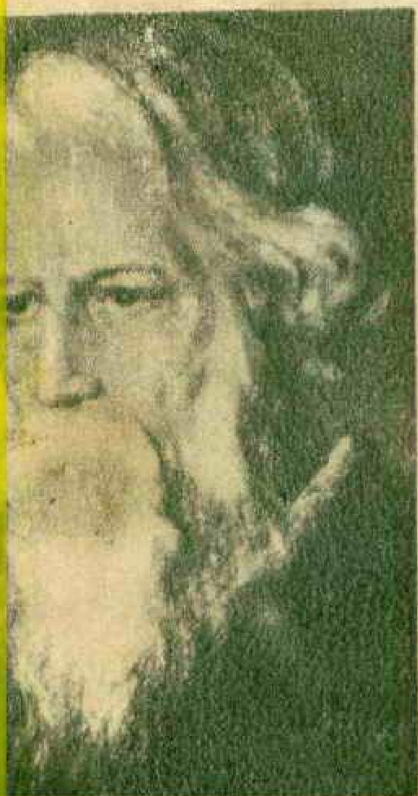
وسأل رئيس الديوان : ما رأيك يا دكتور ؟

فأجاب الطبيب : لا أستطيع أن أحكم الآن . ان الجرح فى الرأس خطير .

ــ وأموليا بابو ؟

ــ أصيب برصاصة فى القلب . لا أمل فى حياته .

تمت



رابندرانات طاغور

هذه الرواية

« البيت والعالم » احدى الروايات الرائعة التى كتبها الشاعر والروائى والموسيقار والفيلسوف والزعيم الوطنى الهندى العظيم رابندرانات طاغور . وقد كان طاغور واحدا من اكبر الفنانين والمفكرين الذين انجبهم القرن العشرون فى العالم كله ، وكان يكتب ادبه باللغة البنغالية « وهى لغة هندية محلية ، ومع ذلك فقد كان لهذا الادب قيمة عالمية كبيرة ، لقد كان طاغور يترجم انتاجه الادبى الى الانجليزية التى عرفها معرفة ممتازة عندما كان يدرس القانون بانجلترا وهو طالب صغير . كما كان اديب فرنسا الكبير اندريه جيد يترجم له اعماله الى الفرنسية ، وقد نال طاغور جائزة نوبل سنة ١٩١٣ لما فى أدبه من قيم انسانية رفيعة .

وقد ظل طاغور طيلة حياته «١٨٦١ ـ ١٩٤١» علما من اعلام الحرية والفن الانسانى السامى وكان معلما يؤمن بدور الاديب والفنان فى تغيير الحياة والارتفاع بمستوى الانسان ولذلك شارك فى الحركة الوطنية الهندية مشاركة كبرى كما اسس سنة ١٩٠١ مدرسة « دار السلام » التى تحولت الى جامعة منذ سنة ١٩٢٢ ، وقد زار مصر سنة ١٩٣٦ .

و « البيت والعالم » هى احدى روائع طاغور الروائية ، وقد ترجمها الناقد الفنان الدكتور شكرى عياد استاذ الادب العربى بجامعة القاهرة ومن هنا جاءت الرواية تحفة فنية رائعة فى ترجمة عربية راقية دقيقة وسلسة ،

الثمن ٣٥ قرشا